ندوة المجلات

كنت أتساءل دائماً عن الفائدة المرجوة من عقد مؤتمرات أو ندوات يشارك فيها مسؤولون عن مؤسسات ثقافية ، او كتاب أو مفكرون ، ويبحثون في مسألة من المسائل التي تلح عليهم ، او على مؤسساتهم ، أو على اوطانهم ، او حتى على عصرهم . وكنت اعتقد دائماً ان هذه الفائدة ليست كبيرة كما قد تبدو للوهلة الأولى ، وذلك نظراً لما يحيط عادة بهذه المؤتمرات أو الندوات من مواصفات واعتبارات لابد من مراعاتها والبقاء داخل حدودها .

ومازلت اذكر المؤتمر الخامس لكتاب آسيا وافريقيا الذي انعقد في مدينة ألما ـ آتا عاصمة جمهورية كازاخستان السوفييتية في اواخر صيف عام ١٩٧٣ ، وندوة الشعر الافريقي الآسيوي التي انعقدت في مدينة يريفان عاصمة جمهورية آرمينيا السوفييتية في اعقاب انتهاء المؤتمر . لقد كان المؤتمر والندوة فرصة طيبة لكي تجدد هذه النخبة الممتازة من كتاب آسيا وافريقيا وشعرائها اتصالها الذي تقطعه المسافات ، ولكي تتاح الفرصة لاقامة حوار حول المسائل الثقافية والادبية ، والسياسية أيضاً ، المطروحة على امتداد القارتين .

غير ان الملاحظ هو ان هذا الحوار كان يجري خارج ردهات المؤتمر وقاعاته الفسيحة الارجاء ، وان الاتصالات الشخصية كانت الاساس في هذا الحوار الذي امتد عدة ايام . صحيح ان الموضوعات التي طرحت للمناقشة داخل قاعات المؤتمر كانت على درجة كبيرة من الاهمية ، غير ان الصحيح ايضاً هو ان من طبيعة هذه المؤتمرات أن تجعل اللقاءات والمناقشات الجانبية ، اكثر عمقاً وفائدة ، واشد تحقيقاً للهدف المرجو اساساً من عقد هذه المؤتمرات والندوات .

اقول هذا في معرض التعليق على ندوة المجلات الثقافيـــة والادبية الآسيوية والافريقية التي انعقدت في بيروت بين الثاني والخامس من شهر كانون الاول الماضي ، بدعوة من اتحاد كتاب آسيا وافريقيا ، وباشراف اتحاد الكتاب اللبنانيين .

فعلى الرغم من ان هذه الندوة قد خضعت للتقليد السائد والقائم على طغيان المفردات السياسية على لغة الحوار ، فان اللقاءات التي جرت على هامش الندوة كانت ذات فائدة لايمكن لمن كان غائباً عن الندوة ان يقدر قيمتها الحقيقية . ومن هنا فانه يتوجب ان لاتكون هناك مبالغات في تقدير النتائج التي يمكن ان تسفر عنها ندوة من هذا الطراز ، غير انه لايمكن في الوقت نفسه اغفال الفائدة المتحققة من هذا اللقاء الكبير بين هذا الحشد من رؤساء التحرير او ممثلي المجلات الثقافية والادبية في قارتي آسيا وافريقيا .

رئيس التحرير

الدكتور
سهيل زكار

الحروب الصليبية
شعب وتحرير أرض سليبة

مقدمة

عندما يقوم الانسان بالقاء نظرة خاصة على مصور جغرافي معاصر للوطن العربي يجد أن هذا المصور يحوي رقعة واحدة شاسعة من الأرض المتجانسة كليا من حيث البنية والسكان ، ولكن رغم تجانسها هذا فهي مقسمة الى أقسام عديدة متفاوتة الحجوم ، مختلفة الأسماء ، وفي قلب هذه الأقسام يقوم جسم غريب يدعونه اسرائيل . ولا بد للمرء مع هذا المنظر الشاذ أن يتساءل : كيف زرع هذا الجسم الغريب ، ومن قبل من، ثم كيف تمكن أن يعيش ، ولم حالة التجزئة هذه ، ومتى قامت ، وأخيراً ماهي أسباب استمرارها اللاطبيعي ؟

وفي البحث عن أجوبة لمجموع هذه الأسئلة نجد كتب تاريخ العرب الحديث مع تاريخ أوربة ، تروي لنا أخبار ما ألم بالعرب فأدى الى انحطاطهم وتفرقهم ، ثم كيف نجم عن التمزق استبداد الغير بهم، وملكه لناصيتهم ، وتستطرد هذه الكتب فتروي كيف آل الأمر بالعرب الى درجة امتلك زمامهم بها الأمم الاوربية المستعمرة ، ولقد صنع الاستعمار حالة التجزئة هذه ، وزرع اسرائيل في فلسطين قلب الوطن العربي ، ونماها وما زال يرعاها بعنايته ، ويكلؤها بقوته واقتصاده وسلاحه .

وأمام هذه الحال لابد للعاقل من أن يتساءل : هل هذه محنة تحدث للمرة الأولى في تاريخ العرب المديد ، أم وقع مايشبهها؟ ويأتي الجواب معلناً : لقد واجه العرب منذ قرابة التسعة قرون حالة مشابهة ، وكان ذلك في فلسطين بالذات ، وحالة اليوم ماهي — في كثير من الأوجه — إلا استمرار لحالة الماضي ، لكن ليست تكراراً لها ، فالتاريخ لايكرر نفسه ، ولكن التاريخ غالباً ماكان للعقلاء معلماً وهادياً ، إذ وجدوا في وقائعه المرشد الواعظ ، والقائد المجنب للسقطات .

ويدعو المؤرخون حالة الماضي ومحنته باسم « الحروب الصليبية » وسأسعى فيما يلي الى القيام بعرض موجز للاسباب التي أدت الى قيام « اسرائيل » في العصر الحديث، مع شرح لأحوال العرب وأحوال أوربة ثم سأقوم بمحاولة التعرف بشكل أوسع الى الأسباب التي أدت الى قيام الحروب الصليبية والعوامل التي ساعدت الصليبيين على النجاح ، وسأقوم أحوال العرب قبيل الحروب الصليبية وعند قيامها ، وسأتحدث عن مراحل هذه الحروب كما أتصورها لا كما اعتاد الناس منذ أمد أن يرووها ، وهنا سأجهد في سبيل تبيان الطرق التي أخذ بها الشعب العربي في السابق حتى تخلص من الصليبيين، لعل ذلك يفيد العرب المعاصرين ، فيتتبعون خطى أجدادهم ، ويستلهمون حلولهم ، فيتجنبوا مايعانونه الآن .

★ ★ ★

العرب وأوربة

لقد سبق الشرق الغرب في ابداع الحضارة ، وحاول الشرقيون القدماء نقل ثقافتهم، وحضارتهم الى أوربة وغيرها من بقاع الأرض ، وبعدما فعلوا هذا بزمن قامت أوربة

وشعوبها بمحاولة رد جميل الشرق بغزوه واحتلاله ، ومن يفحص أخبار العالم القديم يلاحظ وجود صراع دائم بين الغرب والشرق ، ولقد كان الشرق خلال هذا الصراع دائما هو الرابح في النهاية ، وفي معظم مراحل هذا الصراع قاد العرب الشرق ومثلوا شعوبه ، وفي العصور الوسطى وفي القرن السابع بالذات ، توحدت قوى العرب تحت لواء عقيدة الاسلام الجديدة ، فتجدد الصراع بين أوربة والشرق ، ومنذ القرن السابع وحتى هذه اللحظة والصراع لم يتوقف وعندما انطلق العرب في القرن السابع نحو أوربة منعهم عن السيطرة على هذه البلاد وتحرير شعوبها من الظلم الاجتماعي والتخلف العقائدي والحضاري، موانع ثلاثة تمثلت بالامبراطورية البيزنطية ، وفرنجة أوربة الغربية ، ودولة الخزر ، ولن أسهب بالحديث عما حدث على جبهة بيزنطة وجبهة أوربة الغربية ، بل سأدع ذلك الى وقت آخر ، إنما سأوقف بعضاً من كلامي للحديث عن جبهة الخزر ، لجهل معظم الناس بها ، ثم لعلاقتها بمشكلة فلسطين في العصر الحديث .

دولة الخزر اليهودية وعلاقاتها بالعرب وأوربة

فيما بين شمالي بحر الخزر وأداني منطقة القوقاس ، سكن شعب تركي الاصل دعي بشعب الخزر ، ولقد اصطدم العرب اثناء فتوحاتهم الكبرى بهذا الشعب ، وكانت جبهة الخزر من اصعب جبهات القتال العربية وأقساها . وحال وجود الخزر بين العرب وبين التوغل الى اوربة الشرقية ومنها الى اوربة الغربية ، وكان لحكام الخزر صلات مع كل من العرب والبيزنطيين ، وغالباً ماكانت علاقات الخزر بالعرب والروم الشرقيين حربية وقام العرب وكذلك البيزنطيون بمحاولات كثيرة – كل على حدة – لتحويل الخزر الى الاسلام او النصرانية ، واخفقت هذه المحاولات ، وقام امراء الخزر في القرن الثامن بالتحول الى اليهودية ، وهكذا اصبحت دولة الخزر دولة يهودية ، وقد بقيت هذه الدولة قائمة حتى القرن الثالث عشر حيث قضى عليها الروس ، وإثر القضاء عليها تشتت يهود الخزر في انحاء اوربة ، فكانوا الاصل الذي انحدر منه الغالبية العظمى ليهود اوربة ، فقد كان في اوربة قبل انهيار دولة الخزر عدد ضئيل من اليهود يعيشون في أحياء خاصة ، منعزلين يتزاوجون داخلياً ، فيقل عددهم يوماً بعد يوم ، وعندما توزع يهود الخزر اختلطوا بهم ، فكانوا عدداً رديفاً ودماً جديداً .

النهضة الاوربية والمشكلة اليهودية

وفي العصر الذي انتهت فيه دولة الخزر كانت اوربة تعيش بدايات نهضة جديدة ، كانت أولى معالم هذه النهضة محاولات التحرر من سلطان الكنيسة، ثم اقامة اصلاح اجتماعي واقتصادي ، وتطورت النهضة في أوربة فتجدد معها التطلع نحو اقامة امبراطوريات كبرى ، وهكذا أخذت أمم أوربة تسعى نحو استعمار غيرها من الامم والشعوب ، وقد وجهت كبير طاقاتها ضد العرب ، ارضاً وشعباً وحضارة .

ومع تطور الحياة في اوربة وجدت أفكار جديدة ، كان من أهمها تلك التي نادت بالقوميات ، ثم تلك التي طالبت بالاصلاح الاجتماعي والاقتصادي ، وتصارعت قوميات اوربة مع بعضها البعض ، وسعى كل شعب من شعوب اوربة نحو توحيد نفسه وازالة الفوارق بين أفراده ، ولقد اصطدم الاوربيون اثناء سعيهم هذا بمجموعات اليهود التي كانت تعيش منغلقة على نفسها لا تعرف الولاء الا لمصالحها، متعالية على سواها ، متحكمة بأمور المال والاقتصاد وهنا أخذ الاوربيون في اضطهاد اليهود ، ووجدت في اوربة مشكلة تحتاج الى حل ودعيت باسم المشكلة اليهودية . وتأثر يهود اوروبة بالحركات القوميـة ، وباتوا يتطلعون نحو حل لمشكلتهم ، وأخذ بعض ساسة اوربة يبحثون عن حل ، وكانوا يريدونه أن يخلصهم من اليهود ومن شرورهم في داخل اوربة ، وأن يجعلهم دائماً قادرين على استخدام اليهود لخدمة مصالح اوربة الاقتصادية ، والحضارية ، والصناعية وغيرها .

ونظر ساسة اوربة حولهم فوجدوا أن افضل حل هو الذي يتم على حساب العرب أمة وحضارة وأرضاً ، فشجعوا اليهود ، لا بل دفعوهم نحو فلسطين ، وهنا لا أجد ضرورة كبرى لسرد بقية الرواية ، فكلنا يعيش الآن فصولها ووقائعها ، ويكفي هنا أن نتذكر الحقائق التالية :

أوجدت أوربة اسرائيل ، لحل مشكلة أوربية داخلية ، ولتمكين مجتمع الغرب من السيطرة الدائمة على الشعب العربي ، فكراً ، وارضاً وموارد .

كان الوطن العربي عندما اخذت أوربة في زرع اسرائيل فيه ، تحت الحكم التركي وكان ممزقاً ، يعاني من التخلف الفكري ، والانحطاط الحضاري ، والضعف الاقتصادي والظلم والاستغلال الاجتماعي . وهذه الاحوال هي التي مكنت من نجاح عملية الزرع هذه ، واستمرارها هو الضمانة الاكيدة لاستمرار عيش الجسم الغريب المزروع .

احوال العرب في القرن الحادي عشر

سأترك الآن العصر الحاضر وسأعود نحو العصور الوسطى ، لأجد اوربة في القرن العاشر ثم الحادي عشر تعيش عدداً من المشاكل تمثلت في الصراع بين الكنيسة والامبراطورية ، وفي مشاكل الاقطاع ، واحتاجت هذه المشاكل الى حل ، فأبدع الحل في توجيه شعب اوربة للتحرك نحو المشرق العربي تحت شعار ديني ، ودثار عقائدي ، وشجع هذا التحرك واستغله احسن استغلال دويلات اوربة التجارية ، فقد ارادت هذه الدويلات ان تملك اسواق المشرق العربي اقتناصاً ، استهلاكا .

وتحركت مئات الالوف من الاوربيين ، لا بل قرابة المليون نحو بلاد الشام ، فوصلت مشارفها في اواخر القرن الحادي عشر ، ولقد استطاع هؤلاء ان يسيطروا على اجزاء كبيرة من بلاد الشام كان جلها في فلسطين ، وبقي هؤلاء القوم يحتلون هذه الاجزاء فترة طويلة من الزمن ، ولم تتوقف الهجرة من اوربة والحملات منها الى بلاد الشام الا عندما استطاع العرب جمع شملهم وصيانة مناقذ بلادهم براً وبحراً .

ولقد كانت احوال المشرق العربي ومغربه هي المسؤولة عن نجاح الاوربيين في اجزاء من بلاد الشام وفي استمرار هذا الاحتلال فترة طويلة من الزمن ، لذلك على الباحث في تاريخ الحروب الصليبية ان ينطلق في دراسته من الوطن العربي ، ذلك ان جموع الصليبيين التي وصلت مشارف الشام في اواخر القرن الحادي عشر لم تكن اول قوات من نوعها تطرق حدود الشام وتحاول احتلال اراضيه ، فكثير من قادة الصليبيين الاوائل كانوا يعرفون بلاد الشام لأنهم خدموا كمرتزقة في الجيوش البيزنطية ، وعلى هذا عرفوا العرب وطرائق القتال لديهم ، ولعل ما ورد في خطبة البابا اوربان الثاني ـ الذي بشر بالحروب الصليبية ـ من نصائح قتالية لهو برهان كاف للتدليل على صحة هذا ، يضاف اليه ما يجده المرء في شعر شعراء العرب في القرن العاشر والحادي عشر ـ مثل المتنبي ـ وما يورده المؤرخون العرب في كتبهم عن الحروب مع بيزنطة ، ولا حاجة للتذكير بأن الفرنجي الذي لم يسبق له القتال ضد مشارقة العرب ، ربما قد نال حظه في القتال ضد المغاربة .

في القرن الذي سبق مجيء الصليبيين كان الوطن العربي ممزقا ، ويعيش في حالة من الفوضى السياسية والعقائدية لا نظير لها ، فقد كان هناك ثلاث خلافات (جمع خلافة) .

واحدة في بغداد ، وثانية في القاهرة ، وثالثة في قرطبة ، وكانت هذه الخلافات في صراع دائم ونزاع دموي مستمر ، كما كانت في حالة مزرية من الضعف ، فالخلفاء محكوم عليهم يتحكم فيهم جند نسوا كيف يقاتلون للدفاع عن شعوب دولهم ضد الظلم والعدوان الخارجي لكنهم عرفوا فقط كيف يقاتلون من اجل الفتن والاستغلال ، وسدة الحكم والسلطة .

هجرة التركمان الى الوطن العربي

وفي القرن الحادي عشر ، تعرض القسم الشرقي من الوطن العربي الى هجرة بشرية جديدة ، جلبت الغز التركمان من منطقة ما وراء النهر ، وشهد نتيجة لهذه الهجرة قيام الامبراطورية السلجوقية (ولقد عاثت البلاد التي هاجر اليها الغز ـ خاصة بلاد الشـام وبلاد الرافدين ـ دماراً مريعا ، اضعف قواها ، وانضب مواردها ، كما ان الامبراطورية السلجوقية لم تعمر طويلا ، وكان السبب الرئيسي في انهيارها طبيعة الغز ، الذين كانوا في الاصل عبارة عن عشائر بدوية ، يكره افرادها التوحيد ويمجونه ، ويألفون الفرقـة ويحبونها ، ولا يرتضون مناهج الحكومات المركزية ، ويأنفون من حياة الاستقرار .

احوال مصر وبلاد الشـام في القرن الحادي عشر

ولن احاول التبسيط في الحديث عن الغز وهجرتهم الى بلدان الوطن العربي ، بل سأقتصر على الحديث بشكل موجز عما فعلوه في بلاد الشام والجزيرة ، وسأولي فلسطين بعض العناية اكثر من سواها من مناطق بلاد الشام ، لأن فلسطين كانت هدف الصليبيين الاول ، علماً بأن الصليبيين احتلوا اجزاء من فلسطين ومن بقية مناطق الشام والجزيرة ، وان طردهم من فلسطين قد حدث قبل ان يطردوا نهائيا من بلاد الشام ، والاخذ بالايجاز يفرضه علي طبيعة البحث الذي انا بصدده الآن ثم انني قد سبق لي الحديث عن هـذه المسائل بشكل مفصل في كتابي « مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية » .

منذ أن قامت في مصر دولة اسلامية مستقلة، بدءاً بدولة أحمد بن طولون ، سعت الدولة والدول التي جاءت بعدها الى السيطرة على بلاد الشام، ولقد نجحت هذه في السيطرة على الشمال ، وكان ذلك لأسباب كثيرة منها : بعد شمال بلاد الشام عن مصر ، ووجود الامبراطورية البيزنطية التي رغبت دائماً بوجود دولة اسلاميـة ضعيفة مستقلة أو شبه مستقلة في حلب لتقف حاجزاً بينها وبين دولة مصر القوية ؛ وكان وجود قبائل عربية قوية في شمالي الشام من الأسباب التي منعت مصر من السيطرة عليه .

ولقد كانت قبيلة كلاب هي أكبر قبائل الشمال ، وقامت هذه القبيلة في الربع الاول من القرن الحادي عشر بالتحالف مع قبيلة كلب اعظم قبائل منطقة دمشق آنذاك ومع قبيلة طيء أعظم قبائل فلسطين ، وجهدت هذه القبائل الثلاث في العمل على تحرير بلاد الشام من حكم الخلافة الفاطمية ، وإقامة ثلاث دول عربيسة متحالفة في حلب ودمشق والرملة ، فحققت في البداية بعض النجاح لكنها أخفقت اخيراً ، واستعادت الخلافة الفاطمية جنوب بلاد الشام ، لكن الامور لم تستقر في الشام للدولة الفاطمية ، لأسباب عقائدية وإدارية وضرائبية ، وكان يوجد في مدن بلاد الشام تنظيات شعبية تدعى باسم « الأحداث » وكان الأحداث يشكلون نوعاً من « الميليشيا » الشعبية البلدية، وكانوا يقومون بوظيفة حفظ النظام والصحة والنظافة والأمن داخل المدن ، وكانوا يدافعون عن مدنهم ضد المخاطر الخارجية (من أجل التوسع في معرفة الاحداث يرجى الرجوع الى كتابي : مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية و The Enirate Aleppo — 1004 — 1014)

ولم يمكن الأحداث الدولة الفاطمية من تثبيت أقدامها في الشام ، وبسبب الأحداث ثم بسبب ضعف الدولة الفاطمية في القرن الحادي عشر ، فقد كانت صورة الحالة السياسية في الشام في النصف الثاني للقرن الحادي عشر كما يلي :

١ - دولة مستقلة في حلب تـدعى الدولة المرداسية ، كانت تحكم معظم شمالي بلاد الشام .

٢ — في طرابلس دولة شبه مستقلة تحكم من قبل أسرة آل عمار .

٣ — دولة شبه مستقلة في صور تحكم من قبل اسرة آل عقيل .

٤ — دولة مستقلة في شيزر وكفر طاب تدعى باسم الامارة المنقذية .

٥ — عدد من الاقطاعات والادارات شبه المستقلة في مناطق الساحل في جبلة ومنطقتها الجبلية .

٦ — كانت دمشق وفلسطين تحت الحكم الفاطمي .

وكان شعب بلاد الشام في هذا القرن يدين غالبيتهم بالاسلام انما على مذهب الاثنا عشرية من الشيعة ، وكان هنالك مجموعات من النصارى ، كثيرمنهم في الشمال ، وكان غالبية هؤلاء من اصل أرمني ، وكان هنالك قلة من اليهود ، ولقد كانت الحريات الدينية مصانة وكذلك الحريات الفكرية ، وكان هنالك ازدهار ورفاه وتقدم ثقافي وحضاري .

التركمان وبلاد الشام

لكن في سنة ٤٥٥ هـ/ ١٠٦٣ م دخل الى حلب مجموعة من التركمان ، وذلك بزعامة رجل عرف باسم هرون بن خان ، وكان سبب دخولها الصراع بين افراد الاسرة المرداسية على السلطة ، وفي سنة ٤٦٣ هـ/ ١٠٧١ م حوصرت حلب من قبل السلطان السلجوقي ألب ارسلان ، وأخفق هذا السلطان في احتلالها ، لكن في طريق عودته شرقاً اصطدم مع قوات الدولة البيزنطية في معركة مناز كرد ، فحطمها ، واخذالغز والتركمان بعد هذا النصر يتساحون في اراضي بلاد الشام والجزيرة وآسية الصغرى دون ان يلاقوا عوائق تذكر . واستطاع التركمان في مدى ربع قرن تدمير بلاد الشام تدميراً مريعاً ، لم تعرف البلاد له نظيراً من قبل أو من بعد خلال حقب تاريخها الطويل ، وعندما شارف القرن الحادي عشر على النهاية كانت بلاد الشام في حالة من الانهاك والضعف لانظير لها ، وكانت هذه البلاد مثل رقعة للشطرنج ، فيها مربعات كثيرة ، على كل واحد منها دمية تتصارع مع الدمى الأخرى دونما ناظم أو اعتبار ، وكانت جميع الدمى تركية غريبة عن البلد حضارة ولغة ومعتقداً ، وكانت تسعى في سبيل السلطة والمال فقط دونما رادع أو اعتبار ، واستطاعت أثناء سعيها تحطيم قوة قبائل العرب في البلاد مع قوة أهل المدن ومنظمات الاحداث .

دخول الفرنجة الى بلاد الشام

وفي ذروة الدمار والعنف والعذاب وصلت الى انطاكية في مشارف الشام حشود من فرنجة اوربة الغربية ، كانت تهدف أول ماتهدف الوصول الى القدس ، ثم القضاء على العرب حضارة وجنساً وعقيدة ، ودخلت هذه الجموع الشام وعاثت في دياره واستولت على كثير من مدنه وبلدانه ، وقتلت واحرقت وهدمت دون أن تلقى مقاومة تذكر ، واستقرت هذه الحشود في بلدان الشام دون أن يزعجها أحد أو يقلق راحتها ، ذلك أن الحكام الترك الذين لم تسقط مدنهم لم يتوقفوا عن الصراع بين انفسهم ، ونادراً ما اكترثوا أو اهتموا بنشاط الفرنجة .

وعندما دخل الفرنجة بلاد الشام كانت أبرز دول الشام دولتان ؛ واحدة في حلب والاخرى في دمشق ، وكان حاكما هاتين الدولتين أخوين ، ولقد وقف هذان الحاكمان نفسيهما مع قواتها للصراع الداخلي والحروب الأهلية ، واغتنم هذه الفرصة الفرنجة ،

فوسعوا املاكهم وجردوا حلباً من جميع أراضيها الشمالية والغربية ولم يبق لها إلا بعض أراضيها الجنوبية والشرقية .

ثورات الشعب العربي في الشام

في سبيل اقامة حكم وطني يوحد ويحرر

ثورة شعب حلب الاولى

وضاق الامر بأهل الشـــام ، فتحركوا ، وارادوا أول ما أرادوا التخلص من حكامهم الأجانب ، وإقامة حكم وطني وشعبي يستطيع التصدي للفرنجة ، والقيام بأعمال التحرير ، ولقد اندلعت الشرارة الأولى من مدينة حلب ، حيث قام مقدم أحداث حلب ، ورئيس المدينة بالثورة على رضوان بن تتش حاكم المدينة التركماني ، وكان هـــذا الثائر يعرف باسم المجن الفوعي بركات بن فارس ، وكان في الأصل فلاحاً من قرية الفوعة الغربية من حلب ، وكان شهماً ذا كفاءات عالية ، وقد تمكن بسبب ذلك من تولي رئاسة مدينة حلب ومقدمية الأحداث فيها .

وبعدما أعلن ثورته أيده أهل حلب وساعدوه ، فسيطر على مدينة حلب وحصر رضوان بن تتش في القلعة ، وكاد أن يسقطه لولا أن استطاع رضوان شراء ضمائر بعض أثرياء المدينة . فخذلوا الناس عن المجن وثبطوهم عن نصرته ، فحدث انشقاق بين أفراد منظمة الأحداث ، وكان أساس هذا الانشقاق مذهبياً دينياً ، وأدى هذا إلى اخفاق الثورة والقاء القبض على المجن الفوعي ، وأودع رضوان المجن السجن ، وهناك ـ كمـــا روى شاهد عيان ـ : « عذبه عذاباً شديداً بانواع شتى ، وأراد بذلك أن يستصفي ماله ، فمما عذبه به أنه أحمى الطست حتى صار كالنار ، ووضعه على رأسه ، ونفخ في دبره بكير الحداد ، وثقب كعابه ، وضرب فيها الرزز والحلق .

ولما وضع النجار المثقب على كعبه قطع الجلد واللحم ولم يدر المثقب ، فلطمه المجن وقال : ويلك لاتعرف ، أحضر خشبة وضعها على الكعب ، فاحضر خشبة ووضعها على كعبه ، فدار المثقب ونزل ، وثقب الكعب .

فلما فرغ قيل له : كيف تجد طعم الحديد ؟ فقـــال : قولوا للحديد : كيف يجد

طمعي ، ولم يقرر المجن مع هذا كله بدرهم واحد ، ولم يحصل للملك رضوان من ماله إلا ماقربه غلام أو جارية وذلك شيء يسير .. ولما طال الأمر على رضوان أشير عليه بقتله، فأخرج إلى ظاهر باب الفرج من نحو المشرق ومعه ابنان له شابان مقتبلا الشباب ، فقتلا قبله وهو ينظر اليها ولا يتكلم ، ثم قتل بعد ذلك » .

ثورة شعب حلب الثانية وبداية اعمال التحرير

وأدت هذه الانعكاسة الى رضوخ الشعب في حلب وسكوته على مضض حتى عام ٥٠٤ ﻫ / ١١١٠ م فاندلعت الثورة ثانية في المدينة ، وأدرك الثوار أنهم لن يستطيعوا اسقاط رضوان ، لذلك شكلوا وفداً من بينهم غادر المدينة سراً وذهب الى بغداد ، وفي بغداد لم تول سلطات الخلافة والسلطنة الوفد عنايتها ، ولم تصغ الى مطاليبهم ، وأمام هذا التجاهل حرك الوفد أهالي بغداد واستغاثوا بهم أيام الجمع ، كما منعوا الخطباء من القاء خطبهم يوم الجمع وكسروا بعض المنابر ، وهاج الناس في بغداد فأخاف ذلك السلطات فيها ، فقام السلطان محمد بن ملكشاه بتجهيز جيش كبير جعل قيادته لمودود حاكم الموصل وتحركت هذه القوات نحو بلاد الشام ، وعندما وصلت حلباً أغلق رضوان بن تتش أبواب حلب في وجهها ، واعتقل زعماء شعب حلب وأودعهم كرهائن عنده في القلعة لئلا يفتح الشعب الأبواب ، ويسلموها لقوات القادمة من المشرق ، « وبقيت أبواب حلب مغلقة سبع عشرة ليلة ، وأقام الناس ثلاث ليال لايجدون مايقتاتونه ، وكثر اللصوص ، وخاف الأعيان على أنفسهم ، وساء تدبير الملك رضوان ، فأطلق العوام ألسنتهم بسبه وتعييبه ، وتحدثوا بذلك فيا بينهم ، فاشتد خوفه من الرعية أن يسلموا البلد ، وترك الركوب بينهم ، وبث الحرامية تتخطف من ينفرد من العساكر — أي عساكر مودود وأصحابه — فيأخذونه » .

واضطر هذا الحال مودوداً وأصحابه الى الرحيل جنوباً ، وأثناء تحركهم اصطدموا قرب شيزر بقوة صليبية فانتصروا عليها ، وعندما وصل مودود الى دمشق قام تحالف بينه وبين حاكم دمشق ، ودخل مودود المدينة ، وبينما كان يعد للتحرك ضد فرنجة فلسطين اغتيل في مسجد جامع دمشق ، فأدى اغتياله الى اخفاق مهمته التي جاء من أجلها ، وتبعثر قواته .

ولقد مات رضوان حاكم حلب في نفس السنة التي اغتيل بها مودود ، وكان ذلك

سنة ٥٠٧ هـ / ١١١٣ م وساءت الأحوال بعد هذه الفترة ، وحلت الفوضى في بلاد الشام ، ولم يوقف ذلك الشعب عن التحرك خاصة في مدينة حلب ، حيث استطاع الحلبيون السيطرة على مقاليد أمور دولتهم ، وجمدوا أصحاب السلطة الرسمية عن التحرك ومباشرة الأعمال ، وقبل أن نستطرد في الحديث عما عمله أهالي حلب في سبيل التحرير ، انه لمن الضروري أن نتحدث عن دخول الفرنجة الى الشام واقامة دولهم فيه .

احوال الفرنجة ودولهم في الشام :

في عام ١٠٩٨م وصلت جموع الفرنجة الى مشارف الشام ، وكانت مدينة أنطاكية أول ما اصطدموا به ، وبعد صراع طويل سقطت أنطاكية لهم في ٢٨ تموز ١٠٩٨م وبعدما أخذوا أنطاكية أخذوا يعدون أنفسهم لمتابعة الزحف جنوباً ، وكان قبل أن تسقط أنطاكية ، وحتى قبل ان يصل الفرنجة اليها ان انفصلت فئة منهم بقيادة احد زعمائهم واسمه بلدوين ، وتوجهت هذه الفئة من مرعش الى المشرق ، فتمكنت من الاستيلاء على بعض مناطق الثغور السورية — البيزنطية ، ووصلت هذه الفئة اخيراً الى الرها ، فاحتلتها واتخذت منها قاعدة لاحدى امارات الصليبيين في المشرق .

وزحفت معظم جموع الفرنجة من أنطاكية جنوباً ، وذلك بعد ان جعلوا من انطاكية مركزاً لامارة صليبية ثانية في المشرق ، وبعد رحلة حافلة ببعض الحوادث ومليئة بالدم العربي المسفوك ، وصلوا القدس وتمكنوا من اجتياحها في ١٦ تموز ١٠٩٩ م ، فقتلوا كل من كان فيها من المسلمين ، ثم جعلوها مركزاً لثالث دولهم واعلاها مرتبة ، وبعد احتلالهم القدس اخذوا يوسعون املاكهم ، وهدفوا نحو امرين اساسيين هما ، الاستيلاء على كل من حلب وطرابلس . وفي سنة ٥٠٢ هـ / ١١٠٩ م استولوا على طرابلس ، لكنهم اخفقوا في اخذ حلب ، فكان لذلك اثره العظيم المحول على بقائهم في المشرق ، فصمود حلب لم يحل فقط بين الصليبيين وبين اكمال سيطرتهم على كل بلاد الشام ، بل هيأ الفرصة امام العرب لتجميع قواهم ، ومن حلب انطلقت أولى حركات التحرر واستفاقة العرب وتقظتهم .

لقد كانت الضربة التي حلت بعرب الشام اثر احتلال الصليبيين لأجزاء من بلادهم ضربة مروعة ، لكن هذه الضربة لم تعد حكام الشام الى رشدهم حيث استمروا يتنازعون من اجل السلطان ، وكان الشعب في حلب هو الذي احس اولا بفداحة الضربة فتحرك ، ونقل هذا الاحساس والتحرك الى الموصل .

تناقضات المجتمع الصلبي

ومعلوم أن الصليبيين كانوا قد وصلوا مشارق الشام جمعاً واحداً ، لكن ما أن توغلوا فيه ، وفتحوا بعض أراضيه حتى دب بين صفوفهم التمزق ، فانقسموا الى عدة دويلات وبما أن كثيراً من صليبيي الحملة الاولى قد استقروا في الشام ، فقد أنجبوا هناك جيلا جديداً تمتع بصفات خاصة ، ولما كان تدفق الفرنجة من اوروبة على الشام لم ينقطع ، فقد غدا المجتمع الصليبي مؤلفاً من مجموعتين متمايزتين هما : مجموعة البلديين ، ومجموعة الوافدين ، وبالاضافة الى هذا فقد قام بين الصليبيين تنظيات غالباً ما كانت ذات صبغة عسكرية ، وذات مطامع سياسية ، ولقد تعقد هذا الوضع مع مرور الزمن ، وازدادت الفرقة عمقاً والخلافات حدة ، كما زالت من بين صفوف الصليبيين الروح التي وجدت في الحملة الأولى ، خاصة بين صفوف الفقراء Tafuro منهم .

اليقظة العربية ومراحل التحرير

وفي الوقت الذي حصل فيه هذا بين صفوف الصليبيين ، كان العرب في الشام قد أصابهم انقلاب هائل أيضاً ، فقد أزال الشعب القيادات القديمة ، اللامبالية والانانية الظالمة ، وتكونت قيادات جديدة ، وخلق انسان عربي جديد مع روح جديدة ، وعاش الشعب وقياداته مع الجهاد ، ونبذت الأمة الفرقة ، وجاهدت من أجل الوحدة ، وصار الحكم بالنسبة للحكام رسالة ومسؤولية للتحرير ، لا وسيلة للسيطرة ، وأداة من أجل النفوذ والكسب الفردي أو الأسروي .

ولقد جرت العادة على تقسيم تاريخ الحروب الصليبية الى تسعة أقسام او أكثر ، وذلك حسب عدد الحملات التي جاءت من الغرب ، وعندي أن هذا التقسيم خاطىء ذلك أن الصليبيين لم يتوقف تدفقهم على الشام ، انما كان هذا التدفق متفاوت الحجوم ، ولقد تم وصول الصليبيين الى الشام براً وبحراً ، ومن العبث الحديث عن حملات ، أنه كان هناك حملة واحدة بدأت قبل سنة ١٠٩٨ وانتهت بتصفية آخر معاقل الفرنجة في الشام .

وعندما أرفض التقسيم المعهود ، الذي استوردناه من اوربة من عند حفدة الصليبيين ، اتصور أن تاريخ الحروب الصليبية قد مر بمراحل اربع ، ولقد ارتبطت

كل واحدة من هذه المراحل باسم مدينة من مدن العرب ، وتأثرت ابعد التأثر واعمقه بدرجات الاستفاقة والوحدة التي حلت بين صفوف العرب ، خاصة في المشرق .

وهذه المراحل هي : مرحلة الموصل ، ثم مرحلة حلب ، ثم مرحلة دمشق ، واخيراً مرحلة القاهرة .

١ – من الموصل انطلقت اول قوات التحرير المنظمة ، وبقوات الموصل أمكن الانتقال من حالة الدفاع والانحسار الى حالة الهجوم واسترداد الارض .

مرحلة التحرير الاولى

ثورة حلب الثالثة ومنع الفرنجة من احتلالها

١ – بعدما استولى الصليبيون على طرابلس رأوا أن عليهم الاستيلاء على مدينة حلب من اجل سد الثغرة الفاصلة بين اماراتهم في الرها وأنطاكية ، وفي سنة ٥١٨ هـ / ١١٢٤ م حضروا كل شيء للاستيلاء على مدينة حلب ، وكانت حلباً في هذه الآونة تتبع رسمياً تمرتاش بن ايلغازي أحد افراد الدولة الأرتقية التركمانية . وقام الصليبيون بالاتصال مع دبيس بن صدقه صاحب الحلة في العراق وأمير قبيلة أسد ، فاتفقوا معه على أن يساعدهم في احتلال مدينة حلب مقابل تعيينه أميراً عليها شرط أن يسمح لبعض القوات الصليبية بالمرابطة فيها ، كما اتفقوا مع سالم بن مالك بن بدران صاحب قلعة جعبر ومع ابراهيم بن رضوان بن تتش الذي كانت اسرته تحكم حلب أيام بدء الحروب الصليبية ، وجمع الصليبيون قواتهم مع قوات حلفائهم ، وزحفوا على مدينة حلب واخذوا في حصارها ، وعدل الاتفاق هذا اثناء الحصار ، بأن تكون مدينة حلب لابراهيم بن رضوان « لانها كانت لابيه » .

وقام اهل حلب بتنظيم امور الدفاع عن مدينتهم ، وتولى زمام المقاومة قاضي المدينة ابو الفضل بن الخشاب ، واعانه بعض زعماء شعب المدينة ، واشتد الحصار على حلبه وطال ، واخذ الصليبيون مع حلفائهم يزحفون على اسوارها « وقطعوا الشجر ، وخربوا مشاهد كثيرة ، ونبشوا قبور موتى المسلمين ، واخذوا توابيتهم الى الخيم وجعلوها اوعية لطعامهم ، وسلبوا الاكفان ، وعمدوا الى ما كان من الموتى لم تنقطع اوصاله ، فربطوا

في ارجلهم الحبال ، وسحبوهم مقابل المسلمين . وجعلوا يقولون : هذا نبيكم محمد ، وآخر يقول : هذا عليكم ، واخذوا مصحفا من بعض المشاهد بظاهر حلب وقالوا : يا مسلم ابصر كتابكم ، وثقبه الفرنجي ، وشده بخيطين ، وعمله ثفرا [الثفر السير الذي في مؤخر السرج] لبرذونه ، واقاموا كلما ظفروا بمسلم قطعوا يديه ومذاكيره ودفعوه الى المسلمين ».

ولم يؤثر هذا على معنويات الحلبيين بل داوموا الدفاع ، وازدادوا اصراراً على المقاومة « وبلغ بهم الضر الى حالة عظيمة حتى أكلوا الميتات والجيف ووقع فيهم المرض» ويحدثنا ابن العديم مؤرخ مدينة حلب عن ابيه وكان من شهود العيان ان الحلبيين « كانوا في وقت الحصار مطروحين من المرض في ازقة البلد . فاذا زحف الفرنج ، وضرب بوق الفزع ، قاموا كأنما نشطوا من عقال ، وقاتلوا حتى يردوا الفرنج ، ثم يعود كل واحدمن المرضى الى فراشه » .

تحالف شعب مع الموصل من اجل التحرير

و « لما اشتد الحصار على حلب وقلت الاقوات بها وضاق الامر » بالحلبيين ، اتفق رأيهم على تسيير وفد الى تمرتاش حاكم المدينة الرسمي ، وكان آنذاك في ماردين مشغولا بمسائل خاصة ، وخرج الوفد ليلا من البلد ، وعلم الفرنج بخبر الوفد ، وحاولوا ان يوهموا اهل المدينة انهم اعتقلوا رجالات الوفد ، لكن ذلك لم ينطل على الحلبيين وعرفوا بعد وقت بوصول وفدهم الى ماردين . وفي ماردين لقي الوفد مفاجأة كبرى ، وتحدث جد ابن العديم ـ وكان احد رجالات الوفد ـ عما حدث في ماردين فقال : « لما وصلنا الى ماردين ، ودخلنا على حسام الدين تمرتاش ، وذكرنا له ما حل بأهل حلب ، وما هم فيه من ضيق الحصار والصبر ، وعدنا بالنصر . وانه يتوجه اليها ، ويرحل الفرنج عنها ، وانزلنا في مكان بماردين ، وجعلنا نطالبه بما وعد وهو يدافعنا من يوم الى يوم ، وكان آخر كلامه ان قال : خلوهم اذا اخذوا حلب ، عدت واخذتها ، فقلنا في انفسنا : ما هذه الا فرصة ، وقلنا له : لا تفعل ، ولا تسلم المسلمين الى عدو الدين . فقال : وكيف اقدر على لقائهم في هذا الوقت ؟ فقال له القاضي ابو غانم : وايش هم حتى لا تقدر عليهم ، ونحن اهل البلد اذا وصلت الينا تكفيك امرهم .

قال القاضي ابو الفضل ـ عم ابن العديم وراوي الخبر له ـ فكتبت كتابا من حلب الى والدي ابو غانم ، اخبره فيه بما حل بأهل حلب من الضر ، وانه قد آل الامر بهم الى

اكل القطاط والكلاب والميتة ، فوقع الكتاب في يد تمرتاش ، وشق عليه وغضب ، وقال : انظروا الى جلد هؤلاء الفئة الصنعة ، قد بلغ بهم الامر الى هذه الحالة وهم يكتمون ذلك ويتجلدون ، ويغروني ويقولون : اذا وصلت الينا نكفك امرهم .

قال القاضي ابو غانم : فأمر تمرتاش بان يوكل علينا ، فوكل بنا من يحفظنا خوفاً ان لنفصل عنه الى غيره ، فأعملنا الحيلة في الهروب الى الموصل ، ـ ان نمضي الى البرسقي ـ صاحب الموصل ـ ونستصرخ به ونستنجده ، فتحدثنا مع من يربنا ، وكان المنزل الذي كنا فيه باب يصر صريرا عظيما اذا فتح او اغلق ، فأمرنا بعض اصحابنا ان يطرح في صائر الباب زيتاً ويعالجه لنفتحه عند الحاجة ولا يعلم الجماعة الموكلون بنا اذا فتحناه بما نحن فيه ، وواعدنا الغلمان اذا جن الليل ان يسرجوا الدواب ، ويأتونا بها ، ونخرج خفية في جوف الليل ونركب ونمضي .

قال : وكان الزمان شتاء والثلج كثير على الارض . قال القاضي ابو غانم : فلما نام الموكلون بنا جاء الغلمان بأسرهم الا غلامي ياقوت ، واخبر غلمان رفاقي ان قيد الدابة تعسر عليه فتحه ، وامتنع كسره ، فضاقت صدورنا لذلك ، وقلت لاصحابي : قوموا انتم وانتهزوا الفرصة ولا تنتظروني فقاموا وركبوا والدليل معهم يدلهم على الطريق ، ولم يعلم الموكلون بنا بشيء مما نحن فيه ، وبقيت وحدي من بينهم مفكراً لا يأخذني نوم ، حتى كان وقت السحر ، فجاءني ياقوت غلامي بالدابة ، وقال : الساعة انكسر القيد ، قال : فقمت وركبت لا اعرف الطريق ، ومشيت في الثلج اطلب الجهة التي اقصدها . قال : فما طلع الصبح الا وانا واصحابي الذين سبقوني في مكان واحد ، وقد ساروا من اول الليل وسرت من آخره ، وكانوا قد ضلوا عن الطريق ، فنزلنا جميعا وصلينا الصبح ، وركبنا وحثثنا دوابنا واعملنا السير حتى وصلنا الموصل » .

الموصل واعمال التحرير

وفي الموصل قابل هذا الوفد آق سنقر البرسقي حاكم المدينة ، واستطاع اثارته واقناعه بالذهاب على رأس قواته لانجاد حلب ، وعندما اشرفت عساكره على المدينة ، رحلت قوات الصليبيين منسحبة ، وهكذا نجت مدينة حلب ، وكان هذا الحادث بداية عهد جديد في تاريخ العرب وتاريخ وجود الصليبيين ، فسنة ٥١٨ هـ هي سنة بداية التحرير ، ففي ظل قيادة البرسقي توحد شمال بلاد الشام مع اعالي بلاد الرافدين ،

ووجهت طاقات الامة ضـــد الصليبيين ، وانتقل العمل ضد الفرنجة من مرحلة الدفاع السلبي الى مرحلة الهجوم الايجابي والتصفية . لكن من سوء حظ الامة ان البرسقي اغتيل بعد عامين من انقاذه لحلب ، وبدئه حرب التحرير .

ولقد أدى اغتياله الى انتكاسةمؤقتة ، ذلك ان الامة كانت تعيش بداية عصر اليقظة، لذلك اجتازت المحنة وتغلبت عليها ، فلقد تآمرت قوى سياسية محترفة على سيادة الموصل، وانجرفت السلطنة في تيار هذه المؤامرات مع دار الخلافة ، لكن شعب الموصل ء كان يعرف ما يريد عن ايمان وعزيمـــة ، وبعد عام من مصرع البرسقي توجه وفد يمثل اهل الموصل الى مدينة بغداد ، وقام هذا الوفد باختيار الضـــابط زنكي بن قسيم الدولة . وتعاقدوا معه على تولي حكم الموصل ضمن شروط معينة ، ولتأدية واجبات محددة ، وبعد ما تم التعاقد اجبر الوفد سلطات بغداد على الموافقة على تعيين زنكي حاكما جديدا على الموصل واستبعاد سواه .

عماد الدين زنكي ووحدة حلب والموصل

وفي عام ٥٢١ هـ / ١١٢٧ م تسلم عماد الدين زنكي زمام الامور بالموصل ، وكان زنكي هذا عسكريا من الطراز النادر ، له من الحزم والشجاعة ، وحب النظام والتقيد به مع المطامح العالية ، ما احله محل الزعامة ، ومكنه من شغل الدور الذي كانت الامة ، في مرحلة استفاقتها آنذاك ، قد اوكلته اليه ، وعهدت بمســؤولياته الجســام الى اخلاصه وكفاءته .

لقد أدرك زنكي حجم المسؤولية التي ألقيت على عاتقه فقام بها خيرقيام، أدرك أن عليه ـ حتى يحقق النجاح ـ أن يوحد بين أجزاء الأمـــة الممزقة سياسياً ، ويزيل جميع العوائق والفوارق ، ويطور حركة اليقظة وينميها فينفي عنها الفوضوية ويلزمها بالجدية والنظام والعمل البناء ، وكانت خطته في العمل ضد العـدو تهدف الى إزالة مملكة الرها ثم اسقاط انطاكية ، وبهذا تسد الثغرة مابين أعالي الرافدين وشمالي الشـــام ثم تغلق المنافذ البرية للصليبيين من آسية الصغرى الى الشام .

وعندما يطالع المرء سيرة حياة زنكي يجده قد ضرب المثل الأعلى بالجدية والالتزام بالنظام ، ووصفه ابن العديم في كتابه بغية الطلب في تاريخ حلب بقوله : « كان زنكي ملكاً عظيماً ، شجاعاً ، جباراً ، كثير العظمة والتجبر ، وهو مع ذلك يراعي احوال

الشرع ، وينقاد اليه ، ويكرم اهل العلم ، وبلغني أنه كان اذا قيل له أمـا تخاف الله ؟ يخاف من ذلك ويتصاغر في نفسه » ، ووصفه احد معاصريه بقوله: « كان أتابك زنكي بن قسيم الدولة آق سنقر رحمه الله اذا مشى العسكر خلفه كأنهم بين حيطين مخافة أن يدوس العسكر شيئاً من الزرع ، ولا يجسر احد من هيبته يدوس عرقا من الزرع ، ولا يمشي فرسه فيه ، ولا يقدر احد من الاجناد يأخذ لفلاح علاقة تبن الا بثمنها او بخط من الديوان الى رئيس القرية ، وان تعدى احد صلبه عليها ، وكان اذا بلغه عن جندي أنـه تعدى على فلاح قطع خبزه وطرده ، حتى عمر البلاد بعد خرابهـا ، واحسن الى اهالي مملكته ، وكان لا يبقي على مفسد » .. ونهى عن الكلف والمغارم والسخر والتثقيل على الرعية واقام الحدود في بلاده » . وفرض زنكي على شعب دولته نوعا من انواع الجندية الاجبارية حتى صار معظم جند قواته متطوعة من ابناء الشعب .

ما أن مكن زنكي نفسه في الموصل حتى التفت الى جهـاد الصليبيين والعمل على قلعهم من ديار الشام ، وكان زنكي من مواليد مدينة حلب نشأ وامضى طفولته ، وكان الحلبيون يعرفونه ويحبونه، لذلك قاموا عند قدومه الى الموصل فانتزعوا زمام مدينتهم من أمراء الاسرة الارتقية التركمانية الذين استولوا عليها بعد اغتيال البرسقي ، وذهب جماعة منهم الى زنكي فاستدعوه الى حلب ، وسخر زنكي طاقات دولتـه للتحرير ووقف نفسه عليه ، فاسترد من الصليبيين معرة النعمان ، وكفر طـاب ، وبارين ، والأثارب ، والمنطقة الشمالية والغربية لمملكة حلب .

سقوط الرها

ولقد كان هم زنكي وشغله الشاغل احتلال الرهـا ، والقضاء على الدولة الصليبية التي كانت فيهـا ، وسد الثغرة الفاصلة بين شمال بلاد الشام والجزيرة ، وبعد عمل طويل وجهاد عاشته الامة كلا وأفراداً استطاع زنكي سنة ١١٤٤ م احتلال الرها ، والقضاء على أولى دول الفرنجة تأسيسا في المشرق ، وكان لمبادرات أفراد الشعب الشخصية الفضل الاكبر في نجاح زنكي في اقتحام مدينة الرها .

ففي اثناء حصار الرها نزل رجل اسمه موسى الى السوق فاشترى لباساً من لباس الارمن ، وتزيا بزيهم ، وكان موسى هذا اشقر اللون شكله شكل الارمن ، وكان جهوري الصوت ، واستطاع التسلل الى داخل الرها فذهب الى جامعها وصعـد منارة الجـامع

المهجور ، وأخذ يكبر ويؤذن ، فسبب ذلك حدوث صخب وفوضى في المدينة حيث ظن المدافعون عنها أنها قد خرقت واحتلت ، لذلك تخلى المدافعون عن الأسوار ، فصعدت عساكر زنكي اليها واقتحموا المدينة ، وقام زنكي بعد احتلال الرها بمنح هذا الرجل جائزة كبيرة ، ولقد عمّ لسقوط الرها صدى بالغ في الشرق والغرب ، وكان ذلك اروع ضربة حلت بالفرنجة مذ دخلوا الشام وافدح خسارة ألمت بهم .

وبعد مضي عامين على سقوط الرها قضى زنكي نحبه غيلة من قبل أحد غلمانه ، وهو يحاصر قلعة جعبر ، وحدث اغتيال زنكي في الليل بينما كان نائماً ، وجاء الغلام الذي قتله الى تحت القلعة « فنادى أهل القلعة : شيلوني فقد قتلت السلطان ، فقالوا له : اذهب إلى لعنة الله قد قتلت المسلمين كلهم بقتله » .

ولقد كان لمصرع زنكي أثر مفجع على نفوس العرب ، فدعوه « بالشهيد » ، ورغم كثرة الشهداء في التاريخ العربي ، فان زنكي هو الوحيد الذي عرف بهذا الاسم ، لكن لم يؤثر موت زنكي كثيراً على أوضاع الامة ، ذلك أن الأمم الحية لاتتأثر كثيراً بفقدان القادة ، لأنها تخلفهم الواحد تلو الآخر .

مرحلة التحرير الثانية

الأمة الجديدة وتوحيد شمال الشام مع جنوبه

٢ — فقد تسلم نور الدين محمود بن زنكي القيادة بعد سقوط أبيه وكان نورالدين، الذي اتخذ من حلب مقراً له ، مثله مثل أبيه في الشجاعة والحزم والاخلاص والطموح ، إنما تميز عن أبيه بتقواه وزهده وسلامة نيته ، فقد كان يعتقد بأن الله تعالى قد أوكل اليه مهمة اقتلاع الفرنجة من ديار العرب ، وتوحيد هذه الديار وأهلها تحت راية واحدة ولهدف واحد .

وكانت أول الأعمال التي قام بها نور الدين محمود استعادة الرها من الصليبيين الذين استغلوا حادث اغتيال زنكي فاستولوا عليها ثانية ، بعد هذا بذل جهد ما اوتيه من قوة وطاقات في سبيل اثارة الأمة ، وبعث روح الجهاد والتضحية بين جميع أفرادها في كافة مناطق الوطن العربي . ويعتبر نور الدين من أعظم الذين أسهموا في ايجاد جيل عربي

جديد له روح جديدة ، تضحي في سبيل الجهاد والتحرر ، وتخترع وتبدع كل مايحتاجه الجهاد والتحرر ، وبنفس الوقت هي روح مثقفة متحضرة تحب حياة الوحدة والتعاون والتكاتف ، وتكره الفرقة وتمجها ، هذه الروح الجديدة التي تجسدت في معظم افراد الأمة وفي شخص نور الدين ، فكان مثلاً أعلى ، هي التي مكنت نور الدين في سنة ١١٥٤م من الذهاب إلى دمشق بناء على دعوة اهلها ، فوحد لأول مرة منذ قرون شمال الشام مع جنوبه ، وشملت هذه الوحدة أجزاء من الجزيرة ، وهي التي سببت بناء العديد من الرباطات والمدارس والجامعات والمشافي ، وهي التي رعت الثقافة وشجعت المثقفين ، فنور الدين هو الذي شجع ابن عساكر على كتابة تاريخ لمدينة دمشق جاء في ثمانية مجلدات كبار ، وهذا امر لم يعهد له مثيل في سير الأمم وتواريخها (١) .

مرحلة التحرير الثانية

الوحدة بين الشام ومصر والاعداد لمعركة فاصلة

٣ — وبعدما وحد نور الدين بين شمالي بلاد الشام وجنوبيها اتخذ من مدينة دمشق مركزاً لأعماله ، ولقد خاض ضد الصليبيين عدة معارك ، وكانت جميع المعارك التي وقعت

(١) جدير بنا هنا أن نلاحظ أن وحدة الأمة العربية عبر الأجيال قد تجلت حضارياً وعقائدياً وأهدافاً في هذا التاريخ العظيم ، فغالبية الذين ترجم ابن عساكر لهم في كتابه قد ولدوا ونشأوا خارج دمشق وخارج بلاد الشام في إحدى بلدان الوطن العربي ، وقد جاؤوا الى دمشق عابري طريق ، أو زائرين بقصد الاقامة أو التعليم أو العمل ، او السياحة ، ، أو التجارة ، أو العبادة ، أو أمر آخر ...

وليس من قبيل الصدفة أن الرغبة والعمل في سبيل نشر تاريخ ابن عساكر قد تعايشت زمنياً مع الرغبة والعمل في سبيل تحرير فلسطين من الصهيونية ، وقد قطع العمل في هذا الكتاب نفس الشوط الذي قطعه العمل من أجل تحرير فلسطين ، وفي كثير من الأحيان يخيل لي أن نشر تاريخ ابن عساكر سينتهي عندما يتم أن العرب أصبحوا مؤهلين لتحرير فلسطين ، ذلك أن كل عمل سياسي لايقوم على دعامة فكرية حضارية هو حتماً عمل مكتوب له الاخفاق .

بين العرب والصليبيين حتى هذا التاريخ غير فاصلة ، فبلاد الشام هي بلاد تساعد بنيتها الجغرافية على قيام كثير من القلاع والحصون ، وكانت معظم المدن والبلدان فيها ذات أسوار للدفاع ، لذا كان كلما حدثت معركة بين قوة عربية وقوة صليبية ، كانت هذه المعركة غالباً ما تحدث قرب أسوار إحدى القلاع أو الحصون ، ولذلك كانت تستغرق وقتاً طويلاً ، وتستهلك جهداً عظيماً دونما فائدة تذكر ، واذا ماحدث ووقع اشتباك في أحد السهول فان المهزوم غالباً ما كان ينسحب الى أحد مواقعه المحصنة القريبة فيتخذ موقف الدفاع ، لذلك طال أمد الحروب الصليبية واحتاجت الى تكاليف باهظة ، وبات على العرب وقادتهم تأمين الموارد الكافية من الرجال والمؤن ، والسلاح والمال لنفقات هذه الحروب ، وبنفس الوقت العمل من أجل خلق ظروف وحالات مواتية لقيام معركة فاصلة مع العدو ، تحطم فيها قواه العسكرية .

وبعدما وحد نور الدين الشام والجزيرة نظر أمامه فرأى مصر بمواردها الهائلة ، وطاقاتها الجبارة ، وكان الحكم في مصر على غاية من الضعف والتمـزق والاضطراب ، وتوجه نور الدين بأنظاره نحو مصر كي ينقذها من فوضاها وكي يدخـل اليها الروح الجديدة التي حلت بالشام ، وحتى تستخدم موارد مصر ، وتزج طاقاتها في المعركة بدلاً من التبعثر والهدر والضياع .

ولقد أراد الصليبيون احتلال مصر للاستفادة منها ومن مواردها ، ولكي يحولوا بين العرب وبين تطويقهم والعمل في سبيل القضاء عليهم واقتلاعهم ، لهذا جردوا عدة حملات ضد مصر ، لكن نور الدين سارع الى التدخل ، وبفضل شجاعة قوات نور الدين وتجاوب شعب مصر معها أخفقت جميع جهود الصليبيين ، وتمكن نور الدين في سنة ١١٦٧م من توحيد مصر مع بلاد الشام والجزيرة ، وفي سنة ١١٧١ م تم الغاء الخلافة الفاطمية ، وقامت في مصر حياة جديدة ويقظة متفتحة ، وبدأت مصر تستعد للاسهام في أعمـال التحرير ، وطوقت الآن ممتلكات الصليبيين ، وأعد نور الدين قواته من أجل المعركة الفاصلة ، وكان موقناً من أن النصر سيكون حليفه ، وأنه لن يكون بعدفترة للصليبيين وجود في الشام ، وعلى هذا الأساس أمر نورالدين بصنع منبر لتخطب عليه خطبة الجمعة الأولى في المسجد الاقصى بعد تحريره (١).

(١) لقد أحرق هذا المنبر منذ فترة وجيزة عند احراق المسجد الأقصى بعد حرب ١٩٦٧ .

وكان صلاح الدين يوسف بن أيوب والياً لنور الدين على مصر ، وقبل أن يتوجه نور الدين على رأس قواته نحو فلسطين أصدر أوامره الى صلاح الدين بقيادة قوات مصر ، والالتقاء معه على أسوار الكرك ، ولكن — ولكل عظيم سقطة — غلبت أنانية صلاح الدين وشهواته للسلطة على نفسه — وذلك بتحريك جهازه الذي أحاط به له ، وتخويفه من نور الدين — فتلكأ صلاح ولم ينفذ أوامر نور الدين متعللاً بأوهى الاسباب وهكذا تأجل موعد المعركة الفاصلة ، وكلفت شهوة السلطة الأمة سنيناً طويلة أخرى من الدم والعذاب .

معركة حطين وتحرير القدس :

وتوفي نور الدين عام ١١٧٤ م ، وقام بعده صلاح الدين ، فاستطاع أن يرث دولته ، وعندما أنجز صلاح الدين اقامة دولته الموحدة الممتدة من ليبيا الى الموصل ، والشامة لليمن والحجاز ايضاً، قاد قواته المحترفة وجموع متطوعة الشعب سنة ١١٨٧م، نحو فلسطين ، فحطمت القوات العربية على سهل حطين القوة العسكرية للصليبيين ، ثم حررت القدس ، وجلب صلاح الدين الى المسجد الاقصى المنبر الذي صنعه نور الدين ، فخطب عليه أولى خطب الجمعة بعد التحرير .

وبعد نصر حطين بات أمر وجود الصليبيين في المشرق قضية زمن لا اكثر . وإن من يستعرض الفترة التاريخية لنور الدين وصلاح الدين بعده يجد أمة تتحرك كجسد واحد بلا تناقضات ولا أمراض مستعصية ، ولقد كان بودي أن استعرض بعض نماذج من اعمال أفراد من الشعب في هذه الحقبة ، لكن خشية الاطالة تمنعني من ذلك ، وأنصح القارىء بالعودة الى كتاب الروضتين لأبي شامة وغيره من المصادر حيث سيجد سجلاً حافلاً بجهاد الشعب العربي وتضحياته دون ملل طيلة سنين عديدة .

مرحلة التحرير الرابعة

أعمال تصفية الوجود الصليبي وصد المغول

٤ — ولقد ترعرعت الروح الجديدة التي جاءت من الشام الى مصر ، فجعلت بعد فترة وجيزة من الزمن من القاهرة عاصمة لديار العرب ، ومركزاً لقواهم ولثقافتهم

وحضارتهم ، وقاد خلفاء صلاح الدين في القاهرة العرب نحو تصفية الوجود الصليبي في بلاد الشام ، ونحو تفشيل جميع محاولات اوربية في احتلال اي جزء من بلاد العرب ، كما أن القاهرة حمت الوطن العربي في مشرقه ومغربه ، وصالته عندما تعرض هذا الوطن للغزو المغولي ، فهزمت المغول في معركة عين جالوت ، وفي دمشق وحلب ، والموصل والقاهرة طور العرب زمن الحروب الصليبية صناعة الاسلحة ، واخترعوا الكثير من الاسلحة الجديدة ، وتحفل المكتبة العربية بالكثير من المؤلفات عن السلاح وفن الحروب كلها تعود الى هذه الفترة .

أسباب انهيار الحضارة العربية بعد التحرير

وبعندما طرد الصليبيون من المشرق ، وزال خطر المغول ، بدأت قوة العرب وحضارتهم بالتدهور والجمود ، بينما بعثت في أوربة التي خسرت الحروب الصليبية حضارة سببت لها القوة وقادتها من جديد نحو اعادة فتح بلدان الوطن العربي واستعمارها ، ومكنتها من التحكم بمصير الامة العربية وخلق دولة اسرائيل في قلب الوطن العربي في فلسطين .

ويتساءل الباحث عن أسباب انحطاط العرب مع انهم المنتصرون ، وبعث اوربة مع أنها كانت المهزومة ؟ ولعل اسباب انحطاط العرب تكمن في أن الحروب الصليبية التي طال أمدها قد مكنت في البداية القادة العسكريين من تسلم زمام الامور ، ومع الايام زادت صلاحيات الجند على حساب المؤسسات المدنية ، وعندما توقفت الحروب اصبح الجند عالة على الامة ، ثم ان الشعور بالنصر والسلم والامان بعد عهود طويلة من الحروب والدمار ، مع زوال عامل التحدي ، دفع العرب نحو الاخلاد الى الراحة والسكينة . وإلى قبول نوع جديد من التمزق السياسي ، وحيث أن الامة قد وجهت ايام الحروب معظم طاقاتها ، ورصدت كافة امكاناتها المادية والعقلية للمعركة ، فقد عطل هذا مع الأيام الكثير من جوانب الحياة الثقافية والحضارية ، وولد التعصب ، واهمال الحضارة والثقافة كان وما زال آفة العرب الكبرى . ومعلوم أن العرب لم يتمكنوا قط من صنع حضارة وثقافة وهم ممزقون ، لكنهم كانوا كلما اتحدوا صنعوا كل شيء ، ففي الوحدة الهادفة الواعية كمن – ولا يزال يكمن – سر نهوض العرب وقوتهم .

الدكتور
محمد
الزايد

الاغتراب الفلسطيني
بين «الأرض» و«التاريخ»

احراجات

الاحراج الاول :

الحدث والتفسير

الارتباط العلائقي بين الحدث والتفسير،هو العلاقة الحرجة بين التاريخ والتأريخ الزمن والتزامن .. الحضور والصيرورة .. المعرفة والزمان .. العقل والتأريخ .. القول والمقول بينها القائل ..

لابد من التنبيه هنا..الى أن التشريح المثنوي لجدلية العلاقة وارتكاسها التفاعلي بين الطرفين ، هو اقتضاء العرض التحليلي ووجوبه .. لأن التحليل عملية تفكيك وتسطيح .. في نفس الوقت الذي هو فيه ، فعل نفاذ وتعميق وتأليف .

اذا تخطينا اطار العرض التقديمي للسطور السابقة ، ننتقل من ــ المقدمة الى ــ المباطنة التي تتضمنها مفرداتها .. خاصة مفردة « احراج » ..

البدء من «الاحراج» اعتماد مباشر واقرار صريح للتساؤل المفتوح..واحراجية الاحراج متأتية من احراج الانتقال من الاحراج بوصفه سبباً أول الى خارج الاحراج لأن فرضية الاحراج كنقطة انطلاق بمثابة أرض ثابتة أولانيــة للمعرفة .. والتساؤل الكيفي المبرر الذي يمكن اثارته هنا ، كيف يمكننا البناء فوق رمال متحركة ؟ بالتالي ، هل نستطيع خلق نظرية ــ معرفية للمعرفة الانسانية ؟

وهل يمكن اعتماد اللاثبات ، الذي يفترض اللا يقين ويتضمنه ، ارضاً سببية اولانية للثبات البرهاني ويقينه ؟ ان ظهور فرضية الاحراج كباطن اولاني للمعرفة الانسانية اقرار ذاتي بفصام علائقي بين الحدث وتفسيره .. الواقعة وعقلانيتها .. الظاهرة وقانونها رغم التفاعل الارتكاسي بينها ..

وكما ارى ، فان تلك العلاقة الحرجة ، التساؤلية ، بين الحدث وتفسيره ، الحدث وتأريخه ، الحدث وكتابته او تدوينه ، الحدث وقراءته ، هي اللحظة العظيمة لمشروع المعرفة الانسانية ، في نفس الوقت التي تمثل فيه لحظة المأساة التي يحيل اليها التجريد المبدع للفكر الانساني ... لقد تألم الانسان في المعرفة وفي المعرفة اصبح انساناً ! ؟

لنحاول القيام بترجمة تاريخية بدائلية لمفردات الرؤية الفلسفية المعرفية .. وبما اننا توصلنا الى لحظة الاحراج بوصفها لحظة التســاؤل والاستفهام ، نرى وعينا امــام التساؤلات التالية ؟ :

ــ هل يستطيع التفسير ان يستنفد الحادثة ؟

ــ هل في الحادثة فائض يتخطى التفسير ؟

ــ هل في التفسير فائض يتخطى الحادثة ؟

ــ الى اي مدى يقول التفســير الحادثـة ويفسرها ؟ بترجمة تاريخية للمفردات التساؤلية .

ـ هل استطاعت جميع التفسيرات ، وهل تستطيع ، ان تستنفد كارثة فلسطين ومأساتها ؟

حتى العودة ـ الى ـ فلسطين كأمنية قصدية للانسان الفلسطيني ـ والعربي ، هل تستطيع ان تمحو آلام الكارثة ؟ معاناتها ؟

ان الحضارة الاوروبية ما زالت الى اليوم تستعيد كارثة النازية رغم زوالها السياسي والجغرافي .. ومن الجائز الافتراض ، في حدود آفاق المستقبل المنظور ، انها سوف تستمر في استعادتها ومحاولة تفسيرها .. وبما ان الاستعادة عملية تفسير قصدي ، فهي اعادة تشكيل يفعلها ما هو كائن بما ـ كان لتطويق ما يجب ان يكون وتخطيطه .. العملية التي تنتقل الوعي من حكم الوجود الى حكم القيمة ، من المعرفة الفلسفية الى فلسفة التاريخ .. من الكينونة والمعنى الى الاخلاق والقيم .. والنازية بهذا الصدد ، ليست سوى محاولة متواضعة جدا بالمقارنة مع مشروع الصهيونية ومرتكزاتها الرؤيوية المعتقدية الصريحة .. ان الاساس الاولاني للقصد التاريخي الصهيونية ، مصادرة تاريخ الانسان العربي وحضارته التي كانت قتلا نهائيا لما يسمى بـ « السامية » .. مصادرة التكوين الاول للحضارة العربية الاولى والانسان العربي الاول والحامل اللاهوتي العربي الاول ابراهيم .. او الاب الاول للظاهرة الدينية بتجلياتها الثلاثة : اليهودية ـ المسيحية ـ الاسلام .. والقرآن صريح في هذه النقطة عندما يقول (ملة ابيكم ابراهيم) اول الحنفاء ... ومفهوم العروبة هنا ليس مفهوما قوميا عنصريا معتقديا ، انما هو مفهوم حضاري ، باعتبار « العروبة » هي التمثل التاريخي النهائي « للسامية » الحضارية .. وبوصفها ـ اي العروبة ـ آخر تجليات السامية الحضارية .. لهذا ، لا أرى مبرراً منطقيا وتاريخيا كافيا لاستمرار استعمال مفردة « السامية » للدلالة على الحضارة العربية من منظور اللحظة التاريخية الراهنة ..

ولا بد من الانتباه الى بعد عمقي دقيق الى درجة حاسمة : ان افتراض « العروبة » كبديل للسامية بالاستناد الى معطيات تاريخ الحضارة ، لا يقود ، ومن التهافت ان يقود ، الى التسليم بالتطابق الاولاني ـ الكلي والجذري ـ بين العروبة والدين .. لأن « الظاهرة الدينية » الثلاثية [اليهودية ، المسيحية ، الاسلام] احدى تجليات محمولات العروبة وليس حاملها المطلق .. العروبة هي حامل الدين ، وليس العكس ، الدين ليس حامل العروبة وانما محمولها ..

لذلك .. فان الاحزاب العربية او الكتل السياسية العربية الدينية التي تطابق كلي

اولاليا بين « العروبة » و « الدين » هي « صهيونية - عربية » في اساس مشروعها التاريخي .. كذلك .. الاحزاب او الكتل السياسية العربية التي تحذف العروبة » كليا لصالح « الدين » هي « صليبية - عربية » رغم الطابع الامي المزيف الذي تتقنع به شكلياً ..

عند تلك المشارف الدقيقة ، نتوصل الى البعد الثوري - الانساني لنظرية « القومية العربية » المعاصرة التي تعتبر الدين عاملا جزئيا يتساوق مع مجموعة عوامل علائقية اخرى تلتقي وتتقاطع كاحداثية واحدة هي « القومية العربية » .

وقومية العروبة المعاصرة من حيث دلالتها التاريخية ، لحظة تقدمية - انسانية تساهم ، عبر تجربتها الحضارية ، في التشكيل الأممي لتجربة الانسان الكونية وتاريخها ..

لأن « القومية العربية » محول تأريخي لحامل كينوني تاريخي هو « الانسان » - العربي .. الانسان حامل القومية .. وليست القومية حاملا للانسان .. القومية محول الانسان .. لذلك القومية اصطلاح - تاريخي لا طبيعة أبدية مطلقة .. والفرد الانساني، الشخص المبدع هو الذي يستطيع أن يبدع قوميته وحضارته انساناً شمولياً ..

ويمكن إدراك التمايز الكيفي بين العنصرية [السلالية، الثقافية، الدينية] والاممية، بين الاستبداد والحرية ، الرؤية المعتقدية والرؤية الاجمالية ، بين التفسير الاطلاقي للحدث والتفسير النسبي الامكاني له ، في المسافة العلائقية الفاصلة - الواصلة بين الطرف الاول والطرف الثاني ..

- التفسير الاول لا علمي ، وهمي ، خرافي ، متهافت .
- التفسير الثاني علمي ، يحتوي اليقين البرهاني - العلماني ويتجاوزه الى امكاناته الأكثر نحن رغم مأساوية الحدث ولا عقلانية بعض أبعاده ..

فالديمومة التاريخية للحدث ، ترتبط مع الكيف التفسيري له .. والادراك الأولاني للبعد اللاعقلاني المباطن للمعرفة التفسيرية ، والديمومة التاريخية ايضاً ، لحظة بنيوية اساسية لحركة الفعل الانساني وصيرورته - نحو - الحرية ..

وبالارتكاس الجدلي المتفاعل بين الحدث والتفسير يبدأ الفعل الاقتصادي، السياسي، الاجتماعي ، الثقافي .. بمفردة واحدة ، لأن التحرر الحضاري يعترض تمرداً حضارياً يؤكده - صور الانسان وفعله تأريخياً ، حادثاً ، وتفسيراً نظرياً ومعرفياً ..

اللاموضوعية

الاحراج الثاني

هل تنتفي موضوعية المعرفة اذا كان الباحث طرفاً أساسياً في القضية المبحوثة ؟
السؤال الاكثر سبقا منطقياً الذي يحيل اليه السؤال الأول :

هل « الموضوعية » هي « المحايدة » المطلقة بين الباحث و « الظاهرة » ؟
بترجمة تاريخية .. هل تلغي – فلسطينيتي – ، امكانياتي المعرفية في القضية الفلسطينية ؟

بصياغة ثانية ، إلى أي مدى يمكن ان تؤثر فلسطينيتي على موضوعية تحليلي المفتوح في اقتراب الانسان الفلسطيني بين التاريخ والارض ؟

الانسان كائن نسبي .. بذلك تسقط المحايدة المطلقة الجذرية .. لأن النسبية مفهوم علائقي يشير الى حضور الانسان التزمني – في – تزامن علائقي تاريخي – إنساني بين الأنا – النحن ... الـ شخص – المجتمع التاريخ ...

ولو حاولنا الدخول الى حيثيات المسألة المطروحة .. نجد أن مباشرتها المعرفية على ضوء العلم الوضعي هو المدخل الاكثر عقلانية – موضوعية باعتباره انموذجها التام من الاشتقاق اللساني الى الدلالة العلمانية ..

– « الموضوعية » صفة « الموضوع » .. و « الموضوع » هو الشيء المنفصل عن « الذات » الذي اتخذ « وضعاً » خاصاً (*)..

فاذا كانت « الذاتية » تشير الى مطابقة الذات لذاتها ، و « الموضوعية » مطابقة الموضوع لوضعيته ، فان العلاقة بين الذاتية والموضوعية علاقة اقتراب ...

فالفارق الكيفي بين الموضوعية والذاتية والعكس الذاتيــة والموضوعية فارق المطابقة والاقتراب . العالم او الباحث ، يقترب من الظاهرة ولا يتطابق معها .. لذلك كانت فسحة الاحراج بين الاقتراب والمطابقة مصدر قوة المعرفة الانسانية وضعفها معاً .

(*) إشارة .. أيضاً ، نجد الدلالة ذاتها في اللغات الاوروبية الموضوع ، Ol-ject ، أي ماهو مقذوف أمامك .. منفصل عنك .. معطى ..

والنسبية في الفيزياء والرياضيات ، ليس سوى الترجمة العلمية لمفهوم « الاقتراب » الذي يتأسس على المسافة الاحتمالية .. وحساب الاحتمالات ، ليس سوى الترجمة الرياضية الرقمية للاقتراب الاحتمالي ..

لقد توصل الفكر المعاصر الى فكرة « الظاهرة » .. وفكرة الظـــاهرة أساس منطقي علمي قوامه « الموضوعية » .. على الأقل داخل حدود العلم الوضعي وآفاقه ..

لكن فكرة « الظاهرة » تختلف — بالنسبة — للعلوم الانسانية عنها في العلوم الوضعيـة ...

لأن الانسان هو موضوع العلوم الانسانية التي تدرس سلوكه وفعالياته المتنوعة الانماط داخل الكون .. سواء أكانت تلك الفعاليات والنشاطات ، نظرية او عمليـــة . لفعلها الكينونة الانســـانية — الواعية ، الأنا — الواعية بحكم حضورها الكينوني — في — الكون ..

فاذا كانت فكرة الاحتمالات دخلت الأفق الكلي للعلم التجريبي الوضعي — الموضوعي لتؤكد نسبية المعالجة التحليلية لظاهرات الطبيعة ، وتبرهن على مداخلة نسبية مئوية من الخطأ الحتمي المرتكب في التجربة المخبرية واليقين الرياضي ... والخطأ الحتمي هو الخطأ الذي لايمكن تجنبه أو القفز عنه ... إذا كانت تلك حال العـــلم الوضعي من الفيزياء الى الرياضة ، فكيف هي الحال في علوم الانسان التي لم تصبح « علوماً » بعد .. علوماً بالدلالة الوضعية المفردة « علم » .. Science ... بالنتيجة .. أصبح الباحث — الدارس المعاصر جزءاً من الظاهرة المدروسة ووســـائل بحثها .. (ميكانيك الكم ، الميكانيك الموجية) . لقد داخلت احتمالات الارتياب واللاحتمية العلم الوضعي المعاصر والنظرية الذرية الوجودية مما الغى مرة ولكل مرة فكرة « المحايدة » المطلقة بين الباحث والظاهرة ، بين العالم وموضوعه ووسائله الاداتية الاجرائية ..

مرة ثانية .. إذا كانت تلك حال العلم الوضعي فكيف يمكن أن تكون حال العلوم الانسانية حيث الانسان هو الظاهرة الدارسة والمدروسة ، الباحث وموضوع البحث ، المطابقة والاقتراب ، الذاتية والموضوعية .. ؟؟؟

إن لاموضوعية العلوم الإنسانية لايبرهن على « ذاتيتها » المغلقة .. لأن الذاتية المغلقة تحذف إمكانات البحث في — الظاهرة الانسانية حينما تضعها أولانياً خارج حدود المعرفة بسبب الحالة المستعصية لطرفي البحث ، الأنا — الذاتية والأنا الموضوعية ..

لكن بناء نظرية المعرفة على أسس فرضية تساؤلية إحتمالية لايلغي امكانات البحث العلمي أو يحذفها أو يغلقها برتاج المحال ، وإنما يؤسسها ويفتحها على لاتناهي إمكانها .. وارتفاع نسبة المباطنة الإحتمالية في العلوم الانسانية هي إشارة إلى تمايز مناهج بحثها بالاستناد الى التمايز الأولاني لموضوعها « الظاهرة الإنسانية » .

بذلك تصبح « اللاموضوعية » في « تفسير » « الحدث » التاريخي وتحليله ، حاملاً لمعرفة إحتمالية تقترب من موضوعها دون أن تفترض إستنفاذه أو تزعمه .. أما فيما يتعلق بالاتجاه التاريخي الوراثي للباحث أو المفكر فهومدخل إقتراني يغني تفسيره الإحتمالي لتاريخه وأحداثه من جانب إيجابي .. والنتائج التي تتوصل إليها تحليلاته ورؤاه هي المرتكز الثابت للحكم على محاولته ..

فالمعاناة الذاتية المشكلة بالحضور التطابقي فيها كحدث لاينفي إمكانات التباعد الاقتراني الموضوعي معها كتفسير .. وبمفردات تاريخية وطنية .. تبيت الفلسطينية وكارثتها لحظة إيجابية في محاولة إستجلاء إغتراب إنسانها بين الأرض والتاريخ .

* * *

الاحراج الثالث

الموضوع

توصل التحليل حتى الآن ، الى أوليات الأسس المنهجية التي سوف يعتمدها البحث في إغتراب الانسان الفلسطيني بين الأرض والتاريخ ..

انتهى الإحراج الأول إلى الإرتباط الأولاني بين الحدث والتفسير بالارتكاز الأولاني على حاملها وفاعلها الكينوني الذي دعوته « حضور الانسان » ... بدون حضور الانسان تسكن الصيرورة التاريخية للحدث وكيفيته التفسيرية التي تعيد تشكيلة خلقه وإبداعه ..

وانتهى الاحراج الثاني ، إلى إقرار اللاموضوعية كموضوعية إحتمالية تقترب في تفسيرها من الحدث ولا تتطابق تماثلياً معه .. رغم التطابق الكينوني الذي يشير إليه ويتضمنه « الحضور » الموضوعي للحدث ..

فاللاموضوعية ، كموضوعية ، صفة لموصوف يحملها هو الحضور الموضوعي ..

والحضور الموضوعي حدث في ــ موضوع .. وقد جاءت اللحظة التي يجب الدخول عبرها الى « الموضوع » بالاستناد الى معطيات أفكار التحليل ورؤاه ..

تدل مفردة « الموضوع » داخل سياق التحليل على :

« الانسان الفلسطيني » .. الانسان الفلسطيني الواقعي ، الذي يعيش ، يعاني ، وينبض.. وبما أن التفكير فعالية للتنقل من العين الى المجرد ، من الحدث الى التفسير ،لذلك يتمحور المؤشر الدلالي لمفردة « الموضوع » على « حضور الانسان الفلسطيني » بوصفه حضوراً إفتراضياً .. وفرضية الاغتراب « فرضية » تحاول ان تقول الحدث الحضوري الواقعي ، العيني ، وتفسّره .. ولا بد من التوكيد على فرضية الفرضية لإستبعاد كافة الاحتمالات المعتقدية ــ المطلقة المصادرة والمسلحة .. ولكي لاينتقل اللاهوت منلاهوت الدين الى لاهوت العقل [معتقدية العلم] الى لاهوت التاريخ [حتمية التاريخ] الى لاهوت الانسان و الوطن [فلسفة التاريخ وأحكام القيمة] ..

الانسان الفلسطيني « قضية » ــ حاضرة.. لها ما للحضور الانساني من احراجات وخصوصية وشمولية..

ويجيء احراج تناول « قضية » الانسان الفلسطيني كـ « موضوع » من الحضور التزمني العيني المباشر ، له .. فالموضوع مازال « حدثاً » دموياً ساخناً يقوله «الشعر» و « الكتابة السياسية » اليومية والآنية ، و القصة القصيرة والرواية شبه الطويلة والمسرحية .. بمفردات اخرى .. مازال « الحدث » ــ الموضوعي . فعلا وفناً .. بينما يقتضي « التفسير » الفلسفي مسافة لأن التحليل الفلسفي والنفسي ، أو التحليل الحضاري عموماً متعذر في قلب أثنائية الفعل .. والتعبير الكلامي الانساني الأحادي الذي تتطابق وظيفته مع ابداعه الأثنائي من قلب الفعل هو « الشعر » .. الشعر ملحمة القول والفعل القول فعلا والفعل قولاً . يستطيع الشعر أن يترافق مع الحضور ويتزمن فيه .. بينما لا تستطيع الفنون التعبيرية الانسانية الاخرى أن تقوم بنفس الفعل التطابقي بين الحدث والتعبير .. وتصل الاحراجية الى ذروة مأساتها لدى الكتابة الفلسفية .. وكتابات التأريخ .. الا أن « الموضوع » المطروح للبحث ليس موضوعاً « تأريخياً » لسلسلة متتابعة من الاحداث .. وانما هو موضوع يفترض « حضوراً » صيرورياً بين الحدث وتفسيره .. المعاناة وكتابتها .. لذلك ، لاافق الى جانب وجهة النظر التيتفترض مسافة ثلجية باردة بين موضوعية ــ الموضوع وفكره.. لانمسافة الفكر اللا موضوعي

الذي يتمثل موضوعه ويتزامن حضورياً معه هي فسحة الارتكاس الجدلي النقضي وصراعه الكينوني.. لهذا فان « الكتابة » عن ـ حركة تاريخية ـ أو ظاهرة تاريخية ليست سياسية بالضرورة المطلقة .. وان كانت سياسية بشكل ما .. لأن الكتابة السياسية تعبير عن الفعل السياسي .. والفعل السياسي تحقيق اجرائي ـ سلوكي لفكرة سياسية .. والفكرة السياسية حلقة جزئية من حلقة كلية يحملها الانسان الذي يفعل ، الفاعل في جوانبه اناه المفكرة وبنياتها الثقافية المستمدة من تاريخ سيرورة الشخص التربوية والتعليمية.

بذلك يتضح ، أن الكتابة « تاريخ » .. بينما التدوين « تأريخ » .. والسيرورة هي الانتقال الكيفي والكمي معاً من التأريخ الى التاريخ ، من التدوين الى الكتابة.. والفارق بين الكتابة السياسية وغير السياسية فارق بالدرجة لا بالنوع من حيث المقدمات وفارق بالكيف والنوع من حيث النتائج والاحالات.. فالكتابة عن ـ موضوع الاغتراب الفلسطيني وظاهراته محاولة نظرية في « الفكر الموضوعي » رغم احراجات مشروع المعرفة التي تصبح الكتابة بعداً من أبعادها ومشكلاتها .. اشكالية الانتقال من المعاناة الى التفسير ، وجدلية العلاقة التمثلية والنقضية بين الطرفين. عند هذه الحدود أرى بأن الفكر كتابة فاعلة في سيرورة التاريخ .. والمفكر فاعل، وشهيد احياناً ، لامشاهد متفرج فحسب ..

البترول

نقصه، وسواسه وحقائق حوله

دونيس بوشار — ترجمة: حافظ الجمالي

المقال الذي نترجمه اليوم عن الانسكلوبيديا الفرنسية، في عددها الخاص بالعام ١٩٧٣ – ١٩٧٤، يتحدث عن البترول، والأزمة التي تعانيها الدول المصنعة من جراء ارتفاع أسعاره، وامكانية انقطاع أو تضاؤل وصول امداداته. ولئن كانت حصيلة هذا المقال أن لاخوف على العالم من نقص البترول، أو عدم كفايته من حيث المبدأ، خلال نصف قرن من الزمان على الأقل، فان سياسة البلاد المصدرة

(١) انظر Encyclopaedia universalis universalia Denis Bauchard 1974

للبترول من جهة أولى وارتفاع أسعاره من جهة أخرى ، وصعوبة استخدام الطاقة النووية في الوقت الحاضر ، كل ذلك يجعل العالم القوي ، ضعيفاً جداً أمام العالم الثالث ، خوفاً من أزمة بترول ضخمة تعانيها الصناعة الغربية واليابانية والأمريكية

ويلاحظ الناس بسهولة أن الدول المستهلكة ، وعلى رأسها أمريكا تريد أن تنشىء جبهة متحدة ضد الدول المنتجة ، وأن المجابهة ـ حتى بالقوة ـ ممكنة جداً ، وأن الأخطار المحيطة بالعالم ، من جراء ذلك ، أخطار كبيرة حقاً .

ولا ريب أنه مامن انسان عربي ، لم يعرف أن الدول المستهلكة تخشى كل الخشية أن تتجمع لدى الدول المنتجة أموال كثيرة ، تهدد بانقلاب موازين القوى الاقتصادية والمالية ، وأن بريطانيا تقترح أن توضع هذه الأموال الفائضة ، لقاء فوائد معتدلة ، في صندوق النقد الدولي ، لمساعدة الدول التي تأثرت بشكل خاص من ارتفاع أسعار البترول . وبلغة أخرى ينبغي للدول المنتجة ، ومنها أو على رأسها الدول العربية ، أن تتنازل عن أموالها لمصلحة العالم كله ، بغض النظر عن مصلحتها هي ، اذ يقدر أنها بلاد قليلة السكان ، محدودة الاستهلاك ، لامجال فيها لتوظيف الأموال الفائضة استثماراً نافعاً .

أما أن تزداد أسعار كل السلع في أوروبا الغربية وأمريكا ، وأن يضطر العالم الثالث لشرائها ، كل عام ، بثمن أغلى من سعر العام السابق ، وألا يكون حراً في فرض اسعار مواده الأولية ، بينما يظل العالم المصنع حراً كل الحرية في فرض أسعار سلعه ، كيفما كان حالها ، فيبدو أن هذا أمراً لايخالف المنطق أبداً !

وفي الوقت نفسه ، يلاحظ الانسان بسهولة أن العالم العربي محتاج الى كل صور التنمية ، وأن الأموال العربية الفائضة ، تستطيع أن تجد في هذه التنمية صوراً معقولة ، مقبولة ، ضرورية ، وخيرة أيضاً ، للتوظيف . إذ لابد أن يتساءل

العربي ، لماذا نستورد أسلحتنا من الخارج ؟ ولماذا لايقوم في عالمنا مصنع للطائرات وآخر للسيارات ، وثالث للبواخر ؟ ولماذا لانستثمر أراضينا الهائلة في الزراعة . بعد تأمين مصادر الري ؟ ولماذا ، أخيراً ، تنقصنا الحضارة التي ينعم بها العالم الغربي مع اننا نملك كل الأموال الضرورية للانفاق على آلاف الأذكياء من شبابنـــا ، القادرين ، خلال عشر سنوات على امتلاك كل ثروات العلم والمعرفة والصناعة ؟

لقد أعلن رئيس وزراء ايران ، أن بلاده عازمة على أن تكون من أعظم الدول ، خلال جيل واحد . ونلاحظ نحن أن ايران تملك وسائل تحقيق هذا العزم أما نحن ، كعرب ، فنملك ماتملك ايران وأكثر ، فهل نقدر أن نجعل أمتنا من أعظم الأمم ، خلال جيل أو جيلين أو أكثر ؟ ومتى سيصدر هذا القرار ؟ ومن سيصدر ؟ ولماذا نضع كل امكانياتنا في مجابهة مع اسرائيل الصهيونية ، في حين أنها (أي امكانياتنا) قادرة على جعلنا نجابه كل الدول المؤيدة لاسرائيل ضدنا ؟

وأكثر من ذلك أن شعبنا العربي الذي يقدر الآن بنحو مئة مليون نسمة، سيصبح ٢٠٠ مليون على الأقل عام ٢٠٠٨ ، واذا كان استثمارنا لمواردنا يعجز حتى الآن عن تأمين حياة لائقة للأكثرية الساحقة من هذه المئة مليون ، فكيف يتسنى لنا خلال ثلاثين سنة ، أن نقوم بأود المئتي مليون .

أو ليس هنا مجال لترداد قول القائل : « فيا عطشي والماء يجري » .

• • •

ان ماقاسته أمريكا في تموين سوقها بالبترول منذ عام ١٩٧٢ ، ونتائج الحرب العربية الاسرائيلية في تشرين ١٩٧٣ ، كل ذلك قد ساهم في الكشف عن الأخطار الناشئة عن نقص البترول . ولما كانت الحاجة الى هذه المادة ، في سير الاقتصاد اليومي، كبيرة متعاظمة ، فان انقطاع ورودها ، أو مجرد البطء في ذلك ، يؤدي الى اضطرابات كبيرة في اقتصاد العالم الصناعي .

ولكن هل العالم مهدد بنقص جدي في البترول ؟ وهل من خطر في المستقبل القريب من نضوب الآبار البترولية . وهل مخاطر هذا النقص حقيقية ، أو هي وهمية؟

ان الجواب عن هذه الاسئلة المطروحة على الاقتصاد العالمي في أواخر القرن العشرين، يقتضي تحليلاً متوازياً لمصادر البترول الموجودة بالفعل أو بالقوة ،ولتوزيعها على أرجاء الارض . فاذا تعجلنا الجواب ، قلنا انه ليبدو ، على المستوى النظري والعملي ، أنه مامن خطر من نقص البترول ، حتى نهاية هذا القرن ، ولكن سوء توزيع مصادره قد يؤدي الى صعوبات في تأمين التموين لكبريات البلاد المستهلكة .

تفاؤل علماء الجيولوجيا
حول مقادير الاحتياطي

ان تقدير كميات الاحتياطي يتغير تغيراً كبيراً . حتى ليقول البعض بعشرة أمثال مايقول به البعض الآخر ، تبعاً للمحتوى الذي يوضع في كلمة « الاحتياطي » . ان هنالك بعض الغموض ، وكثيراً من الالتباسات حول هذا الموضوع .

« يعتمد المتشائمون في تقديراتهم على الارقام التي تقدمها شركات البترول والتي تجعلنا نحسب أن كل مالدينا من احتياطي سيتبدد خلال عشرين سنة . والواقع أن كمية الاحتياطي تقدر بـ «٩٥» مليارطن،وهذا يكفي لانتاج متواصل يمتد على خمس وثلاثين سنة، على أساس ما انتج عام ١٩٧٢ (وهو ٢،٦ مليار طن) ؛ ولما كان الاستهلاك يزيد كل عام بنسبة ٨ - ١٠ ٪ ، فمن المؤكد أن الاحتياطي قد لا يكفينا مدة عشرين سنة .

ولكن هذا الحساب المتشائم ليس واقعياً . فمنذ خلقت صناعة البترول ، لم يكن لديها احتياطي يزيد على « ٣٥ » سنة .. ومع ذلك فان الانتاج ظل يتلاءم مع حاجات متصاعدة بسرعة كبيرة .

فيجب اذن أن يستكمل هذا التقدير بالعناصر التالية :

١ - الاحتياطي القابل للاستخراج أعلى دوماً من الاحتياطي المعلن

ذلك أن شركات البترول تعطي في الواقع ، المفهوم « الاحتياطي المعلن » محتوى ضيقاً جديداً : يتعلق بكمية البترول الخام المكتشف في مستودعات محدودة

تماماً ، ويمكن استخراجها بالاساليب الفنية المعمول بها حاليـاً ، وبشروط الكلفـة القائمة اليوم .

ويعكس هـذا التعريف أناة شركات البترول تجاه كل اكتشاف ، لا يمكن تقـدير كميته فعلاً ، الا عندما تكون قد استخرجت كلها ، تماماً .

أما في الواقع ، فنلاحظ أن البترول المستخرج من « مستودع » ما ، أي من منطقة محددة تماماً ، هو اكثر بكثير من التقديرات الاوليـة التي اعلنت عنها الشركات .
— يشير الاستاذ اوديللي Odelli بالاعتماد على تجربة كندا الى أن الفرق بين الكميات المعلنة والكميات التي يمكن استخراجها كان بنسبة ١ الى ٩ ، اذا اعتمدنا الارقام المعلنة لاول مرة ، وبنسبة ١ الى ٣٠٣ ، اعتمدنا الارقام المعلنة بعد ثلاث سنوات من الاستثمار ، وبنسبة ١ الى ١٠١٠ فقط بالاعتماد على الارقام المعلنة ، وبين الاحتياطي الفعلي ، الى عدة اسباب :

— ان التقديرات الاولية صعبة دوماً ، وعلى الرغم من تقدم فن السبر ووسائله ، فانه مازال يصعب ، في البداية ، تقـديم تقدير سليم للمستودع المكتشف . ومنذ بضع سنوات ، عرفت بعض الطرائق التي تتيح لنا ، بالاعتماد على حفر محدودة جـداً ، بأن نقدم تقديراً اولياً لمحتوى المنجم البترولي . ولكن هذا التقدير يظل موقتاً ؛ ذلك أن معرفة حقل بترولي تتحسن على امتداد استثماره ، ومن الغريب أنه كلما ازداد الاستثمار أزداد الاحتياطي الذي يمكن استخراجه . ثم ان قوانين الاستثمار مسؤولة عن ميل التقديرات الاولية الى النقص ، ولا سيما في الولايات المتحدة ، ذلك أن الاعفاءات الضريبية الخاصة باكتشافات البترول تحمل السلطة على عدم الموافقة عليها الا بعد الاطلاع على التقديرات المبنية على الحقائق ، لا على الاحتمالات .

— ومن الحق القول ، مع ذلك ، إن سوء التقدير ينشأ عن سياسة مقصودة لدى شركات البترول . ذلك أن هذه ترى ان من العبث ان يكون في حوزتها احتياطي كبير جداً ، إذ أن الرساميل التي ينبغي استخدامها ، يؤدي بها الى قصر التنبؤ على الحـد الأصغر الذي يكفل الطمأنينة التي هي بحاجة اليها لتوسيع فعاليتها ، بالنظر الى ضمانة الكلفة فيا يسمى بالاستثمار على أساس الوحدة . يضاف الى ذلك ، تلك الرغبة في ان لاتثير طمع البلاد صاحبة الحقول ، فتطلب مزيداً من الاستثمار للحقول المرخص بها .

والحقيقة إن الشركات تعلن ماتريد ان تعلنه ، وتكشف تجربة الماضي عن ان الأرقام المعلنة في بداية الأمر ، تكون مخفضة جداً ، ولا يوجد من يراقب صحة ذلك ، إلا في الولايات المتحدة وبالمقابل فان الارقام التي تعلنها الدول ، صاحبة الحقول ، مبالغ بها ، لعكس الاسباب السابقة . وهكذا فان رصيد الاحتياطي الجزائري ، قد ضرب باثنين ، مابين سنة واخرى ، لمجرد ان التقدير الأول كان من صنع الشركات الاجنبية ، وان التقدير الثاني كان من صنع الشركة الوطنية .

ولئن كانت التقديرات صعبة في البداية ، او مخفضة عمداً ، فانها يمكن أن تتغير تغيراً محسوساً باستخدام اساليب فنية جديدة ، في استخراج البترول . وتلعب هذه الأساليب دوراً هاماً في تقدير الكميات الممكنة الاستخراج فعلاً .

وأول كل شيء ان كثرة الآبار المحفورة ، وكذلك مدة الاستثمار ، من العوامل الأساسية التي تؤثر في الكميات المستخرجة . وتحاول كل الدول استبعاد اساليب الاستثمار السريعة التي من شأنها ان تضعف كمية الاطنان القابلة للاستخراج . واحسن نسق للانتاج هو ذاك الذي يبقي الاستثمار في حقل ما في غضون عشرين سنة .

ومع ذلك فان وسائل استخراج البترول الأولية ، تعتني باساليب ثانوية ، التي نرى استخدامها يتزايد باستمرار . وهكذا يتم حقن الارض بالغاز أو بالماء ، بضغط كبير ، مما يساعد على ازدياد التفجير الطبيعي للبترول ، وازدياد مايستخرج منه ، أو نسبة مايستخرج منه .

وأخيراً ، فان الباحثين يفكرون باستخدام وسائل من مرتبة أعلى من هذه الأخيرة ، ولو انها ماتزال موضوع بحث وتجارب ، كحقن باطن الحقل بالغاز المميع ، أو باحراق جزء من المخزون لزيادة سيولة البترول او خلخلة الحقل البترولي أو لتقليل تصديعه ، عن طريق التفجير النووي أملاً بتكبير قابلية النفوذ في البنى الجوفية . وعلى ذلك فان نسبة مايستخرج من البترول رهينة بمدة الاستثمار وبالطرق المستخدمة لاستخراجه ، وببنية الحقول الجيولوجية . وتتغير هذه النسبة تغيراً كبيراً ، أي بما يتراوح بين ١٥ — ٨٠ ٪ من الاحتياطي الجاهز . ولنلاحظ أن الاساليب الفنية المستخدمة في استخراج البترول تتطور تطوراً سريعاً وينبغي أن تساعد في المستقبل على تحسين نسب الاستثمار .

وهكذا فان تعميق مفهوم الاحتياطي المعلن يساعد على رسم لوحة اكثر تفاؤلاً حول مصير البترول ويستخدم خبراء البترول مفهوماً آخر ، هو مفهوم الاحتياطي المحتمل .

٢ ـ الاحتياطي «المحتمل» أعلى بكثير من الاحتياطي القابل للاستخراج .

إن مفهوم هذا الاحتياطي يتغير تبعاً للخبراء : فهو يتراوح مابين ثلاثة الى خمسة أمثال الاحتياطي المعلن . أما وجوده غير « المبرهن » عليه علمياً . فيقوم على أخذ العناصر التالية بعين الاعتبار .

ـ لم ينقب عن البترول ، حتى الآن ، إلا في بقعة صغيرة من الكرة الأرضية . وهكذا فان الميلونين من الآبار التي حفرت منذ بدء تاريخ البترول ، يقوم أكثرها في الولايات المتحدة وفي فنزويلا . او قل بان واحداً من عشرين منها يقع خارج هذين البلدين. ولكن سدس الاراضي والهضبة القارية يلبغي ، بحكم طبيعتها الجيولوجية ، ان يشتمل على الفحوم الهيدروجينية . ولم يسبر من هذا السدس بشكل جدي إلا ٥٪ وهنالك مناطق واسعة يبدو احتمال وجود البترول فيها أكيداً ، كالقطب الشمالي ، والشرق الأقصى ، وامريكا الجنوبية ، عدا فنزويلا ، ولم تسبر إلا بصورة سطحية .

ـ ان تحسن أساليب السبر والاستخراج الفنية يبعد كل يوم حدود نضوب البترول . اذ أننا نصل إلى أعماق أبعد فأبعد ، ولاسيا تحت الماء ولا يزال السبر هنا يقف عند حدود الـ ٥٠٠ متر في المتوسط ، لكننا سنبلغ الألف متر قبل عام الـ ٢٠٠٠ .

ـ ان ارتفاع أسعار البترول يعيد الاعتبار الى تلك الآبار التي لم تستثمر لارتفاع كلفة استخراج البترول منها . أو لتعذره ، فالمشكلة الآن ليست مشكلة ما اذا كان البترول قابلاً للاستخراج فنياً . ذلك أن الامكانيات الفنية لامتناهية ، ولكن المشكلة هي في أن نعرف أية كلفة هي ضرورية لاستخراجه . ومن هذه الناحية ، نلاحظ أن غلاء الكلفة يزيد من أهمية الاحتياطي البترولي .

وتعتمد تقديراتنا للموجود من الاحتياطي البترولي على طريقة التعميم الاستقرائي تحد منها المعطيات الفنية والكلفة . وتقوم هذه على أساس كمية من البترول في الكيلومتر المربع من الارض الرسوبية ، او في الكيلو متر المكعب من الصخور الرسوبية . وهي

تأخذ بعين الاعتبار تقدم الأساليب الفنية ، وإمكانية الوصول الى أعماق أكبر ، وكذلك يدخل في حسابيا أن ارتفاع الاسعار يغرينا باستثمار بعض الاحتياطي الصعب .

وهكذا فان الأرقام المعلن عنها ، تبعاً للطريقة المستخدمة ، ليست الا مراتب من الأقدار أو الكميات . وتذكر الارقام ٣٠٠ ــ ٥٠٠ مليار طن ، كأكثر مايذكر ، ولكن قسماً منها ، في أعماق البحار ، ويذكر تقرير حديث (حزيران ٧٣) نشره الأمين العام للأمم المتحدة ، أن الاحتياطي من الفحوم الهيدروجينية في البحار ، قد يكون في حدود الـ ٣٠٠ مليار طن ، أكثر من نصفها مستقر في مستوى الهضبة القارية . أما انتاج البترول هنا فقضيته تتعلق بالكلفة لا بالامكان ، ولكن هذه الكلفة تزداد بسرعة كبيرة ، تبعاً للبعد عن الشواطىء ، وتبعاً للعمق خاصة : ان كلفة السبر على عمق ٣٠٠ متر أكبر بأربع مرات من السبر على عمق ٣٠ متراً .

فاذا نحن أخذنا بالاعتبار جملة الاحتياطي البترولي المحتمل الاستخراج ، قلنا ان البترول قد يكفي العالم مدة تتراوح بين ١٢٠ ــ ٢٠٠ سنة على أساس انتاج عام ٧٣ ، أي مابين ثلاث أو خمس مرات ماتعد به الأرقام المعلنة .

٣ ــ الاحتياطي « النهائي » يمكن أن يعد باطالة عمر البترول

وقد يحمل الاحتياطي النهائي (أو « غير المتواضع عليه ») وعداً باطالة أكبر لعمر البترول . والحقيقة أن بعض مصادر الفحوم الهيدروجينية ليست بمستثمرة حملها ؛ ويتعلق الأمر هنا برمال بيتوميلية من جهة أول وبالفحم، من جهة ثانية . غير أن استثمار هذه المصادر الجديدة ، التي يشار اليا من حين لآخر ، يطرح جملة مشاكل .

ــ ان مثل هذا الاستثمار ممكن ، عملياً ، من الوجهة الفنية . بل هو متحقق فعلا ، ذلك أن زيت التنضيد (هو صخر متبلر ينفلق الى طبقات) قد استخرج ، منذ القرن الماضي ، من نضيدات أوتون Autun ؛ وهنالك انتاج لابأس به لهذا الزيت في روسيا والصين ، وبمقدار أقل ، في كندا واسبانيا . ثم ان تقطير الفحم الحجري أمر معروف وقد استعمل فعلاً . ولكن البترول الحاصل يكلف غالياً ، وطرائقه الفنيـــة ليست على مايلبغي ، فضـلاً عن أن النتـاج ليس من النوع الجيد ، من حيث أن نسبة الكبريت فيه كبيرة .

– وهنالك مشاكل لم تحل في نطاق هذه الطريقة في استخراج البترول ، من ذلك التخلص من النفايات الناشئة عن التقطير .

– وأخيراً ، ورغم ارتفاع أسعار البترول ، فان استثمار النضيدات والرمال البيتوفيلية ، وتقطير الفحم الحجري ، لايبدو مقبولاً من وجهة نظر التكاليف .

– ان استثمار النضيدات ، ورمال البتومين والفحم الحجري ، لايبدو معقولاً إلا إذا استمرت أسعار البترول في الارتفاع . ومع ذلك تبقى هنالك جملة المشاكل الفنية ومشاكل النفايات ، مما يحول دون استثمار واسع للمناجم الأعظم غنى ، والموجودة أكثر ماتوجد في الولايات المتحدة (كولورادو ويومنغ) وكندا .

إلا أن الاقتصاد العالمي يملك في هذه المناجم طاقة قابلة للاستخدام عندما يحتاج الأمر اليها ، أي عند الضرورة القصوى .

وبالجملة ، فان الخوف الكبير من نقص البترول ، يمكن استبعاده ، ذلك أنه حتى إذا ظل الاستثمار متسارعاً ، فان مالدينا من الاحتياطي البترولي ، يكفي العالم ، في أقل الدرجات ، لمدة خمسين سنة على الأقل . فمن العبث ان نخاف من هذه الناحية .

ومع ذلك فإن طمأنينة الخبراء لاتكفي لتهدئة مخاوف السياسيين . ذلك ان التوزع الجغرافي الخاص للاحتياطي البترولي يحمل على الخشية من تضاؤل التموين ، تبعاً لسياسة بعض البلاد المنتجة .

توزع الأحتياطي
وتموين البلاد المستهلكة

ان نظرة بسيطة الى صورة التوزيع الجغرافي للثروات البترولية ، تتيح لنا ان نلاحظ الملاحظات التالية :

– إن أكثر من نصف الاحتياطي (٥٤٪) يوجد في منطقة جغرافية محدودة جداً ، هي الشرق الأوسط ، ولا سيا على مدار الخليج العربي . وتملك السعودية خمس الاحتياطي المعلن .

– إن أكثر من نصف الاحتياطي (٥٦٪) في يد البلدان العربية التي لايمكن لسياستها البترولية ان تكون بمنأى عن خلافها مع اسرائيل .

— تلك الولايات المتحدة احتياطياً هاماً ، في الظاهر ، أي مايقرب من خمسة مليارات من الأطنان أي ٥,٥ ٪ من الاحتياطي العالمي المعلن ، ولكن هذا الاحتياطي ضئيل ، بسبب كبر حاجات هذه الدولة .

— والاتحاد السوفييتي ، هذا البلد الوحيد الذي يملك من البترول مايكفي حاجته.

— وباختصار ، وبغض النظر عن الاتحاد السوفييتي ، فان الاحتياطي ، من البترول ، موجود في بلاد قليلة الحاجة إليه ، على حين أن البلاد الشديدة الحاجة إليه ، لاتملك منه إلا القليل القليل .

وقد نشأت مشاعر الخوف من عدم التعادل بين الحاجات والاحتياطي . وقد ضاقت هيمنة الشرق الأوسط بعض الشيء منذ عدة سنوات ، ولكن من المحتمل ألا تتأثر تأثراً محسوساً خلال العشرين سنة القادمة .

ومن المفيد أن نحلل سياسة كل من البلدان المالكة للبترول ، لكي نرى الى أي حد نستطيع بحق ان نحذر أو لانحذر من نقص البترول . ونحن هنا نميز ثلاث مجموعات من الدول : الدول المنتجة في العالم الثالث ، والدول المنتجة المستهلكة ، والاتحاد السوفيتي .

١ — إن سياسة بعض دول العالم الثالث المنتجة للبترول ، تمثل تهديدا جدياًبالنقص التموين في البلاد المستهلكة .

ولقد بدأت سياسة تضييق الانتاج ، في ليبيا عام ١٩٧١ ، وتبعتها في ذلك دول كثيرة منتجة . وجاءت حرب تشرين فأضافت اليها لوناً سياسياً لم يكن موجوداً من قبل .

وعلى حين ان كل البلاد المنتجة للبترول كانت حتى عام ١٩٧٠ تحث الشركات على زيادة الانتاج ، فان ليبيا ، مع مجموعة من الدول الأخرى التي حذت حذوها ، قد حدت الانتاج في نسبه السابقة ، ثم عادت فحدت منه . ويعلل هذا الموقف بعدة أسباب :

منها إن الادارات البترولية في هذه الدول ، أدركت ان الانتاج الفوضوي من حقولها ، سيعرضها وسرعان مايعرضها للنضوب مبكر ، ويحرمها أرباحاً جدية .

وهكذا فان ليبيا التي قفز انتاجها في فترة قليلة من عدد قليل من الاطنـــان الى مايقارب الـ ١٦٠ مليون طن ، عرفت أن ذلك لم يتم الا على حساب الاستثمار المعقول لمدخراتها البترولية. وقد شعرت بعض الدول بهذا التبذير، كما شعرت الحكومة الامريكية خلال الحربين العالميتين ، بمحاذير الاستثمار الفوضوية للآبار التكساسية . وعلى ذلك فان تحديد مدى الاستثمار لم يكن لأول وهلة إلا رد فعل على خطر المبالغة .

يضاف الى ذلك بعض الاعتبارات المالية . وأول ذلك أن ارتفاع أسعار البترول قد حمل الدول المنتجـة (أوبيب O. P. E P) مابين عامي ٧٠ — ٧٢ أرصـدة ضخمة من العملات الأجنبية. واتضح لهم أنهم يحصلون على أكثر منها بزيادة سعر البرميل الواحد بدلاً من الاكثار من عدد البراميل .

وفي الوقت نفسه ، كان التضخم النقدي ، ومشاكل العـالم المالية ، قـد اوضحت محاذير الاحتفاظ بارصدة ضخمة من النقد ، وكانت هذه المحاذير أكثر من الفوائد المأمولة. وتبدو هذه المحاذير اكبر مايكون لدى الشعوب القليلة السكان، والتي لا مجال فيها لتوظيفات كبـيرة . فاذا وظفت الارصدة في المصارف ، تعرضت الهزات النقـدية وخسرت من قيمتها الكثير .

وعلى الرغم من ان اتفاقـات جنيف قد حمت الدول المنتجة من آثار التقلبـات النقدية ، فان ليبيا ، ثم الكويت والعربية السعودية ، قد شعرت بلا ريب بان من الافضل لها أن تبقى ارصدتها هذه بترولاً تحت الارض ، بدلا من دولارات فوقها ، او أن تقول انها ستفعل ذلك وبهذا كانت تدعم قوتها في المفاوضات ، مرتفعة بقيمة بترولهـا ، تبعاً لندرته ، او التهديد بهذه الندرة .

وهذا الاغلاء لقيمة البترول كان هدفاً سهل التحقيق بالنسبة للدول المنتجـة ، لا سيما وأن الطلب على البترول يظل قوياً . بل انه ازداد من ٨ ٪ الى ١٠ ٪ في كل عام ، فضلا عن أن الدول المنتجـة ترى ان ثمن البترول لا يزال رخيصاً بالنسبة لكثرة الطلبات . وقد جاءت ازمة البترول عام ٧١ ، اولا، وعام ٧٣ ثانياً ، فكشفت لها عما تتمتع به من قوة وسلطان على الدول المستهلكة التي يتعلق كل اقتصادها بهذا البترول؛ لا سيما وأن الفحم الحجري آخذ بالتضاؤل ، وأن الطاقة النووية لا تزال بحاجة الى سنين كثيرة قبل أن يكون في وسعنا الاستفادة منها .

ويضاف الى هذين العنصرين ، الفني ، والمالي ، عنصر آخر يلعب دوره لدى الدول العربية . وهذا العنصر هو النزاع في اسرائيل الذي برز بقوة في حرب ٧٣ فأسبغ على مشكلة البترول طابعاً سياسياً جـديداً ينعكس في وجهين مختلفين ، اولهما أن البترول « سلاح » يمكن استخدامه ضد الدول المعروفة بتحالفها او عطفهـا على اسرائيل ، ان هذا البعد السياسي يزيد من قدرة البلاد العربية على التفاوض ، عندما بدأت اتفاقـات طهران وطرابلس لعام ١٩٧١ توضع موضع الجدل. ذلك أن بالامكان دون حجب البترول او تقليص انتاجه .

وقد مرت سياسة حجب البترول او تعليقه ، تاريخياً ، بالمراحل التالية :

ففي عام ١٩٧٠ ارغمت ليبيا الشركة الامريكية الغربية المستغلة على تخفيض انتاجها تخفيضاً شديداً. ثم عم ذلك على سائر الشركات . فخفضت ماتنتجه ليبيا من ١٦٠ مليون طن عام ٧٠ الى ١٣٢ عام ٧١ ، ثم الى ١٠٥ عام ٧٢. ولقد لعبت تدابير ليبيا هذه دوراً حاسماً في الاسراع بقبول اتفاقات طرابلس وطهران عام ٧١ .

أما الكويت فقد قررت تحديد سقف انتاجها بما انتج عام ٧٢ .

لكن الدول العربية قررت عام ٧٣ ، خلال حرب تشرين العربية الاسرائيلية انقاص انتاجها بمعدل ٥ ٪ كخطوة اولى ، على أن يخفض الانتاج كل شهر بمثل هـذا المعدل على الاقل ، مادامت اسرائيل تحتل الاراضي العربيـة وقد ارفق هـذا التدبير بوقف شحن البترول الى بعض البلدان ، ولا سيا هولندا وامريكا .

وما لبثت الدول العربية أن عادت عن تدابيرها هذه، ورفعت الانتاج الى مستواه السابق ،وأباحته الا للدول العدوة . ولكن الانذار كان شديداً . وادرك الجميع ماستكون عليه الحال لو اوقف البترول ايقافاً تاماً ، او هبط انتاجه بنسبة كبيرة . ولا ريب أن الدول العربية لمست فوائد هذا الدرس . وكذلك وعت الدول المستهلكة نتائجه تمامـاً . وهكذا فانـه على الرغم من توافر البترول ، فان سياسة تقليص الانتـاج ، او حجب البترول كلياً او جزئياً ، كانت لها آثارها الضخمة على تموين اوروبا الغربية واليابان ، وهما الزبائن الطبيعيين لبلاد الشرق الاوسط . فاذا اوقف تسليم البترول ، كليـاً ، او جزئيا ، الى هؤلاء المستهلكين ، فان ذلك امر جديد لا نستطيع منذ الآن تقـدير كل نتائجه . وعلى ذلك فان كبر الاحتياطي من البترول ليس ضماناً للبلاد المستهلكة ، اذا كان الوصول اليه محدداً ، ان لم يكن ممنوعا .

والمشكلة التي تطرح الآن هي أن نعرف ما اذا كانت البلاد المستهلكة تستطيع التعويض عن البترول منها من قبل بعض منتجيه في مناطق اخرى من العالم .

٢ – ان اكتشاف كميات كبيرة – من البترول – في المناطق التي تقع في دائرة البلاد المستهلكة ، لا تكفي لطمأنة هذه الا بدرجة محدودة .

فلقد تتابعت اكتشافات البترول على مقربة من البلاد العظيمة الاستهلاك. ومن ذلك اكتشاف البترول في البحر المتجمد الشمالي الكندي ، في آلاسكا وفي بحر الشمال . ولكن هل غير هذا كله من حاجة البلاد المستهلكة ، كأوروبا واليابان ، اولاً ، ثم الولايات المتحدة ، ولو بدرجة ادنى ، الى مناطق الشرق الاوسط ؟

أما فيما يتصل بكندا وآلاسكا ، فان المكتشفات ، رغم أهميتها ، لم ترد على أن أبقت الاحتياطي الأمريكي ثابتاً ، أو منعت تدهوره . ويقدر هذا الاحتياطي بـ ٦ – ٧ مليارات من الأطنان .

واهم المكتشفات في الوقت الحاضر ، هو الذي عثر عليه في بحر الشمال ، ولقد كان من شأن هذه المكتشفات أن ضاعفت ست مرات رصيد أوروبا الغربية من البترول . وقد قفز هذا الرصيد من ٣٠٠ مليون طن الى ١٠٧ مليار طن . وهنالك من يقدر الاحتياطي الممكن بـ ٧ مليارات طن . ومنذ العام ١٩٦٤ ، وهو التاريخ الذي تم فيه أكبر سبر جدي ، تضاعفت المكتشفات . وبعد أن اكتشفت آبار منطقة ايكوفيش Ekofish ، الواقعة في شمال النروج ، ظهرت آبار جديدة ، ولا سيا في منطقة البحر البريطانية .

ولكن عمق الآبار اولاً ، وبعدها عن الشاطىء ثانياً ، وشروط العمل الصعبة في بحر الشمال ثالثاً ، كل ذلك قد أرغم الفنيين على تحسين أساليبهم الفنية . ولكن استخدام الأساليب المتزايدة الكمال ، ينعكس على كلفة الاستثمار . اضف الى ذلك أن لطول مدة العمل قبل بدء الاستثمار الفعلي – وتعادل هذه من ٤ – ٦ سنوات – وكذلك ، مدة استهلاك المنشآت ، بالتالي – أثراً في هذه الكلفة . إن كلفة السبر والتنمية تعادل خمسة أو ستة أمثال ما هي في الأرض .

ويقدر رجال البترول أنهم سيوظفون أو سيظلون يوظفون من عام ١٩٨٠ ما بين (١٠٥ – ٢) مليار ونصف المليار أو ملياري دولار سنوياً في مشاريع استثمار البترول الغربي .

ومهما يبالغ في تقدير بترول بحر الشمال ، فانه لن يغطي حاجة أوروبا الغربية ، إلا بصورة هامشية بصورة عامة ، ولو أن هذه الصورة تتغير من بلد لآخر . ففي المدى المتوسط ، نلاحظ ان النروج والدانمارك وبريطانيا ستحصل على كميات هـامة من حاجاتها . أما البلاد الاخرى فستكون حصتها قليلة . وحتى اذا فرضنا ان التوظيفات اتت ، وان العمل سار على ماينبغي فلن تحصل اوروبا على اكثر من ١٥٪ من حاجاتها، عام ١٩٨٠ .

إن معجزة بحر الشمال لن تحمل الطمأنينـة فيما يتصل بتموين غرب اوروبا بالبترول ، ولكنهـا تخفف من تبعيـة الغرب للشرق الأوسط ، التي بلغت الآن حداً اعظمياً . فاذا جاء عام ١٩٨٠ بمـا يعد به فان تبعية اوروبا ستظل قائمة فيما يتصل بأكثر من نصف حاجاتها من الشرق الاوسط .

الثروة البترولية في الاتحاد السوفيتي، وانفتاح الاتحاد السوفييتي على الغرب، ينبغي أن يساعدا كبريات البلاد المستهلكة على الحصول على جزء من حاجاتها البترولية ، هناك .

ان من الشائع القول : ان احتياطي الاتحاد السوفييتي من البترول ضخم جداً . ولكن ذلك امر لا يمكن التحقق منه وتتحدث الارقام المعلنة عن وجود ١٢ مليار طن، اي عن ١٢٪ من المدخرات العالمية . ولكن الاحتياطي الممكن ، تبعاً لسعة الاراضي ، ولا سيما في سيبريا الصعبة والمتجمد الشمالي ، يرفع من قيمة هـذا الاحتياطي . غير ان الآبار القديمة في باكو وشمالي القوقاز تشرف على النفاد . وبالمقابل فان كلفـة الآبار الجديدة في المناطق الصعبة ستكون عالية جداً .

وعلى كل حال فانه ينبغي لهذا الاحتياطي الهام ان يكون من مصادر البترول الممكنة بالنسبة لأوروبا الغربية . ومن المعروف ان السوفييت وافقوا على امداد بعض مناطق اوروبا الغربية بالغاز الطبيعي ، وينبغي ان تعمم هـذه السياسة على البترول . ويبدو ان الاتحاد السوفييتي ، في حرصه على تنمية موارده ، وسبر اراضيه ، ومعرفة ثرواته ، مستعد لقبول معونة الشركات البترولية الغربية . الا ان هذه ستطلب ضماناً ، تطول مدته حتى يتسنى لها المغامرة بأموالها ، وحتى تستطيع الحصول على كميات منتظمة من البترول . وقد بدأت أسس هذه السياسة تتضح ، ولكن تنفيذها الفعلي ، يدخل في اطار سياسة الانفتاح على الغرب وتطوراتها ، مما لم يتضح بعد . ويبدو أن هنالك مخاوف غير قليلة مما يمكن للاتحاد السوفييتي .

مراجعة نقدية لعدد «طه حسين» من المعرفة

الدكتورة نجاح العطار

في رده على رفيق العظم يقول طه حسين : « لا يزال كثير من العلماء المعروفين في الشرق يسبغون على التاريخ الاسلامي صفة من الجلال والتقديس الديني أو الذي يشبه الدين ، تحول بين العقل وبين النظر فيه نظراً يعتمد على النقد والبحث العلمي الصحيح . فهم يؤمنون بمجد القدماء من العرب وجلال خطرهم وتقديس مكانتهم ، وهم يضيفون إليهم كل خير وينزهونهم عن كل شر، ويصفونهم بجلائل الاعمال ويرفعونهم عن صغائرهم . وهم يتخذون ذلك قاعدة من قواعد البحث ومقياساً من مقاييس النقد. فأما النقد التاريخي من حيث هو نقد علمي ، فأما النظر الى الناس من حيث هم ناس ووصفهم بما يمكن أن يوصف به الناس ، وتحليل أخلاقهم وعاداتهم كما تحلل أخلاق الناس وعاداتهم ، والملاءمة بين هذه الاخلاق والعادات وما اكتنفها من الظروف

والأحوال فذلك شيء قلما يفكر فيه هؤلاء العلماء أو يلتفتون اليه ، ولكني أخالفهم في الرأي وأرى أن مذهبهم في التاريخ غير مستقيم ، وأنه خليق أن يتغير وأنه سيتغير بدون شك ، بل أنا أرى أكثر من هذا .. أرى أن هذا المذهب ، مذهب تقديس السلف وتنزيهه عن الصغائر ، مذهب اسباغ الدين على التاريخ ، طور من أطوار التاريخ لا بد أن يمر به . وقد خضعت لهذا الدور أمم أخرى غير العرب فكتب مؤرخوها كما يكتب الأستاذ رفيق العظم ، ورأوا في الآباء والأجداد ما يرى في قدماء العرب . »

في هذا الرد تكمن الفكرة النواة التي سينطلق منها طه حسين في منهجه النقدي . وعلى أساسها سينحتي ، وسط دهشة وغضب واستعداء الفكر المحافظ في مصر والعالم العربي أواخر الربع الأول من هذا القرن ، ماتواضع عليه العقل المتحجر من « تقديس السلف وتنزيهه » ، باذلاً في سبيل تجديد الفكر العربي جهداً دؤوباً سيستغرق عقوداً من حياته ، سعياً للانتقال بنفسه - هو المثقف الذي خرج من بيئة محافظة وتمرد عليها - وبمواطنيه « من المفاهيم الجامدة والخرافات والأوهام وضيق الأفق الى الحياة المستنيرة ، داعياً بكل قواه للانفتاح على حضارات المجتمعات المتقدمة والتعرف إلى طرق جديدة في العيش والتفكير والعمل » .

وإذا كان طه حسين قد أراد ، في صرامة الموقف الذي اتخذه في فجر حياته وتطرفه ، أن يضرب كتلة الجليد للتبلد العقلي بعصا ثائرة ، ويقدم نفسه ، في الريادة التي تتطلب التضحية ، شهيداً حياً يلقى الأذى ويتحمل العنت في سبيل أن يزحزح عنا جبل الموروث ويجعلنا نعامله على أساس النقد لا التقديس ، فقد علمنا - ونحن حراص على ما تعلمناه - ألا نقدس أحداً ، ولا ننظر إلى أشياء الراحلين نظرة الإغضاء بحكم الحرمة التي للاباء في أعناق الأبناء .

غير أن عدم التقديس شيء ، والاستصغار - ولنقل بعبارة ألطف الاستسهال - شيء آخر ، فمن حق طه حسين علينا ، رائداً ومعلماً كبيراً لاجيال متلاحقة ، أن ندرسه باحترام وموضوعية ونظرة نقدية بعيدة عن العبثية اللفظية والاتهام المتجني والاستصغار الوصفي ، كما ورد في بعض مقالات « المعرفة » « في عددها الخاص عنه ، وخاصة التهمة بالقرنسة التي أطلقها عليه الأستاذ سهيل عثمان ، وصفة « المرحوم » الاستهزائية - وقد تكون غير مقصودة - التي لاحقه بها الاستاذ يوسف اليوسف من أول مقاله عن الشعر الجاهلي الى آخره .

الحق أن طه حسين رائد كبير في ميدان الثقافة ، وقد أحسنت « المعرفة » — وكذلك مجلات عربية رصينة — في تخصيص أعداد منها وملفات احياء لذكراه ولدراسة معطياته الأدبية والفكرية العظيمة في ظروفها التاريخية التي كانت فيها .

والحق أن عالم طه حسين هو من السعة والغنى بحيث تصعب الاحاطة به في دراسات تضمها مجلة . وقد أصاب الدكتور علي سعد في قوله بمجلة « الآداب » (آذار ١٩٧٤) أن من يرود «أن يلم بمعظم آثار طه حسين، في جولة واحدة ، لا يملك نفسه من الانسياق فيما يشبه الدوار أمام هذا العالم المتكامل من الأفكار والرؤى والأحاسيس والذكريات والتجارب النفسية التي لا حد لشمول آفاقها وعمق أغوارها وجدتها وغناها وصدق النبرات الانسانية التي لاتنقطع عن الرنين داخلها » .

إن الباحث في طه حسين كالباحث في عالم واسع سعة مدى الظن ، فهو مضطر أن يقرأ الخمسين ونيفاً من الكتب التي وضعها ، وهو مضطر فوقها إلى قراءة ما كتب حولها — وهذا كثير جداً — بحيث يدركه الدوار إن لم يقتنع بجانب من جوانبه المتعددة، ويعرف ان هذا الجانب ، على أنه الجزء ، فهو ذو علاقة وشيجة بالكل ، وأن هذا يقتضيه أن يفصل ويحلل ويقيم ، وأن يرى إلى القسم الذي اختص به رؤية شاملة ، مركزة على محورها ، متواصلة مع المحاور التي تتصل بها ، وأن يثق أن ما يتناوله في دراسته يحتاج إلى كتاب ، وعندئذ يرضي نفسه وقراءه لأنه يكون قد قال ما عنده ، ولم يغلق المسألة ليقول انتهى البحث فيها .

ولقد سهلت « المعرفة » الأمر على السادة الكتاب بتقسيم البحوث، وسهل الكتاب على أنفسهم بما التزموه من إطار بحثهم ، مقتصراً كل منهم على الموضوع الذي يعالجه، وان شذ بعضهم على هـذا التمركز ، فرغب أن يستعرض حياة طه حسين ونتاجه في دراسة واحدة كما فعل الأستاذ سهيل عثمان .

على أن الأبحاث جميعها ظلت تفتقر الى الشيء الأساسي ، وهو الامساك بالطرف التاريخي والمناخ الاجتماعي والفكري اللذين جاء طه حسين خلالهما ليلعب ذلك الدور البارز الذي ترك في حينـه دوياً اشار اليـه المتنبي في قوله « كأنما تداول سمع المرء أنمله العشر » .

ان أخذ عصر طه حسين في الحساب ليس عملاً تقليدياً ولا مجانياً يمكن الاستغناء

عنه أو الاكتفاء بالاشارة اليه في سياق البحث . فالعقد الأول من هـذا القرن الذي شهدت نهايته بداية تفتح الرائد الكبير كان عقد ارهاص بفترة تاريخية مضطربة عالمياً ، فيها ذلك الاحتكاك البالغ التوتر ، والنضال البالغ التجذر الذي سيأذن ليس بحرب عالمية شاملة في منتصف العقد الذي يليه ، بل بانبثاق ثورة اكتوبر الاشتراكية التي ستغير خريطة القوى والمفاهيم ، والثورة العربية المتوجّة للنضال ضد العثمانيين ، وبفترة مضطربة في مصر ذاتها وهي تحت السيطرة الانكليزية ، وفي العالم العربي الموزع الى مناطق نفوذ . وسنرى طه حسين متأثراً بذلك الاضطراب ، ميسامراً الى التحول في في انتمائه الفكري ، حتى اذا عاد من فرنسا بعد حصوله على الدكتوراه ، كانت ثورة ١٩١٩ قد بدأت في مصر ، وكان مناخ ثقافي جديد قد بدأ يظهر ، وكان له شرف الريادة فيه ، حاملاً لواء الثقافي الثوري في دعوة الى العلم والمعرفة والتجدد العقلي ، دعوة وجد فيها المصريون والعرب صورة العصر في تطلعه الى العبور من الحياة القديمة الى الحياة الحديثة ، عبر تجربة الامة العربية وهي تتلمس سبيلها للخروج من سيطرة الاستعمار والتخلف والتقليدية الفكرية المستحية .

ونحن نجد وصفاً لذلك العصر المضطرب القلق الشامل الى زحزحة كابوس عصور الانحدار ، في هذه الكلمات التي وردت في دراسة الاستاذ كامل زهيري بعنوان «طه حسين رحالة ومتهم» في العدد الخاص الذي أصدرته مجلة الهلال (فبراير ١٩٦٦) : « .. إنه فريد بين كتاب عصره ، لانه جمع التناقض التي تمر بالامـــة نفسها ولانه عايشها ، وذاق وعانى من الدراسة التقليدية الضيقة في الكتاب وصحن الازهر ، كما تلمس الجو « غير العقلي » في القرية ، بأعلى الصعيد ، وفي أزقة القاهرة ، ثم تقلبت حياته ، فتذوق مايسمى بالمنهج الفكري وتذوق رفاهية الذوق المصقول ، وانتقل من حي الطاعين الى السوربون فاذا به وهو الحريص على ألا تضل خطاه لا يضل ولا يتعثر ، لأنه امسك بزمام عقله في كل هذه الرحلة الشاقة التي تصور رحلة الامة نفسها .. بل ونستطيع أن ندعي أن طه حسين هو أصدق صورة لهذا العصر الذي انقضى بين الحربين العالميتين .. العصر الذي ارتطمت فيه تيارات فكرية ووجدانية عارمة وكانت مصر تبحث فيه عن كيانها وتلوح أمامها مسالك عدة وطرق متفرقة . وكان طبيعياً بل وحتمياً ، والأمة تولد وتنقب عن أصلها ، وفي جـــذور تاريخها الطويل المتراكم أن تدور المناقشات ، الخاصة والمتوجسة والحامية حول الشرق والغرب ، والقبعة والطربوش ، والحجاب والسفور ، والقومية

المصرية والقومية ، العربية وفكرة الأمـة في نظر الدين وفي نظر القومية ، والفصحى والعامية ، وقدرة الحضارة العربية بالنسبة لحضارات الانسانية ، وعلاقة هذه الحضارة بأوروبا وحوض البحر الأبيض المتوسط وبتراث الاغريق والرومان ، وطرق التعـليم ووسائل الحكم ، ودور الأزهر والجامعة المصرية ، وأثر التربية الدينية ومهمة التعليم الزمني أو المدني وغير ذلك ..وقد كابد طه حسين كل ذلك بنفسه ، وجرب هذه المسالك المتعددة ، ومن هنا كان عناؤه تجريبياً ، لم يتوفر لكثير من معاصريه على هذه الصورة التي تجمع بين الأزهر والسوربون .. ولهذا فانه لم يستقر على نظرية معدة سلفاً ، أو نظرة جاهزة كفته مؤونة البحث ، إنما عانى بنفسـه مهمة البحث عن كل ما يعتقد أنه الصواب في كل هذه القضايا التي كانت تشغل أذهان أبناء مجتمعه » .

إذن دراسة طه حسين ، حتى في حيز القمم الواحد من تشكله وإبداعه ونشاطه، لا يمكنها أن تغفل هذا العصر المضطرب القلق الذي وجد فيه ، وهذا الأثر الذي تركه وسط ذلك الاضطراب والقلق كليهما . ومن الانصاف القول ان دراسات عدد «المعرفة » حاولت جاهدة أن تقدم أثره هذا ، لكنها قدمته خارج إطار عصره ، أو في غير أخذ هذا العصر بكلية عوامله في حسابها .

إن ثورته على تقديس القديم تفجرت من تصوره المنهجي الذي نرى خطوطه في رسالته الى رفيق العظم ،وهو تصور شاع في دعوته الثقافية والفكرية والسياسية كلها، ومن بدهيات المنطق أن نضع هذه الدعوة موضعها من العصر ، وأن نضعها موضعها من الاعتبار في أي دراسة نتوفر عليها ،مقدرين ذلك العناء الذي تحمله في سبيل الدفاع عنها وطرحها على رأي عام متخلف ، متكتل على الجمود ، مساق بالأوهام ، يرتبط ارتباطاً اعتباطياً متمكناً بالنظرة التقليدية التي تمجـد في الانسان الزمن الخالي ، ولا تراه إلا من خلال موضعاته وصيغه ومفاهيمه الممعنة في الانقطاع عن تيار الجديد في الدنيـا .

لقد غدا صاحب هذه الدعوة ملكاً للتاريخ الان ، بعد حياة عريضة في مجـال الثقافة والفكر والسياسة ، وصار الدارسين أن يتناولوه بالتحليل والدرس بعيداً عن التأثرات الشخصية أو هواجس العلاقات اليومية التي قد تذهب ببعض الموضوعيـة ، وتستدعي أحياناً هجاء غير مبرر أو مديحا غير مبرر أيضاً .

ولئن كانت الدراسة حول الأحياء تحرج الدارس فنياً لأن الحي قابل لاستمرار العطاء ، وقد يكون ما يعطيه فيما بعد أقرب الى تحديد نموذج فكره وشخصيته ومدى إسهامه في الحياة الفكرية أو الأدبية أو الفنية في بلده ، مما يحول دون الرؤى الواضحة في تناوله ، ويجعل النظرة الكلية المحيطة بالنتاج ، التي تتناوله في إطار الشمولية المستوعبة لعمق المرحلة والرجل والعطاء ، ولعملية الابداع ذاتها نوعاً واتجاهاً وحصيلة أمراً صعب المنال إن لم يكن مستحيلاً — لئن كان ذلك كذلك ، فان هذا لا ينطبق على طه حسين الذي رحل عنا وأصبح تراثه الفكري ملكاً لنا .

ومن هنا فان عطاءه الذي امتد على أكثر من نصف قرن قد غدا قابلاً للمناقشة ، مطروحاً دونما أسوار ، وصار بامكاننا ضمن الحدود التي رسمها هو في موضوعية ترتبط بأرض الواقع ، أن ندرسه محايدين غير متأثرين بالصخب الذي كان ، وبالمعارك التي دارت ، أو بالاجلال السطحي الذي يرفض النقد ، ولا يدرك أن النقد الموضوعي هو جزء من الاحترام الحقيقي الذي يحمله الدارسون للفكر الانساني أولاً ولذواتهم ثانياً .

لقد شغل طه حسين معاصريه حياً ومايزال يشغلهم ميتاً ، وربما لم يحظ أحد من معاصريه الكتاب — على كثرة ماكانت الحياة الفكرية والأدبية خصبة في مرحلته — بمثل ماحظي هو به ، فقد كان مفكراً ومربياً لاجيال ، وتتلمذ عليه الكثيرون من العاملين في الحقل الثقافي ، وفخروا بهذه التلمذة على اختلاف في اتجاهاتهم ونزعاتهم ، وسلموا له طائعين بالريادة ، ولو مات أحد غيره في ظرف مثل ظرف تشرين لما وجد من ينعاه على الصورة التي تم بها نعيه ، ولما كان له هذا الاحتفاء بذكراه ونتاجه ، لها الذي أوجب كل ذلك التكريم ، والرجل في سنيه الأخيرة مريض شبه منعزل ؟ انه تكريم يرتبط دون شك بالقيمة التي يمكن أن يمنحها الفكر والقلم لانسان أخلص للفكر والقلم واستنفد حياته في خدمتها مناضلاً على اكثر من صعيد ، في معركة مع التخلف كانت مصر وسواها من الدول العربية تخوضها منذ نهايات القرن الماضي ، ومطالع هذا القرن .

وإذا كان هذا الدور الذي لعبه طه حسين لم تدرس كل أبعاده ، ولم يتفق كثيرون على مدى خطورته وعلى حدوده وأطره ، فقد كان في اللاشعور الكامن للمثقفين والقراء الذين تتبعوه إحساس بضخامة ماصنع حتى ولو لم ترتسم في أذهانهم صورة واضحة له .

وليس القول بأن دعوة طه حسين ترتبط بالنبذ للتقديس في النظرة إلى التراث والسلف إلا نصف الحقيقة ، نصفها الآخر ، المكمل ، هو كشف كنز هذا التراث وإجلاؤه وتقريبه من الشباب وتحبيبه اليهم ،وعلى هذا فان تلك الدعوة تتلخص بأنها « التحديث في إطار من الأصالة » ، مع استخدام الشك طريقاً إلى اليقين وتحكيم العقل والمنطق في تحليل الأفكار المتوارثة .

وبهذا التحديد فان ثورته لم تكن ثورة جارفة مدمرة . كانت عقلانية أراد بها إحداث التطور بالتعقيل والمنطق والصلة بالحاضر دونما إجحاف بالماضي . . ومفهوم الحداثة هذا لايتجلى في إيمانه بالمنهج العلمي فحسب ، وفي إعادة النظر بالتاريخ على ضوء منه ، وفي بنية المجتمع التي لم تعد قابلة للاستمرار على شكلها القديم ، بل بتشميل صيغة التحديث مجال اللغة والأسلوب أيضاً . فاذا كانت اللغة هي الفكر مصاغاً ، فتحديث اللغة بالضرورة تحديث للفكر والعكس صحيح . وفي اللغة بين مرحلتين ، احداهما تمت إلى التخلف وقصور التعبير أو الانفعالية الهشة المرتكزة على الالفاظ ، والأخرى تيامن الى امتلاك الفكر والمعرفة واللغة المطواعة للتعبير عنها ، تبرز قيمة هذا التطور الذي أصاب اللغةوالأسلوبفيجعلهماأداة جاهزية للتعبير الجميل البسيط المستوفي.

ومن أجل أداء رسالته هذه ، بالأسلوب الذي وجده الصق بالجمهور ، انطلق في خطوات التطوير والتحديث،هذه إلى عالم العلوم الإنسانية دون تقيد بالماضي أو بحدود الأرض ، ليجعلها في متناول القراء ، يغذي فيهم حركة الحياة المندفعة إلى أمام ، ويكسر لهم ومعهم كل أطر الجمود التي استقرت عليها حياتهم . وقد يدهش القارىء أن يرى هذه الغزارة في المؤلفات ، وهذا التناول الواعي لتاريخ العرب وحضارة اليونان وقيم الدين والفلسفةوتراث الأدب وقضايا التربية ،الذي يقيم في كل مجال قواعد تصلح ركائز لتطور أفضل، وتسهم في عملية التثقيف التي هي طريق عملية التحديث .

ولم يكن طه حسين وحده في خط التطور المتقدم . كان هناك تيار بدأ يتشكل ، غير أن زخمه قد تجمع في فكر طه حسين وفي انتاجه ، وبرز في خط الثقافي والسياسي والتعليمي على السواء ..

وبصفته مناضلا عنيداًوصلباً ومتمرساًفي النضال فقد استطاع أن يتابع الشوط إلى نهايته في الحدود التي ارتآها ، مما خلف لنا تراثاً ضخماً هو وثيقة مرحلة ما بين الحربين العالميتين من هذا القرن .

وقد يتفاوت تقديرنا لما ترك طه حسين من آثار ، وقد يكون بعض ما تركه ضعيفاً عاجزاً عن الاستمرار في حياتنا الآن ، غير أن الأثر لا يحكم عليه الا ضمن مرحلته ، ولا يعزل عن ظروفه الموضوعية والحياتية في محاولة تقييمه ، والا كان ما يصنع تجنياً على الحقيقة والتاريخ ..

ووسط هذا الانتاج الضخم الذي خلفته المرحلة تبقى بعض أعمال طه حسين صوى على درب الحضارة علت وطورت وجسدت روح العصر المتقدمة ، وانتصرت على التيارات المتردية ، وظلت حتى الآن مراجع للدراسة الواعية ، ولاختراق أعماق التاريخ ، ويكفي أن أذكر الفتنة الكبرى على سبيل المثال .

أعود الى عدد « المعرفة » الذي تناول جوانب من طه حسين ومن حياته الفكرية تعرف به وتقرب بعض نتاجه من القراء ، وتحاول أن ترصد أصولاً من فكره ، أو أن تحمل عبء مناقشة بعض ماطرح من مفاهيم .

قدم رئيس التحرير للعدد بايجاز مركز ، مشيراً الى أن الدراسات لا تنطلق من موقف التعصب لطه حسين ، وأنها تضعه « أمام النظرة النقدية التي لاتخلو من الصواب » وهذا كلام تقييمي للدراسات ، بعضها على الأقل ، التي لم تتعصب له لكنها تعصبت عليه ، وحبذا لو ترك الأمر في شقيه لحكم القراء .

تحية إلى روح طه حسين : فريد جحا .

تلي ذلك التحية التي وجهها الأستاذ فريد جحا الى روح الفقيد ، معتبراً اياه « رمزاً انسانياً خالداً في حياته الأدبية والسياسية والاجتماعية » دونما افصاح ، ولعل الكلمة لا تحتمل ، لتشكل هذا الرمز وصيرورته ، مكتفياً بهذا التعميم: «وقدم - لنهضتنا الفكرية - آثاراً نقلت الفكر والأدب العربيين من ظلمات عصور الانحدار الى آفاق القرن العشرين وأنواره » وهذه دعوى - على فرض صحتها - عريضة جداً ، لأن دور طه حسين فيها كان الريادة ، والرائد يشق الطريق ، ومع الآخرين يعبده للنقلة التي أشار اليها الكاتب ، والتي ماتزال بحاجة الى كثير من الجهد للاكتمال .

المقال مدرسي الى حد بعيد ، ومقاربته للموضوع سريعة ولاتدخل ضمن مقاييس النقد ، فمن غير المعقول أن يتحدث اليوم دارس لأديب ما عن أسلوب « التوازن

والايقاع والتكرار والترادف » أو عن « الاطناب والجرس الحلو » ، في هذا التوزيع البلاغي القديم ضمن اطار من الاحكام العامة .

إن أفق طه حسين يستدعي الموضوعية والاعتدال وليس الغلو أو الاطناب في التمجيد وإسباغ صفات الخلود . غير انني لا أود أن أظلم الكاتب ، فقد أراد هو لمقالته أن يكون ، « تحية مفعمة بالعطر ، متواضعة أشد التواضع ، نضمها طاقة من زهر ، إكباراً لروح طه حسين » وحبـذا لو صيغت التحية كلها بهذا الرفيف الذي قطعه الاستعراض المتعجل للحياة وللانتاج في تداعي الخواطر والتعليقات .

طه حسين : ذكريات ومواقف ـ د. شكري فيصل

« ذكريات ومواقف » للأستاذ الدكتور شكري فيصل قطعة أدبية تحمل الكثير من أنس الذكرى وحلاوة الصداقة ، ولكنها تميل إلى الوصف العام وتحجم عن النظرة النقدية . تكتفي بالألماح الدال في ملامسة الأمور الشائكة أو التي يستشم من ورائها ريح النقد ، وهذا أمر مفهوم ، فالدكتور كان تلميذاً لطه حسين يرتبط به عاطفياً ونفسياً ولا يستطيع في ذكراه الأولى أن يكف الشجن أو يوقف سيل الذكريات ، مع انه من افضل المؤهلين للبحث في أدب طه حسين ، وعساه يفرغ لتناوله في دراسة مطولة .

طه حسين رائداً وظاهرة ـ سهيل عثمان

تستوقفنا ـ وتضنينا ـ بعد ذلك الدراسة المطولة (٢٦ صفحة) للاستاذ سهيل عثمان عن « طه حسين رائداً وظاهرة » التي ينطلق فيها من مصادرة أولى مستعارة من الكيمياء تتحدث عن عملية « مزج » تلف شخصية طه حسين في كل أبعادها الفردية والعامة عبر محاولة استقرائية سردية يتبدى فيها هذا المزج في الكلام على أدب طه حسين « بين الأصالة والاقتباس من الغرب » ، دونما توثق واستقصاء ، لأن كاتباً ما ، على حد تعبير الأستاذ عثمان ، لو أراد « أن يستقصي جميع الأمثلة عن مزج طه حسين بين الأصالة والاقتباس لضاقت به الصفحات » .

إن هذا التصـور الخاطىء لشخصية طه حسين وطبيعة فكره يتجاهل أشياء أساسية ارتبطت بالمرحلة التي عاشها ، وبطبيعة نشأته الأولى ودراسته والاتجاهات التي اتخذها فيما بعد ، والصراعات التي خاضها . وهذا التوزيع المنهجي يجعل من طه حسين

إنساناً مزدوج الشخصية ، مريضاً بما يشبه الانفصام ، يتعايش في شخصه عالمان منفصلان انفصال الزيت عن الماء . ذلك أن ما يسميه الكاتب « بالمزج الحضاري » كان في ذاته جزءاً من عمليـــة التحديث التي حمل عبئها بالشكل الذي كان يفهمه آنذاك ويحمل لواءه ، مع رغبة أصيلة في الحفاظ على الهوية الحقيقية المنتمية إلى التراث في أوج زهوه وعنفوانه .

ثم إن العلاقات الفكرية والتفاعلات الثقافية وعمليات المزج التي تتم على صعيد المجتمع أو في حياة الأفراد لا تتحدد على هذا الشكل . فالمرحلة التي عاشها كاتبنا كانت تمثل بداية التنوير وتبـــدل المفاهيم ، ولم يكن غريباً أن تبـــدو توفيقية من نوع ما ، وبدرجات متفاوتة لدى بعض المتنورين ، لكنها في حقيقتها ، لم تكن توفيقية أبداً ، وإن كان منطلقها نزعة إنسانية أدت به إلى الدفاع عن الطبقـــات المضطهدة ، كما في كتابه « المعذبون في الأرض » ، بغير ما ارتكاز الى ايديولوجية معينة ، وخاصة الايديولوجية الاشتراكية التي يأس إليها دون أن يعتمدها .

وإذا تقبلنا بشيء من التسامح هذا المنطق الكيميائي من الأســـتاذ عثمان ، فإننا لا نستطيع بحال من الأحوال أن نتقبل ثوب الاتهام الذي يخلعه على الكاتب كحصيلة لمصادرة المزج التي يتساق ، بسببها ، إلى القول في الصفحة ٣٩ : « إن شروط البحث الموضوعي تحملنا على ألا نتجاهل السؤال الذي يحوم حول إلحاح طه حسين على المزج الحضاري مع إعطاء قيمة كبيرة للجانب الغربي من المزيج ، والسؤال هو هل كان الرجل يصدر عن قناعة داخلية بأن خير قومه يكمن في هذا الاتجاه أم كان مدفوعاً من بعض الجهات التي لا يهمها أصلاً خير مصر والعرب ولا العالم الاسلامي بل تهمها مصلحتها ، وأن تكون الأمور لدى هذه المجتمعات ضامنة لتلك المصلحة ؟ »

وفي الصفحة (٤٠) يكشف عن هؤلاء الدافعين فاذا هم الفرنسيون الذين كانوا يستعمرون البلاد العربية ، ثم يمعن في الاتهام في الصفحة (٥٠) فيتناول زوج الفقيد وكأنها كانت مدسوسة عليه لخدمة أغراض بلدها فيقول : « .. وظل وفياً لهـــا بعد ما ألفت اليه الحيـــاة بكثير من مفاتيحها ، ولعلها زادته ميلاً إلى فرنسا والحياة الفرنسية والثقافة الفرنسية ، وكانت ســـفيرة لفرنسا فعالة لدى العرب عن طريق مرافقتها العميد أديبهم » !

وهذا الاتهام لطه حسين بالارتماء في أحضان الثقافة الغربية - والفرنسية خاصة - ليس جديداً، فقد سبق خصومه واتهموه به، «مع أنهم - كما يقول الدكتور فؤاد زكريا، الآداب آذار ١٩٧٤ - لم يقدموا مجتمعين إلى ثقافة الأجداد قدراً ضئيلاً من الخدمات التي قدمها لها طه حسين. . الذي كان، منذ أوائل هذا القرن، يخوض معركة تدور حول السؤال: هل نعترف بالثقافة الغربية أم لا نعترف؟ وهل نجعل العقل مرشداً لنا، أم نسلم قيادنا للخرافات والغيبيات؟ وكان المفروض، بعد أن انقضى من هذا القرن ثلاثة أرباعه، أن يرتفع مستوى السؤال، وأن تدور المعركة على أرض أوسع أفقاً، ولكن المشاهد أن السؤال لا يزال هو السؤال، والمعركة لا تزال تدور على أرض يسكن العقل منها ركناً قصياً، ويمرح الجن والشياطين والمردة والأرواح في ساحاتها طولا وعرضاً»

وطه حسين نفسه، الذي يتهمه الاستاذ عثمان بعمالة الفرنسيين أو الغربيين والشعور بالنقص تجاههم والاسفار لهم، رد على هذا الاتهام في كتابه «مستقبل الثقافة في مصر» فقال:

«إن الواجب الوطني الصحيح، بعد أن حققنا الاستقلال وأقررنا الديموقراطية، انما هو أن نبذل من القوة والجهد ومن الوقت والمال لنشعر المصريين أفرادا وجماعات أن الله قد خلقهم للعزة لا للذلة، وللقوة لا للضعف، وللسيادة لا للاستكانة، وللنباهة لا للخمول، وأن نمحو من قلوب المصريين هذا الوهم الشنيع الذي يصور لهم أنهم خلقوا من طينة غير طينة الاوروبي، ومنحوا عقولا غير العقول الأوروبية.

«كلا إنما خلق الناس جميعاً ليكونوا سواء في الحقوق والواجبات، ولكن الناس يطغى بعضهم على بعض، ويجب أن يهدم هذا الطغيان، وأن نكون نحن من هادميه.. ونحن حين نشرع القوانين وننشىء المدارس وننشر العلم وننظم الاقتصاد ونستعير النظم الديموقراطية من أوروبا إنما نسعى الى شيء واحد هو تحقيق المساواة التي هي حق طبيعي لابناء الوطن الواحد جميعاً . .

«يجب أن نمحو من أنفسنا أن في الأرض شعوباً قد خلقت لتسودنا، ويجب أن نمحو من أنفسنا أن في الأرض شعوباً قد خلقت لنسودها».

«نحن في حاجة إلى قوة الدفاع الوطني،. ونحن في حاجة إلى استقلال اقتصادي، ونحن نريد الاستقلال العلمي والفني والادبي .. فاذا كنا نريد هذا الاستقلال العقلي

والنفسي الذي لا يكون إلا بالاستقلال العلمي والأدبي والفني فنحن نريد وسائله بالطبع، ووسائله أن نتعلم كما يتعلم الاوروبي لنشعر كما يشعر الأوروبي ونتصرف الحياة كما يصرفها.

« نريد الحرية الداخلية وقوامها النظام الديموقراطي، ونريد الحرية الخارجية وقوامها الاستقلال الصحيح والقوة التي تحوط هذا الاستقلال ..

«إن التعليم الأولي الالزامي ركن أساسي من أركان الحياة الديموقراطية الصحيحة، بل هو ركن أساسي من أركان الحياة الاجتماعية ».

هذا هو طه حسين من خلال فكره وأدبه ومواقفه المعروفة بالنسبة إلى التعليم ونشر الثقافة حينما ولي وزارة المعارف في مصر ؛ وكان ينبغي لدارسه أن يورد هذه الحقائق، أو يمسك عن الاتهام إن لم يتعب نفسه في تقصيها .. فالذي يقول ما قاله طه حسين عن الاستقلال والديموقراطية والثقافة والتحرر لا يمكن أبداً أن يخدم قضية الاستعمار ولا الثقافة الاستعمارية، ولا يكون متحيزاً لوجهة نظر الأعداء، ولا تأثراً لها.

ويستمر الكاتب في تغذية هذه الاطروحة التي قدمها حتى يحكم الطوق على رقبة الضحية ، ثم ينتقل بعد ذلك الى معالجة الجرح الذي أحدث بابراز جوانب الاستقامة في حياة الرجل ومظاهر التوفيقية في تاريخنا .

ومع ان لطه حسين آراء كثيرة قابلة للمناقشة وخصوصاً ما ارتبط منها بالمنحى القومي خطأ للعرب، غير أن هذا لا يمنع أن نرفض هذه الادانة السياسية له والتي لاتثبت على محك واقعه في مجال العمل أو الكتابة . لقد كان طه حسين من دعاة الانفتاح دون شك، وقد أحب أن يتجاوز طبيعة المجتمع الذي يعيش فيه في تلك الآونة فلم يوارب ولم يلجأ إلى التقية، ولم يحاب الذين يعتقدون أن التراث لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولو لم يمس المقدسات لما أثار كل هذه الضجة، ولتقبل بعض المعترضين عليه وجهات نظره .

يقول الاستاذ عثمان (ص ٣٩) : « وصاحبنا مازج في تصوراته الوطنية، فالعصر في نظره عصر الاوطان والقوميات . . . ولعل تلكؤه في الصعود من الوطنية المصرية إلى القومية العربية ناتج عن تأثره بالرأي الغالب على الباحثين الغربيين في فترتي تكوينه وحيويته القصوى » .

وكي لا نظلم الرجل كان يحسن أن نطرح ما أوردنا آنفاً، كما كان يحسن ان نطرح

آراءه الدالة على مواقفه العامة ككل ، قبل أن نديشه بسبب من افكار مسبقة كوناها عنه . اضف ان علينا ألا ننسى التيارات المتعايشة في السياسة التي كانت قائمة ، والتي لعبت دوراً خاصاً في طرح بعض الافكار او مساواة بعض منها . ولا أناقش بالطبع حديث تأثر طه حسين بالباحثين الغربيين في هذا المجال ، ولا أقف عنده ، فالرجل لم يكن على هذا المستوى من السذاجة السياسية .

إن مواقف طه حسين عبر حياته كانت في مجموعها دعوة تمرد على ألوان العبوديات التي صاغتها قيم المجتمع سواء على مستوى حياة الفرد أو الجماعة ، وقد يخالفه المرء بالرأي أولا يخالفه ، ولكنه يظل يرى نبتة الثورة في قلمه ووقفة الخروج على التحنيط ومحاولة تجاوزه ، بدءاً من الأطر الثقافية الى البنى الاجتماعية الى البنى السياسية ، كما أن علينا أن نتذكر أن مثل هذا الموقف في عصرنا الآن لم يعد يحتاج الى ما كان يحتاجه في مرحلة طه حسين .

وإذا ماوقفنا وقفة أقصر عند محاولات التحليل النفسي ودراساته وتوزيعاته ، وجدنا فيها كثيرا من العنت بالقارىء ، وحبذا لو أفاد الكاتب من معارفه في علم النفس ليطرح تصوراته من خلالها بشكل أبسط ، ودون محاولة لاقحام القراء في التقسيمات والتوزيعات .

وأخيراً فان مقال الاستاذ عثمان الطويل قد كان ، بعد كل ذلك التعداد لمعطيات طه حسين سلباً وإيجاباً ، قميناً بأن يستخرج أهم مرتكزاتها التي صارت الآن معروفة للباحث ، وفي رأسها الصدق مع النفس ومع القراء ، والتجريبية التي اضطرته إلى البحث عن كل مايعتقد أنه الصواب في كل القضايا التي اشغلت مجتمعه ، والوحدة التي تجمع أصعدة نشاطه الفكري والاجتماعي ، ونقاط الاستقطاب الثابتة في أبحاثه مثل أبي العلاء والفكر اليوناني والروماني ، والدراسات الاسلامية ، هذه التي تأرجح بينها طويلا لكنه كان يعود إليها مرة أو مرات كأنما ملكت عليه عقله وحسه جميعاً .

ايام طه حسين وفن السيرة الذاتية : حسام الخطيب

قد تكون دراسة الدكتور حسام الخطيب عن « أيام » طه حسين وفن السيرة الذاتية أفضل ماجاء في عدد « المعرفة » من ناحية التمركز حول الموضوع والسعي الى الاحاطة به ، فهو يرى في كتاب «الأيام» : «ظاهرة ذات شأن غير عادي في الأدب العربي

الحديث »ويحاول أن يسبر غور هذه السيرة باحثاً عن سر الاحتفاء الكبير الذي تلقى به الناس هذه المحاولة ، السر الذي يرده الى أن هناك وجهين لهذه القصة « وجهاً عاماً يتعلق بتجربة الإنسان الوجودية المطلقة ، ووجهاً خاصاً يتعلق بتجربة طه حسين الضرير الموهوب من خلال الظروف المعطاة » . ففي الأيام نجد « ذوب التجربة الانسانية في مواجهة الشرط الانساني ومحاولة تغييره لصالحها » كما نجد « هذا الموقف الاحتجاجي للمؤلف ازاء تجربته الصعبة » .

يناقش الكاتب أجزاء الايام الثلاثة ، طامحاً الى ابراز جوانبها الانسانية . ومأخذه الرئيسي عليها يلخصه على هذا الوجه « إن المرء يفتقد في (الأيام) هذه الجرأة في الخوض في صميم التجربة الفكرية أو الحياتية كما يفتقد التحليل . ثم إن المرء لايجد تعويضاً عن ذلك في التجربة الذاتية الخاصة للضرير الموهوب ، لأن طه حسين يضن علينا بالكثير ، ولا يمنحنا سوى نفحات طيبة وأصبحة تثير فينا الظمأ بدلاً من أن تروي الغليل » .

ويستند هذا المأخذ الى نماذج من النتاج القرني (ذكر بعضها الكاتب)، استطاعت أن تكون اكثر من قصة ذكريات وتخطت عتبة الحدث كي تبلغ الأغوار التي تسبر آفاق الكشف وتشف عن البنى الداخلية والعقلية للكاتب أو الفنان ، للانسان الذي مارس في حياته مايستحق أن يكون أساس عمل من هذا النوع .

قد تكون هذه الملاحظة على شيء من صواب ، فطه حسين لم يكتب في « الأيام » إلا سيرة ذاتية من خلال انطباعات وعاها الصبي الضرير وتجارب مرت به ، وقد كان في كتابتها ، كما في بقية فتوحاته الأدبية ، رائداً لم ينسج على منوال، ولم تكن له تحديات من سير ذاتية في الأدب العربي الحديث تحفزه وتسعفه في تصعيد هذا الفن الى ذروة اعلى .

أما القسم الثالث الذي كتبه بعد زمن طويل ، فقد كان أقل حميمية ولصوقاً بالنفس وترجمة عنها ، والسبب ، ربما ، خلوها من الاعترافات المشابهة لاعترافات الغربيين الشخصية والفكرية ، هذه التي ، في مجال الثقافة ، وضمن البيئة المصرية والعربية ، قد كانت تسبب حرجاً لصاحب السيرة لو خوض فيها .

لقد رسم طه حسين لوحات للصعيد المصري الذي عرفه عن قرب في أواخر القرن الماضي وبداية القرن الحاضر ، وعبر في هذه اللوحات بلمسات انسانية صادقة ومؤثرة ،

من أرضية ذلك الريف البائس وعقلية أهله وفساد التعليم الديني الذي كان سائداً فيه، وجو الخرافات التي كان ينشرها القيمون عليه، وحالة الفقر الرهيب الذي كان منيخاً على النـــاس ، كما رسم القاهرة وبيئاتها وخاصة بيئة حي الطاهين ،الفقيرة والساذجة والمستغلة من قبل الدجالين والمشعوذين .

والأسلوب الذي اتبعه طه حسين في تقديم لوحاته هو اسلوب الحادثة التي تترك للدلالة أن تخرج منها ، ولهذا كان التحليل سيفسدها ، كما افسدت عادة التعليم التي تمكنت منه سياق قصصه الأخرى بقطع هذا السياق أحياناً لتقديم آرائه هو .

ولقد كانت « الايام » وقصص وروايات طه حسين تحتاج الى وقفة أطول لولا ضيق حيز دراسة مخصصة لمجلة ، وإلا فان الكلام كان ضرورياً على تلك الصور والاجواء والشخصيات والوجوه التي رسمها وابتدعها في « أيامه » ورواياته ، وكان لاعتماده على الصوت في رسم شخصياته مجال لقول يبرز هذا الفنان الذي اعتمد حاسة السمع بعد أن تعطلت لديه آلة البصر ، كما تلاحظ الدكتورة سهير القلماوي .

ومما لاشك فيه أن « الايام » جديرة بكل هذه الحفاوة التي استقبلت بها ، والتي تحدث الكاتب عنها ، ومع كل هذه الملاحظات الفنية والانسانية القيمة التي أوردتها الدراسة ، ماتزال « الايام » تحتمل مزيداً من الدرس ، وماتزال تنطوي على أعماق لم تسبر بعد .

طـه حسين والشـعر الجاهلي ــ يوسف اليوسف

« طه حسين والشعر الجاهلي » للاستاذ يوسف اليوسف ، محاولة تجديدية في تطبيق المنهج الجدلي في مشكلة اتخذت يوم أثيرت أبعاداً حادة جداً ، وألفت فيها كتب كاملة استنفدت في ردودها اكثر مايمكن أن يطرح ، ثم تجاوز الواقع القضية ، وحل الزمن تعنت المتعنتين ، ومال بطه حسين نفسه الى شيء من الاعتدال .

قلت إن الكاتب رغب في أن يستخدم المنهج الجدلي ، وهو يرى « ان منهج ديكارت شديد التخلف بحيث يتوارى امام المنهج الجدلي » وهذا صحيح إذا ،اطبقنا هذا المنهج في مفهومه المادي ، اي ذاك الواقف على قدميه لا على رأســه ، المنطلق في تفسير الاشياء تفسيراً مادياً لا أثر للميتافيزيقا فيه ، ويخيل الي أن الكاتب ــ لحراجة الموضوع ربما ــ أخذ من المادية بطرف ومن الميتافيزيقية بطرف ، فتوكأ على الاثنتين .

هذه ملاحظة عابرة ولكنها أساسية ، فالقول « ان تحقيق نصر صغير على العدو لا يحتاج الى تحولات كبيرة (كماً ونوعاً) في المجتمع ، اما احراز النصر الساحق فيتطلب انقلابات جذرية تنقل المجتمع من حلقة الى حلقة ارقى » يظل مبهماً بعيداً عن التحديد الجدلي المادي ، ذلك ان النصر الصغير هو تراكم كمي سينقلب ، عند انفجار الانتصارات الصغيرة المتراكمة ، الى نصر نوعي ، وهذا الاقحام لهذه المقولات لاتتضح الغاية منه في الدراسة ، وعبثاً نبحث عن التطبيق المراد من وراء هـذه الاستشهادات بالنسبة للشعر الجاهلي .

ان محور دفاع الكاتب - وهو دفاع حار حقاً - عن الأدب الجاهلي ، اثباتاً له ، الحجة القرآنية يطرحها من وجهتي نظر متعارضتين ، وانظل على الحالين في صالح اثبات الأدب الجاهلي كما يرى الكاتب .

والبحث برمته يعيد الى الذهن جو الصراع القديم ، ويجعلنا نتساءل عن مدى مسؤولية ديكارت وحده ومذهبه في الشك عن أفكار طه حسين في تلك المرحلة . ان علينا ، انصافاً للموضوعية ، ألا نغفل مجموعة عوامل لعبت دورها آنذاك ، قد يكون ديكارت في جملتها ، ولكنه ليس مجملها . ثمة أبحاث كثيرة للمستشرقين طرحت هذا الموضوع وبشكل مماثل ومباشر ، ولعبت دوراً اساسياً في اثارة مشكلة كبيرة في ذهن طه الذي كان في اوج نفرته من السلبية السلفية ورغبته في تقرير منهجية علمية لم تكن أبعادها الحقيقية ولا وسائلها قد اتضحت في ذهنه بعد .

وفي مقارعة الكاتب له ، وبالمنطق الماركسي كما يرغب ان نفهم ، يعيدنا الى قضايا تاريخية ترتبط بأصل اللغة ومحاولة طه حسين اتخاذها بشكل متعسف حجة لتقرير آرائه ، او الى بعض الأسئلة التي طرحها على الشعر الجاهلي في محاولة لنفيه ، مثل السؤال عن مدى عكس هذا الشعر الوضع الاقتصادي آنذاك . ان طه حسين يطالب الشعر الجاهلي بأكثر مما يطالب به نفسه ، اذ لو طرحنا هذا السؤال على ادبه - وهو ليس بشعر - لوجدنا انه لايفعل ذلك ، ولا يعكس الوضع الاقتصادي الذي كان سائداً في مصر خلاله . ومحاولة عودة الاستاذ اليوسف الى شعر الصعاليك قبول مبدئي بطاب طه حسين المتطرف الذي يتناسى طبيعة المجتمع القبلي آنذاك . اما محاولة سلخ القيم الكريمة من المجتمع الجاهلي القبلي التي اتفق عليها الدكتور طه والاستاذ اليوسف ، وحجتها في ذلك ماجاء في القرآن الكريم من

ذم للطمع (ص ١٢٠) فمبالغة في الاستنتاج لايسوغها ماعرف تاريخياً عن الواقع الجاهلي والقيم التي كانت تهيمن على الاخلاقية القبلية .

ان بعض القضايا التي طرحها الاستاذ اليوسف ماتزال تحتمل الكثير من النقاش الذي ينفي فرضيات ويقبل فرضيات. من هذه مثلا قصة اللغة ، انتسابها او انتمائها ، واسلوب شيوعها وانتشارها وهيمنتها . ومن الصعب في قضية كبيرة كهذه وضع النقـــاط على الحروف في عجالة سريعة ، وكذلك حديث العاطفة الصادقة ومدى قدرتنا على فرضهـا حجة في اي نقاش ، ذلك ان تقدير هذا الصدق يخضع لعوامل كثيرة، وقد لايستطيعه الا قلة من النقاد المتمرسين الذين يتوفقون الى استخراج تلك العوامل .

وأخيراً فان الاستاذ اليوسف لايأتي بحجج جديدة ولكنه يقدم لبعضها تفسيرات وتحليلات جديدة ، ويكشف عن قدرة على الاستبصار جيدة . وقد يختلف معه القارىء في هذه الوجهة او تلك ، ولكنه يشعر ان بحثه مترابط ينطلق فيه من ارضية واضحة .

بقي أن نذكر أن مشكلة الشعر الجاهلي غدت الآن قديمة ، ردها التاريخ الى حجمها الحقيقي ، ولم تعد تلعب أي دور رئيسي ، وقصاراها ان تدرس كظاهرة في عملية التحديث التي كانت مستهدفة آنذاك ، بعيداً عن ضوضاء المناقشات الثائرة التي أيقظتها في الماضي ، مهما كانت الأسباب والمحرضات والعوامل الاجتماعية والسياسية البارزة على سطح المشكلة . ان مقاربتنا من هذا الأفق ترسم بعض ملامح التطور في مراحل التغيير والتحديث ، وهذا مالم يفعله الكاتب الذي عزل الظاهرة عن جوها ، وهدف الى نقض النقض بأي حجة توفرت .

طه حسين واسرار الليل – انجيـل فانيه

مقال « طه حسين وأسرار الليل » لانجيل فانيه ، قد نظلمه إذا حكمنا عليه عبر النص المترجم . إن شيئاً من الغموض يلفه ويحجب عن أرضيته الأساسية النور . وقد يكون جميلاً أن نتعرف الى الطريقة التي تنعكس فيها آدابنـــا المترجمة في نفوس الآخرين وأقلامهم ، غير ان هذا المقال لايصلح لأداء مثل هذه المهمة إلا بشكل غامض . يظل إيحاء في العنوان ، ويظل الرمز الذي أرادت الكاتبة طرحه مفهوماً عبر حديثها ، مقحماً الى حد بعيد ، ولا يشكل جزءاً واضحاً من المقولة التي يبدو أنهـا كانت تحاول طرحها . هناك تعاطف إنساني عميق بينها وبين طه حسين تبدى واضحـاً في أكثر من موضع ، غير ان ماجاءت به لايمثل خصوصية بالنسبة للأعمى ، وما أرادته من « أسرار الليل » أقرب الى ان يكون فكرة زئبقية تفلت منها كلما همت بالقبض عليها .أشار المترجم

الى أن النص كان شاعرياً الى حد بعيد ، ولذا فمن غير المستبعد ان تكون الترجمة قد أضاعت – بسبب من طبيعة النص الفرنسي – كثيراً من ظلالها وإيحاءاتها . وقد كنا ننتظر ان تكون عملية الإيغال الشعري في الأعماق أكثر شفافية وأكثر قدرة على ملامسة أبعاد من المشاعر الانسانية التي لايستشعرها المبصرون . مرة ثانية أقول إنه من الظلم ان نحكم على نص يعتمد الشعر والإيحاء والرمز من خلال ترجمة لن تكون مهما بلغت درجة أمانتها ، علامة كاملة على الأصل .

طه حسين والتيارات الفلسفية في فرنسا – وليد فستق

« طه حسين والتيارات الفلسفية في فرنسا » للسيد وليد فستق يعالج قضية أساسية وهامة ترتبط بالبنية العقلية لطه حسين ، إذ يترسم القاعدة الفرنسية الثقافية التي أسهمت إسهاماً كبيراً في تكوينه الفكري والثقافي والانساني ، ويجد لها مفاتيح ثلاثة في تأثر طه بديكارت ودور كهايم وسان سيمون .

المقال دون شك ثمرة جهد وعمل ، والجزء المرتبط بعلاقة طه بديكارت ودور كهايم معقول الى حد بعيد ، وهو يوسع من ساحة الرؤية في دراسة كاتبنا ، وقد يختلف الناقد أو القارىء معه في بعض ملامح الصورة ، وقد يرى فيها فجاجة أو مبالغة أو استغراقاً ضمن حدود فكرية معينة ، لكنه يجد أنها تسهم في تشكيل قناعات معينة في اطار عملية بناء طه حسين العقلي .

أما الحديث عن علاقة طه بسان سيمون او تأثير سان سيمون في فكره فينطوي على الكثير من التعنت وتحميل الاشياء أكثر مما تحتمل ، وهو بمثابة الوقوف عند العموميات الكبيرة في محاولة لإسباغ ثوب الخصوصية عليها . وما نسب من افكار طه الى سان سيمون في هذا المقال ، لايخرج عما كان يملأ الجو آنذاك من افكار عن الاشتراكية في اوروبا ومصر والعالم كله .

لقد كان اقرب الى المنطق والتحديد حين تحدث عن ديكارت ودوكهايم ، اذ تجنب تحميل النصوص والكلمات اكثر مما تحتمل ، ولم يقع في ماوقع فيه وهو يعرض لسان سيمون ، في محاولة لإعطاء العلاقة طابعاً فلسفياً .

ان علامة استفهام كبيرة ترتسم أمام القارىء حين يجد الكاتب مصراً على تأطير اصول التفكير الفلسفي لدى طه بإبرازه التأثير الذي مارسه هؤلاء العمالقة الثلاثة عليه .

فمجرد التحدث عن تفكير فلسفي لدى طه حسين هو تعميم واسقاط واعطاء ثقل لا يقره الواقع في حياة رائدنا الفكرية والثقافية .

ثمة أمر آخر أشير اليه هو أن السيد فستق قد اسقط ، وهو يتناول موضوعه من زاوية الفلسفة فحسب ، كل العوامل البيئية الاخرى الموجودة في حياة طه حسين ومعاصريه ، وفي حياة مرحلته . لقد عزل الظاهرة الفلسفية عن كل ماعداها ، وافترض أن الانسان يمكن أن يفتح في فكره صفحة بيضاء خالصة تتلقى التأثيرات الجديدة ، وهذا غير ممكن في اي محاولة جادة للفهم .

وسط هذه المحاولة لدراسة القاعدة الثقافية الفرنسية وردت افكار جانبية كثيرة يمكن أن تكون مدار جدل وأخذ ورد اذا ماربطنا مضامينها بطه حسين ككل، وبالتيارات الفكرية التي وجدها في بيئته .

أضف اليها اسئلة كثيرة يمكن أن تطرح في هذا المجال ولا يسهل أن نخضعها للتقريرية . من ذلك مثلا محاولة طه حسين اعادة النظر في التراث على الضوء الجديد ، وهل كان سببها تأثر طه حسين بديكارت فقط أم تأثره أيضاً ببعض ملاحظات الاقدمين ، في عفويتها الاولى ، واستجابته للمحاولات المباشرة التي كانت شائعة في وسط الاستشراق وكان لها مثلوها ، وبينها وبين محاولة طه شبه كبير .

التحديد المادي للتأثر بهذا الشكل يمكن ان يوضع موضع نظر ، ولا يمكن الجزم بصحته .

امر آخر مثلا يصلح قاعدة نقاش هو تفسير تراجع طه حسين عن موقفه من ديكارت ، فهل نعتبر ما اورده الكاتب من كلام طه (ص ١٠٠) موجهاً ضد ديكارت أم أنه اعادة نظر جدية بمواقف فكرية سابقة على ضوء ما املاه تطور فكر طه حسين في تفاعله مع ثقافة بيئته من جهة ، وخروجه عن دائرة التأثر بأبحاث المستشرقين من جهة اخرى ، اضافة الى دخول عوامل جديدة مع امتداد الزمن جنحت به نحو اعتدال في الاحكام لا يصل الى حد الحماسة المفرطة ولا الرفض المفرط ؟

أمر آخر اشد بساطة وارتباطاً بمواقف طه حسين الحياتية ، هو اتهامه بالتقية . ان تحفظه ضمن حدود قد كان وارداً ، اما التقية فأمر آخر ، واما سمته عن اشياء لا ترضيه احياناً ، او ميله عن الغلواء ، والتزامه نوعاً من الاعتدال ، قد يسمح له بحرية اكبر في التصرف، وقدرة اشد على التأثير ، وبالتالي التغيير، فموقف مفهوم . وعلى هذا الضوء

يمكن ان نقصر بعض تصرفات طه حسين التي لم يعد يجنح فيها الى التطرف ، بعد ان تجاوز غلواء الشباب ، واعتمد في عملية تغيير الواقع نوعاً من العقلانية .

الخطأ الكبير في هذا البحث ان صاحبه يفترض جهل القارىء بالأوليات ويملأ الهوامش بتعريفات معجمية لأشياء يعرفها الناس ، مما يسبب للقارىء ضيقاً وعناء كان في غنى عنها . انه يعرّف بماسينيون، مونبلييه ، ماركس ، نيتشه ، ديكارت ، جامعة السوربون ، ارسطو ، راسين ، ابن خلدون الخ .. ويغيب عن ذهنه ان الذي لا يعرف هؤلاء لا يمكن له ان يتابع بحثاً مماثلا لبحثه ، ولا يجد صبراً عليه .

* * *

بقيت كلمة اخيرة تقال في طه حسين ، هي انه كان يعي قيمة الفكر في التمهيد للثورة السياسية والاجتماعية ، ويعرف ان عدة هذا الفكر هي العلم المكتسب بالوسائل الحديثة ، وانه كان يرى البعد الاجتماعي للثقافة ، وما تتضمنه من ارادة التغيير في النظام الذي دعا الى اعادة النظر فيه ، بالاداة السياسية الصالحة لهذه الاعادة . رحبة كانت ميادينه ، وبالكلمة التي تنسرح على الآفاق المترامية وتأخذ بعدها الجماهيري ، في احاطة عجيبة ، وبسـاطة متناهية ، وشفافية واخلاص كبيرين ، اسهم في ترسيخ قيم جديدة كانت بداية طريق النهوض .

ترانا وفينا هذا الرائد الجليل حقه في عام ذكراه ، وقدمنا له بعض ما يوازي الذي اعطاه ؟

حسبنا ان نكون ، فيما حاولنا ، قد اثبتنا حرصنا على نشر القيمة الفكرية التي خلفها لنا ، القيمة التي لا نريد — ولم يشأ هو — ان نتحجر عندها ، بل ان نتجاوزها ، بعد ان سلحنا بروح هذا التجاوز من طريق النقد والتطوير .

طقوس

في ذاكرة المدينة

عبد الرحمن مجيد الربيعي

- ١ -

عندما رأيته أول مرة كان ذلك قبل عشرين عاماً . وكنت يومذاك صبياً ضامراً أرتدي بدلة رمادية ، البنطال قصير ، والأزرار لماعة صفراء ، وقد غادرت المدرسة مع أقراني بعد انتهاء دوام العصر ، ثم استقرت أقدامنا المهرولة عند دكان « مرزة » بائع التمر .

أعطاه كل واحد قطعة العشر فلوس . فأسرع « مرزة » ووضع حفنة من التمر لكل منا فوق ورقة جريدة ثم سكب فوقها « الراشي »(١) ورحنا نلتهم طعامنا هذا بتلذذ .

---

(١) الراشي هو عصير السمسم ويؤكل في العراق مع التمر او مع الدبس (عصير التمر) .

كان هذا شأننا كلما غادرنا المدرسة ، حيث نحتفظ بالمبلغ البسيط الذي تمنحه لنا عوائلنا حتى انتهاء الدروس لنستمتع بهذه الأكلة الشهية . ونمتص أصابعنا بعد أن نفرغ منها . وكنا نعلق على بعضنا أثناء الاكل . وربما تنتهي تعليقاتنا بشجار بسيط قد يتدخل فيه الآباء احياناً .

أعوامنا القديمة تلك تبدو الآن لذيذة جداً ، وقد اقترنت كل صورها بالعذوبة ، ولعلها بفعل براءة الطفولة الأولى التي كنا نعانق الاشياء فيها بنقاء ، ونأخذ الامور على عواهنها على عكس ما هي عليه الآن .

أما رؤوسنا فكانت غارقة في الحلم والمجهول ، رغم ان طفولتنا تلك حزينة حتماً ، وآباؤنا يقارعون بجلد ، ويحدثوننا عن العوز وشظف العيش . ولكن الأحزان زالت ، ولم يبق منها غير خيط من الفرح يومض في الذاكرة فيهدىء تعب القلب المستديم .

كان ما لفت نظرنا فيه حمرة وجهه وسدارته الجاثمة فوق رأسه الكبير بمهابة ، فوجدنا فيه مادة جيدة للتندر . وبدأنا نتغامز ونحن نتأمله بفضول . قال أحدنا :

— انظر سدارته وكأنها زورق غاطس .

فتمسقت حناجرنا الناعمة بالضحك . وتبعه آخر :

— أما وجهه فكأنه إلية خروف .

وانطلقت حناجرنا بالضحك من جديد ، فنكاد نغص بالتمر ، إذ يلتصق بلهاتنا سائل « الراشي » ، ويدفعنا الى السعال .

يصرخ فينا « مرزة » :

— هيا يا أولاد . دعونا على باب الله .

ويحذرنا :

— والله لن ابيعكم بعد اذا لم تكفوا عن هذا اللعب .

ولكنه لم يكن يهتم بنا . وكأن التعليقات ليست عليه ، ويظل يلتهم كمية التمر التي أمامه والتي تعادل ثلاثة أضعاف ما أكلناه .

وقد سمعت « مرزة » يسأله :

— كيف الشغل يا أسطة حميد ؟

فيتمتم :

— بخير .

ويضيف بلهجة اكتشف فيها اللكنة الأعجمية :

— ستكون المدرسة الجديدة في باب الشطرة من حصتي . رست المناقصة علي وسأباشر بصبغها .

ويتمتم « مرزة » من قلبه :

— الله كريم .

ونتركها في حديثها وننصرف مصفقين سوية :

— تمر وراشي من مرزة .

ويرددها أحدنا بصوت منغم . ويكتفي بالقول :

— تمر وراشي

فنجيب بصوت واحد :

— من مرزة .

آنذاك يكون الباعة قد تهيأوا للانسحاب من السوق . كما يبدأ بعض أصحاب الدكاكين بجمع بضاعتهم تمهيداً لغلق دكاكينهم ليتوزعوا بين بيوتهم ، وبين اداء صلاة الغروب في أحد المساجد القريبة . كما يبدأ بالتوافد على السوق باعة اللفت والحمص المسلوق والباقلاء وهم لا يظهرون الا في الليل ، حيث يمكثون الى ساعة متأخرة منه متدفئين بالبخار المتصاعد من قدورهم الكبيرة، وقد تجمع حولهم بعض العمال والقرويين ملتهمين ما في صحونهم بشهية . وقد يفكر البعض منهم بمغادرة السوق ودفع عربته في الأزقة القريبة وهو ينادي بصوت خاص معلناً عن بضاعته .

يومذاك كانت مدينتنا مشغولة بالحديث عن حادثتي قتل مترادفتين وقعتا في في اسبوع واحد . ولكن احداهما لا تمت للأخرى بصلة . الاولى شجار بين قرويين انتهى باستخراج احدهما خنجره وغرسه في بطن الآخر فتكومت أمعاؤه على الارض أمامه . والثانية مقتل قروية كانت تغادر قريتها كل يوم لتبيع اللبن في المدينة ، ولكنها غادرتها ذات يوم ولم تعد . وراح أخوها يبحث عنها أياماً الى ان وجدها في احدى الدور المشبوهة فاقتحم الدار ومزقها بخنجره .

وبعد انتهائنا من عبور السوق كانت هيئة أسطه جيد عالقة في ذاكرتي ،الرأس الكبير ، والسدارة ، والوجه الاحمر كآلية خروف .

- ٢ -

وبقينا نراه في السوق غالباً .. مرة على مقعد في مقهى « جعة » ، وأخرى في مطعم « صاحي » بائع الكباب ، وثالثة أمام احد الدكاكين . ورابعة يتمشى في السوق وقد وضع سيدارته تحت ابطه ، وترك رأسه الكبير حاسراً ، وراحت قامته المرصوصة تمخر في زحمة السوق بصعوبة .

وكان منظره المميز يجعل الكثيرين ينظرون اليه بفضول . ولعلهم يتساءلون في سرهم : من اين جاء هذا الاحمر المتورد الى مدينتنا ذات الوجوه السمراء المدبوغة ؟

ولكن الجميع كانوا يتعاملون معه باحترام . والتحيات تترى عليه في المقهى أو الشارع .

— كيف الصحة اسطه جيد .

— الله بالخير أسطه جيد .

وهكذا .

ولكنني عرفته عن قرب ذات يوم بعد أن عملت معه . ومــا زلت اتذكر كيف تم ذلك .

من رأي والدي ان المدارس لعب صبيان وهي لا تطعم ولا تغني ، وأن الرجــل هو الذي يجيد مهنة من المهن . وكان والدي وما زال حلاقاً ، وقد شرح لي انه لا يريدني أن اتعلم مهنته فهي متعبة ، والناس اذواق لا تستطيع ان ترضيهم مهما كنت بارعــاً . وقال ايضاً : ان المهنة الجيدة اليوم هي أن تكون صباغــاً للدور ، وستكون حالتك أفضل من البناء مثلاً ، لأن مهمتك تأتي بعد أن تهيء الوان الجدران في الصقائع ثم تضع السلالم المتنقلة ، وتبدأ بالطلاء وأنت تغني .

وقال أيضاً وقد اتفقت مع اسطه جيد على ان تعمل معه ايام العطلة .

— أسطه جيد ذو السدارة ؟

— نعم . هو بعينه .

— وهل تعرفه ؟

— انه صديقي ..

وأضاف :

— انا لا اريدك ان تترك المدرسة فأنت مولع بها . ولكني اريدك ان تتعلم المهنة فاذا فشلت في مدرستك الى صباغة الدور .

انت ترى الدنيا سوداء دوماً يا والدي .

— لو عشت حياتي لأدركت ما اعنيه ، والدي رحمه الله لم يعلمني شيئاً .

— والحلاقة ؟

— تعلمتها في الجيش . وعندما سرحت بعد انتهاء خدمتي أخذت احمل حقيبة الحلاقة وأطوف على حمار بين قرى الغراف لأحلق الرؤوس وأشذب الشوارب واللحى وكانوا يعطونني دجاجاً وبيضاً وسمناً مقابل حلاقتي لهم . وعندما جمعت مبلغاً من المال استأجرت دكاناً في المدينة، ومن ثم تزوجت امك، والحمد لله الذي رزقني بك وبأخواتك وقد عشنا ولم نمد ايدينا لأحد .

— ومتى ابدأ العمل معه ؟

— سيأتي عصر اليوم الى دكاني ، فقد مر البارحة ليحلق شعره ولكني أجلته الى اليوم .

- ٣ -

.. وعملت مع اسطه حميد . ولكنني لم آخذ العمل معه مأخذ الجد ، لأسباب متعددة اولها انه يدفع لي درهمين فقط في اليوم . وثانيها ان الرعاف انتابني عدة مرات إثر تنفسي لرائحة الطلاء النفاذة ، ولكنني برعت في مزج الألوان وخلال فترة قصيرة ، وقد سمعت أسطه حميد يقول لوالدي :

— انه بارع في مزج الالوان . عيناه تميزان بسرعة حتى الاختلاف البسيط في درجات اللون .

وحكى لوالدي ان البعض مصاب بعمى الالوان ولذا لا يصلح لمثل هذه المهنة .

— ولكنه لا يكف عن التفكير في المدرسة ؟

فقال اسطه حميد :

— هو اعرف بنفسه منا .

ولكنني تخليت عن العمل مع اسطه حميد ، فقد حدثني زميل لي انه يتاجر بالقناني الفارغة . وانه يربح حوالي نصف دينار يومياً . وعرض علي ان اشاركه . وقد قبلت العرض على الفور . وبدأنا نجوب شوارع المدينة وازقتها سوية ، ويحمل كل منا على ظهره كيساً . ونتناوب في الصياح داعين من عنده قناني فارغة ان يبيعها لنا وقد وضعنا لكل حجم من القناني سعرا ، اما ربحنا فثلاثة فلوس عن كل زجاجة، وكان الربح يدفعنا لمواصلة الجهد ، وكنا ندعو من كل قلوبنا ان يكثر عدد شاربي الخمرة حتى نشتري المزيد من القناني ويكون ربحنا اكثر .

وعندما انتهت العطلة وجدت انني قد جمعت مبلغاً لا بأس به استطعت ان اشتري به بدلة جديدة ، وقميصين وحذاء وملابس داخلية . واربعة ازواج جوارب .

— ٤ —

غادرت مدينتي بعد أن اتممت دراستي الثانوية ، وقد خيرت بين دخول الكلية الطبية ببغداد ، وبين الذهاب في بعثة الى لندن للتخصص بهندسة النفط .

وكان من رأي والدي ان اكون طبيباً ، وتخيل كيف ستكون عيادتي ، والقطعة الكبيرة التي تحمل اسمي واسم والدي . كما اكد على ضرورة ان اكتب اسم عشيرتي أيضاً حتى يفاخر بها .

ولكنني قلت له :

— لم يدر بخلدي ان اكون طبيباً في يوم من الأيام. ان رائحة المرضى والمستشفيات تبعث في نفسي الغثيان . ولذا سأسافر الى لندن .

وسافرت فعلاً ، وعدت بعد سنوات . وعينت مهندساً في أحد مصافي النفط ، وأعطوني داراً خاصة ومؤثثة ، وكان أول شيء فكرت فيه ان اذهب الى مدينتي ، وأن أرى والدي واخوتي ، لعل بينهم من يرغب بالمجيء معي لملء البيت الكبير الذي لا أستطيع مصافحة جدرانه وحيداً .

ملاحظة : قد يتبادر الى ذهن أحدكم سؤال لماذا لا اتزوج اذن ؟ واقطع الطريق على السائل وأجيب بأنني لم أفكر بالزواج وانه أحد مشاريعي المؤجلة الى عشر سنوات أخرى على الاقل . ولكنني عشت في لندن تجارب عظيمة ، أنا الشاب الخجول الذي عندما غادر مدينته ، لم يكن قد تكلم مع امرأة غير أمه .

لم أجد شيئاً قد تبدل في مدينتنا . ووجدتها كما تركتها ، الأسواق تفوح منها نفس الرائحة العطنة . ووجوه أصحاب الدكاكين لم تتبدل الا انها ازدادت كبراً . وبدا زحف السنين واضحاً عليها . أما والدي فقد ذبل وضمر ، وصار يسعل سعالاً خفيفاً ، ولم يخف حقده على حلاقي آخر زمان الذين تنكروا لأصول المهنة — على حد قوله — والذين صاروا يفرون زبائنهم بالعطور والدهون وواجهات دكاكينهم الزجاجية . ثم قال :

— لذا سأبيع دكاني وأسافر معك الى بغداد .

وقالت أمي :

— وأنا سأذهب معك .

والتفت اليها قائلاً :

— يامرأة لم اتحرر منك أربعين سنة .

فضحكت أمي وهي تردد :

— رجلي على رجلك خطوة بخطوة .

وفي المساء قادني أخي الى نادي الموظفين وهو يهمس لي :

— لاتقل انك لم تتعلم الشرب في لندن ؟

— لقد تعلمته ياعزيزي . أيرضيك هذا ؟

وقبلت دعوته بحثاً عن الوجوه الأولى التي فارقتها مايزيد على العشرة أعوام . وفي باب النادي رأيته .. ياللسماء .. انه اسطه حميد .

— ٥ —

قبل ان اتحدث عن لقائي هذا بأسطه حميد احب ان اروي وقائع الحفل الذي اقامه في بيته قبل اعوام لا اتذكر عددها . وذلك بمناسبة مغادرته المستشفى على اثر اجراء عملية جراحية في مثانته . ان احداث ذلك الحفل ماثلة في ذاكرتي لانها تمثل في قمة مزحه وزهوه .

كانت ساحة البيت الشرقي الطراز مضاءة ، وقد انتشرت المصابيح الملونة على هيئة خطوط مستقيمة ومتقاطعة بحيث ترصع كل سماء البيت . وقد صفت الكراسي في

الباحة حيث توزع عليها المدعوون الذين كان معظمهم من المسنين . أما نحن الصغار فقد انحشرنا بينهم ، هذا يجلس على ركبة ابيه ، وذاك وجدكرسيا او صفيحة فارغةفصعد فوقها . وثالث تسلق سلالم الدار وجلس على السطح مطلا على الباحة ومن فيها . وكل الذي اذكره اننا كنا فرحين ، وان فرحنا لا يوصف ، ونحن امام هـذه الطقوس التي لا علم لنا بها .

ملاحظة : لقد عشت لحظة انبهار مشابهة يوم صاحبت ابي الى حفلة عرس ، وقد جاء اهل العريس بفرقة من الفجريات . وكنت ارى لأول مرة نساء جميلات يرقصن امام الرجال ويزحن الكلفة معهم ويسمعن تعليقاتهم العارية برضى ويبتسمن لها . ولم اكن قد رأيت في الأفراح الا غلمانا يطيلون شعر رؤوسهم ويلبسون ملابس النساء ويرقصون في فسحة مفروشة بالسجاد تجمع حولها الرجال مصفقين او مغنين . بينما حمل احدهم الدربك وراح يضرب عليها ايقاعا سريعا جعل الراقص يتأجج ارتعاشا والتهابا في حمى الرقصة .

وجلس اسطه حميد على مقعد طويل بدشداشة بيضاء ناصعة . وقد رفع أطرافها. وتدلت منها ساقاه الضخمتان المشعرتان .

وكان يتقبل تهاني القادمين بسلامة الشفاء ، أمـا زوجته عزيزة فتطوف بين المدعوين بقامتها القصيرة المرصوصة ، وقد جعلهـا الكبر لا تتحرج بخلع عباءتها والدوران بدونها .

وجلس بجانبه حـاج معروف في المحـلة ، له اولاد عديدون يعملون في تصليح السيارات . وكان الحـاج يسحب أنفاسه ببطء ، وتبدو علاقته بالحيـاة على وشك الانقطاع . ويضع على رأسه كوفية بيضاء كورهـا وشدها من الخلف حتى تثبت . وبجوار الحاج جلس أفندي بدين فوق عينيه جثمت نظارة طبية ، وتبدو البلادة على وجهه الممتلىء بينما يرتخي كرشه أمامه وهو يطقطق حبات مسبحته ويهز رأسه اصغاء لحديث الحاج .

وفي الزاوية من باحة البيت جلست فرقة قراء المولد . وقد تربع أفرادها الثمانية على اريكتين متقابلتين ، وكان خمسة منهم عميان ، أما السادس فصبي مهمته النقر على

الدف الكبير . أما الاخيران منها شابان ، ولكن لها منظراً مهلهلاً . تمتد من ياقتي قميصيها عنقان هزيلتان تبدوان وكأنها قد التصقتا بجثتيها الضامرتين .

وعندما امتلأت باحة الدار أشار اسطه حميد لأفراد الفرقة لأن يبدأوا ، ونادى أحد الجالسين :

— توكلوا على الله واسمعونا أصواتكم .

وبدأ صبي الدف النقر بهدوء ، واستجاب أحد العميان الخمسة للنقر . وبدأ بقراءة مدائح تتحدث عن النبي ، وتحكي عن مآثره الكبيرة . وأخذ صوت الدف يخفت حتى كاد أن يتلاشى . بينما اندمج بقية أفراد الفرقة مع الصوت وظلوا يتمايلون انسجاماً .

وعندما فرغ من قراءة قصيدة المديح . أخذ يتغنى بطرب ، تنبه له ناقر الدف ، وأخذ يضرب بانشراح :

(روحي لأحمد رايده
لزياره قاصده)

وقد صب هذه الكلمات وفق لحن غنائي شائع ، وشارك أفراد الفرقة جميعهم بالغناء . وشاركهم أيضاً عدد من المدعوين الذين كانوا يبدون وكأن لهم معرفة بهذه الأغنية . وتمايلت الرؤوس واهتزت طرباً . أما نحن الصغار فكنا منبهرين لا نفقه السر ، وينظر أحدنا بوجه الآخر بحثاً عن جواب .

وعندما سألت والدي : لماذا يفعلون هذا ؟ أجابني زاجراً :

— اسكت . ليس هذا وقته .

وبعد ان انتهت الأغنية تلقف أعمى آخر الغناء . وبدأ بتلاوة قصيدة أخرى عن فضائل النبي . بينما كان أسطه حميد فرحاً ومزهواً وهو يتأمل القارىء تارة . أو يصدر أمره لأحد القائمين على الخدمة ومعظمهم من عماله ليوزع السكائر أو الماء على المدعوين .

وبعد مرور فترة كف معظم الجالسين عن الانتباه الكامل لصوت القارىء . وبدأوا يتحادثون ويتبادلون الطرائف والنكات . ولم يعد يصغي الا اسطه حميد وبضعة من عجائز مرضى ، وهم يطأطئون رؤوسهم ويثنون مع انتهاء كل مقطع .

ثم عاد الصبي لينقر على دفه اغنية جديدة ، تمايلت لها الرؤوس طرباً .

(فرحان أنا فرحان
بالنبي الهادي والقلب سرور
طه النبي العدنان
بس الله يدري
والقلب مسرور)

– ٦ –

أين مشهد الفرح القديم ذاك ، من مشهد اسطه حميد وهو في باب النادي :

حمل اسطه حميد وجهه المسن لينكفىء في هذه الوحدة الخرساء . شفته السفلى تتدلى ككيس من القيح وسط غابة من الشعر الرمادي الباهت . أما شفرة جبال الاناضول فما زالت مستمسكة بجبينه القديم وان تلاشى بريقها أمام مد التجاعيد والالتواءات .

وكان مغروساً تحت المصابيح الكهربائية المرصعة لمدخل النادي . سألت أخي باستغراب :

– أهذا اسطه حميد ؟

– هو بعينه .

– وماذا يفعل هنا ؟

– يستجدي .

– عجيب !

– ولماذا العجب ؟ انه يقف كل مساء هنا ماداً احدى يديه مستجدياً كما تراه . أما الأخرى فيرد بها تحية الرواد الذين يعرفونه . وقد يدعونه ليجلس على المائدة معهم ليثمل ويحدثهم عن ماض كاد يطمسه النسيان .

وأضاف شارحاً :

– وعندما يصبح عنده ربع دينار ينصرف ، فهو مبلغ يكفيه لليوم اللاحق . ان السكارى هم الوحيدون الذين يهتمون بأمره ربما لأنه سكير قديم . أو ان وضعه هو المصير الذي قد ينتهي اليه أي واحد منهم . على أية حال ان للخمرة أريحيتها عندما تدور في الرؤوس لذا يتعاملون معه بود .

وعندما اقتربنا منه أطلق من قلبه :

– يا الله !

والدي يعرف اسطه حميد معرفة مسبقة سيستمسك بقلبه نوع من ذلك الحزن المخيف ، وسيردد مع نفسه :

– سبحان مغير الأحوال .

وقد تملقت بذلك فعلاً . فما اكثر ما حدثني عنه والدي . وهنا أجد لزاماً علي أن أعيد جانباً آخر من تلك الأحاديث :

ذكر والدي ان اسطه حميد كان ذات يوم فارساً أشـــقر عشق الطراد بموت . ورفست سنابك حصانه . أحضان الأرض العارية ، وألقيت أمامه النقود معدناً وأوراقاً ولكنه كان يقتلها بلا حساب على موائد الخمرة والمقامرة .

ثم تزوج اسطه حميد من عزيزة المستخدمة في مستشفى المدينة (وقد رأيتها وتحدثت معها عدة مرات أيام عملي معه حيث كانت ترسلني الى بيته لأجلب له طعام الغداء في قدر أحمله على رأسي ، فقد كان لا يرغب في ترك العمل والذهاب الى بيته للغـــداء وإبقاء العمال وحيدين) .

وذكر والدي ان اسطه حميد كان يجهل من عزيزة أصلها وماضيها من هذه العادات التي كان سكان المدينة ومازالوا يعيرونها كبير اهتمام لاسيما في حالات الزواج . ولكن ماجمعهما انها هي الأخرى وحيدة ، وكانت تتفاهم بلغة عربية ذات لكنة أعجمية . وقد قال البعض انها ارمنية . وقال آخر انها من بقايا الجواري اللائي جلبهن رجالات العهد العثماني ، وقال ثالث ورابع غير هذا ، وكثرت التقولات الا أنها تصر على كونها بغدادية أصيلة . كانت متزوجة من قبل جندياً قتل عند الحدود فتشردت بعد موته .

ولكن سكان المدينة ظلوا يلقبونها بالارمنية ، وهكذا لم يفلح دفاعها ، وألصقوا هذا اللقب صدقاً وكذباً فكان بمجرد القول « الارمنية » يعرف المستمع من المقصودة به . وهو لقب استلطفته فيما بعد ورضيت به ، فقد نشأ لها كما نشأت ألقاب أناس آخرين. حملها الأجداد والآباء ومن ثم حملها الأبناء دون ان يتساءلوا : لماذا . ولو أنهم عادوا الى اصولها لربما عرفوا انها بدأت بنكتة او دعابة ثم اصبحت لصقة ثابتة فيما بعد .

وقد ذكر والدي انها كانت جميلة ، وذات جسد ابيض مثير . وعندما رآها اسطه حميد أول مرة جعلت الدم يغلي في عروقه . وأصابت منه مقتلا كما تقول الأمثال .

ولكن الأهم من كل هذا أن أسطه حميد ـ كما ذكر لي والدي أيضاً ـ لم يكن مجهول الأصل . ولقد حمل فيما بعد لقب زوج الأرمنية فهو واحد من سلالة السلطان عبدالحميد. وقد دخل المدينة وعاش فيها باذخاً بمجد جده ، وعندما تهاوت العروش ومضى مجد السلاطين بقي في هذه المدينة ، ولم ينسحب مع من انسحب . وأحب هذه الأرض بموت. وكل الذي تمناه أن يفنى ويدفن فيها ـ كما أخبرني والدي ـ ولاأظن أحداً يستطيع الجزم بأنه رأى اسطه حميد يغادر هذه المدينة الى مدينة أخرى ولو بسفرة قصيرة ، فقد تشبعت روحه بكل شيء وعظيم فيها ، ولسنا ندري لذلك سبباً ـ نحن سكانها الاصليين ـ وأن كان البعض يعزي هذا الى سحر دامغ تحمله مدينتنا ، ويضرب المثل بحالات عديدة عن غرباء دخلوها مرغمين ولكنهم لم يغادروها فيما بعد .

وأعرف أيضاً أن الكثيرين ممن غادروها ـ وأنا منهم في سنواتي اللندنية ـ ظلوا يحملون عنها ذكريات جميلة يرددونها بتلذذ صوفي رغم رداءة جوها . ورغم قذارة شوارعها. وكثرة مياه الغسيل وبقايا الاطعمة فيها . ورغم ان سكانها يرصد بعضهم بعضاً يمارسون فضولاً أبدياً لم يشفوا منه .

وعندما وقفت أمامه مد لي يده وقال :

ـ أعطني لوجه الله .

ومددت يدي في جيبي لاستخرج له قطعة نقود ، وكان بودي أن أسأله :

ـ أعرفتني .

ولكن أخي سحبني من يدي وأدخلني الى النادي .

- ٧ -

حول زواج أسطه حميد وعزيزة الارمنية أتذكر حديثاً لاحقاً رواه لي والدي بعد أن عدت الى البيت وحدثته عن المصير الذي انتهى اليه . وقد ردد والدي :

ـ وقل لن يصيبكم الا ماكتب الله .

ثم تابع القول :

ـ لو كانت عزيزة حية لربما كانت المسألة أهون ، أو لو كان له أولاد . ولكن الله سبحانه وتعالى لم يرد أن يترك له ذكراً في هذه المدينة .

ثم أقسم :

– والله لولا استمراره على شرب الخمرة لاويته الى بيتي ، والطعام الذي يكفي اثنين يكفي أربعة . ولكنه لم يتعظ بما أصابه .

ثم أوضح لي تأثير عزيزة عليه، وأخبرني أنها ترددت في قبوله زوجاً باديء الامر رغم أنه طرح الموضوع من زاوية معقولة . اذ قال لها مامعناه انها وحيدان وغريبان فلماذا لايتزوجان ؛ وقد أشترطت عليه أن يعمل فوافق على شرطها . وبـدأ حياته في صباغة الدور وكانت في الناصرية حركة بناء واسعة لذا أصبحت مهنة مربحة . ولكن انظر كيف انتهى بعدها .

وقال أخي يخاطبني :

– اذكر الله سألتنا عنه في احدى رسائلك من لندن .

ولم أستطع تأكيد ماقاله لانني كنت أكتب معظم رسائلي لعائلتي وأنا سكران حيث يتوقد شوقي الى وجوه أفرادها .

سألت والدي :

– وأين يسكن الآن ؟

أجاب :

– لاادري . كان يسكن جامع الشيخ حسن . ولكنه جاءه سكران ذات يوم فطردوه منه .

– بغداد –

أجزاء من سيرة عبد الله القلعاوي

قصة

جمال الغيطاني

« تقرير عام عن الأعمال القتالية للمجموعة السابعة » :

من المعروف أن جميع من تحدثوا عن هذه المجموعة أطلقوا عليها اسم « مجموعة القلعاوي » بل ان المتخصصين ، ومنهم بعض قادة الوحدات والقطاعات التي عملت من خلالها المجموعة ،وطياري الهيلوكبتر الذين اشتركوا في نقل الرجال ، كلهم لم يستخدموا الاسم الرسمي عند حديثهم عنها ، لهذا فاننا نميل الى الأخذ بتلك التسمية التلقائية التي رددها المواطنون أيضاً — فأعمال المجموعة لاقت صدى من نوع خاص بينهم — بغض النظر عن الاسم الرسمي المستعمل في المكاتبات السرية وخطابات الشؤون الادارية. وكما تفيد مصادرنا في الأرض المحتلة فان العدو أطلق عليها اسماً رمزياً هو « الفرقة

الخاصة » ومن الثابت أن معلوماته حول المجموعة مضطربة جـداً ، لم ترق الى مستوى اليقين من وجهة نظره ، ويرجع هذا الى أسباب عديدة ليس هذا مجال تفصيلها ، لقد اتسمت الاعمال القتالية بملامح خاصة ، وحتى نستطيع الالمام بطبيعتها لابد من اشارة أولية الى مسرح العمليات .

★ ★ ★

١ ــ نطاق العمليات :

جرت العادة والقواعد العسكرية على تكليف كل وحدة مقاتلة بمهمة معينة يحدد لها اطار معين يضم اهدافاً منتقاة للتعامل معها ، ينطبق هذا على كافة التشكيلات بدءاً من السرية الى الفرقة الى الجيش ، لكننا لا نجد هذا منطبقاً على مهام مجموعة القلعاوي ، يبدو قولنا واضحاً من الخريطة الضخمة لمصر والبلاد المحيطة بها والتي تحتل ــ حتى الآن جداراً بأكمله من غرفة القلعاوي ، صنعت هذه الخريطة من الجبس البارز الملون ، حملت دبابيس حمراء صغيرة فوق اسماء بعض المناطق بسيناء . كل دبوس يعني عملية تمت ضد هدف ، توجد مجموعة اخرى من الدبابيس الخضراء وهـذه تعني اهدافاً سوف تهاجم . من الخريطة يتضح ان مسرح عمليات المجموعة سيناء كلها ، وتجدر الاشارة هنا الى ان عدداً من ابرز الخبراء العسكريين الذين زاروا بعد الحرب وتوفرت لديهم بعض المعلومات ابدوا دهشة واعجاباً بالمجموعة ، ونورد فيما يلي تلك السطور التي كتبهـا الجنرال هاركريستيان ، رئيس معهد الدراسات الاستراتيجية والعسكرية ، الذي زارنا خلال الفترة القصيرة الماضية .

« . . . يبدو واضحاً ان تلك المجموعة من الرجال قد خلقت لنفسها قوانينهـا الخاصة ، اذ حطمت الكثير من القواعد العسكرية المتعارف عليها ، وللأسف غير متـاح الآن الاطلاع على ظروف تكوينها وعملها . . »

ونقول إن مجموعة القلعاوي هاجمت اهدافاً تقع في رأس محمد بأقصى الجنوب من سيناء ، وأهدافاً اخرى في بالوظة ورمانة شمال شبه الجزيرة ، في لسان التمساح ورأس العش، وسدر ، وأيالات ، وعلى امتداد منطقة الخليج . ويقول الذين عملوا مع القلعاوي ان الخليج لعبته ، وتتردد اقوال لم نذكرها كحقائق مفروغ منها ــ لأسباب عديدة ــ انه قام بعديد من المهام في مناطق مختلفة من العالم ضد العدو الصهيوني ، ليست بالضرورة

اعمال قتال ، انما تضم مهام استطلاع وتعقب بعض العناصر المعادية ويوجد عدد من البرقيات لدى أسرته وصلت في الأسابيع التالية ليوم الجمعة ١٩ اكتوبر ١٩٧٣ ، من فدائيين ، ومقاتلين من جنسيات مختلفة ،وقع بعضهم بالاحرف الأولى، واذا ما اتيح للمهتمين بسيرته مقابلةقادة الوحدات الذين واجهوا العدو منرأس العش شمالاً حتىمواقعنا المطلة على البحر الاحمر ، فانهم سيسمعون قولاًيتردد كثيراً « لقد مر القلعاوي من هناه اي انه استخدم المنطقة التي يرابط فيها التشكيل كقاعدة انطلاق . سيجدون انه عبر في توقيتات مختلفة . فمن نقطة معينة تقع في مواجهة لسان بحيرة التمساح عبر مع الرجال اربع مرات خلال فترة زمنية قصيرة ، عبر في الصباح ، في الغروب ، في الظهيرة ، في منتصف الليل ، اول ضوء وفي آخر ضوء ، ونظراً لاهمية شهادة هؤلاء القادة نورد فيا يلي بعضاً مما قالوه ، ومعظم هذه الشهادات جمعها رجال القلعاوي على اشرطة كاسيت صغيرة بهدف الاحتفاظ بها كوثائق .

* * *

يتحدث العقيد أركان حرب (م.أ.ع) قائد تشكيل مقاتل في منطقة البحر الأحمر :

... أتذكر هذا الوقت بدقة فالثواني والدقائق ذات أهمية خاصة ، بالضبط الساعة الثانية صباحاً وخمس دقائق عندما وصل القلعاوي ورجاله ، الليل عندنا مختلف لا يوجدأي مصدر ضوء صناعي على بعد عشرات الكيلو مترات ، لايبدو لامعاًإلاالنجوم وضوؤها الخافت وعددها الكثير . كل شيء يعمق صوت الليل حتى صوت البحر الغامض عندما يصطدم بالشاطيء الصخري ويرتد عنه ، يحوي تحذيراً . هنا يكتسب الصوت الآدمي العادي أبعاداً ودلالات . ان تسعل فهذا يشير انتباه الكائن والدوريات المتنقلة وجنود الملاحظة لهذا .. (فترة صمت) . اوشك الآن أن أستعيد الأصوات المحدودة الخافتة التي صاحبت مجيء عبد الله ،عدد الرجال أكثر مما قدرت ، وقف صامتاً ، لم يصدر أمراً بصوت عال ، يتحرك كل منهم وكأن ثمة اتصالاً خفياً يشدهم اليه ، كأنهم يقرأون في وقفته ، في استدارته . في عقد يديه أمام صدره تعليمة ما أو امراً معيناً ، أذكر وقع خطواتهم الخافتة ، يمرون أمامي ، لا تبدو منهم تفاصيل الا لحظات مارقة، يتجهون الى القوارب الراقدة في البحر والظلام ، كأنهم يتجهون لقتال الليل نفسه . يدخلون فيه ، سمعت الكثير عن القلعاوي ، لم أره ، هو أقدم مني بأربع دفعات كان

مجال الخلافة الخاصة جعلني لا التقي به . لست أنا انما معظم زملائي حتى زملاء دفعتي اذا ذكر أحدنا انه رآه فيقترن هـذا بعمل قتالي . اذا رآه أحدنا فيتبادر الى ذهنه خاطر لا يمكن نفيه .. الله ، ان القلعاوي مازال يعيش ، في هذه الليلة وقفت على مسافة متر واحد من القلعاوي . لم أسأله عن المهمة التي سيقوم بها الآن لأن من طبيعة أعماله السرية ، أو الطرق التي يسلكها في الناحية الاخرى ، مهمتي محدودة تغطية الرجال أثناء الابحار وتأمين عودتهم .. (صمت) أرى القلعاوي وكأنه أمامي ، عيناه تنظران في خط لا يحيد ، وجهه يتطلع الى أعلى باستمرار حتى لو اطرق ، يبدو كأنه يقف دائماً في وضع صفا ، حذاؤه جلدي ، ثيابه مشدودة الى جسده ، سترته مليئة بجيوب عديدة. هو مصمم هذه الثياب ، تتسع لأكبر عدد من القنابل والذخيرة وأدوات القتال ، عندما اتجه الى نقطة الابحار لاحظت شاباً قصيراً خفيف الحركة يتبعه . صوت المجاديف . هدوء السواد لا يكشف اتجاههم ، ثقل الليل ، لافرق بين المياه والارض . المادة واحدة فيها عدا رائحة البحر . أصغيت طويلا ابحارهم اضاف عمقاً للظلام والليل . هناك فوق نقطة معينة ، في اتجاه محدد .. يتحرك القلعاوي ..

* * *

نص محادثة لا سلكية جرت بين القلعاوي .. واحد الضباط الكبار الذي وقف يتابع عملية المجموعة من فوق الشاطىء الغربي للخليج ، تم تسجيل هذه المحادثة في ديسمبر ٦٩ .. فكت رموزها فيما بعد .

القلعاوي : مستمر ..

الضابط : نشاط الطيران فوق المنطقة .. أفضل التقدم نحو مكان الابحار .

القلعاوي : استطلاع الهدف ضروري ..

الضابط : أنهي العملية .

القلعاوي : (صمت) .

الضابط : عد يا عبد الله ... عبد الله ... سامح وليل في انتظارك ..

(القلعاوي يغلق الجهاز ..)

* * *

يتحدث المقاتل (ل) احد رجال المجموعة :

بعد أن اختارني للعمل معه . وفي أول لقاء به . قال أن هـذه المجموعـة سوف تحارب عدو مصـر في كل مـكان . وتلاحقه وتضربـه ، الجميع هنا يقضون أيامهم أما استعداداً للقتال أو في حالة قتال فعلي . كل منهم جاء الى الحياة ليقاتل . طلب مني أن احدثه عن نفسي . وفي البداية ظننت أنـه يريد الالمام بالمعارك التي خضتها لكنـه رفع ملفاً ازرق ، قال انـه يضم اكثر مما سأقول ، فهمت ، حدثته عن والدي . عن الخطابات الـتي ارسلها كل شـهر الى عيالي . ما اشتريته لهم في بداية اجازاتي، حدثته عن انتظار أهـلي عند الجسر ، عن رائحة الغيطان الليلة ورائحة الصحراء ، لون المساء فوق قريتنا . الاصوات الليلة في الجبل ، مرور الهواء بين شقوق الصخروتدحرج الحصى وما يتركه في النفس عواء ذئب ضال أو باحث عن فريسة ، تكلمت عن السـاقية القديمة الـتي ركبتهـا طفلاً ، ظننت عجلتهـا ضخمة جداً ، والبئر بـلا نهاية ، بعد سنين كلما مررت بها ادهش وانا ارى بئر طفولتي السحيق مجرد حفرة ، حدثته عن رائحة الفول الاخضر وامتلاء الكوب حتى الحافة بالماء وصرير عجلات الترام عنـد المنحنيات وحدود المدينة واول امرأة نراها بعد عودتنا نمشي في الطرقات الآمنة ، الرجال فـوق اسطح القطارات . وعشرات الصبية يركبون جراراً زراعياً . فلاحات حملن قصعات المؤنة وذهبن لبناء قاعدة صواريـخ. صوت عجوزمنهن تقول: ياهوده حيحوش البلاعننا جندي يجلس القرفصاء فوق رمال الصحراء ، نفس جلسة ابي بجوار المصرف المجـاور للزراعية . لم يستوقفني ، لم يستفسر . لم يطلب ايضاحاً ، لا . . لم يصمت . اذكر الموقف الآن فاذكر انه بادلني الحديث مع انـه لم يلفظ حرفاً ، تجعيدتان عنـد ركني فمه كأنه اصغى الى خبر مؤثر ، او حزن قديم او تـسـاؤل محـير او حنـين الى مسقط رأسه ، يقولون ان هاتين التجعيدتين ظهرتا بعد موت عاصم ، زميل دراسته ، زميل الكلية ، مؤسس المجموعة معه ومساعده الامين في كافـة العمليات التي تمت حتى ذهابه في مياه الخليج ، ثم سمع صوت سقوط جسم في الماء ولم يسمع احد صرخة أو أستغاثة. منذ هذا الحين اختفى عاصم ، كثيرا مالمحته يقف عاقداً يديه ، أراه من بعد ولا أتبين ملامح وجهه . لكنني أثق من وجود هذا البحث في عينيه ، ربان يستطلع أرضا لم تظهر بعد ، يستمر واقفاً لفترة ثم يستدير فجأة . لاأستطيع أن أتخيله يمشي متسكعا في ميدان مزدحم ، يسافر الى مصيف ، يدخن سيجارة أو نرجيلة بمقهى ، كما عرفنا أن القلعاوي

لم يحصل على أي اجازة ميدانية منذ عام ١٩٦٨ ، مع أنه ينظم اجازاتنا بنفسه ، ويمنح من يسافر بعيداً يومين اضافيين حتى تكفي مدة السفر ، اقول الآن انني عندما أفارق المجموعة متجها الى بلدتي اشعر بخجل لانني أسافر واتركه . في أيام الجمعة يجيء مع سامح وليلى ، نعرفهما ويعرفان كلا منا باسمه ، بماذا يوحي لنا سامح ؟ أراه دائما كأنه رجل كبير صغير الحجم ، عندما جلسنا في صالة البيت ، أضم شفتي باسناني ، جاء ممسكا عددا من النياشين والانواط وراح يقدمها الى الحاضرين متحدثا عن المناسبة المرتبطة بمنح كل منها الى القلعاوي الان يتحدث كل منالها بالتلفزيون مستفسرا عما اذا احتاجا الى شيء ما ، أدير قرص التلفون متوقعا صوت القلعاوي وعندما يرد سامح أو ليلى أحاول أن أبدو ظريفا ، يقولان ان القلعاوي يتصل بها قبل خروجه الى العدو لكن لم يره احد يحدثها . عندما يغلق الباب تبدو شظايا الضوء من خلال المساحات البيضاء التي بهتت من الطلاء الازرق ، يطلب شايا، دخلت عليه مرة ، رأيته منبطحا فوق الارض . حوله خرائط . كتاب مفتوح لم يغلق ، مساطر اقلام ملونة ، ادوات هندسية ، شريط طويل من صور فوتوغرافية متعاقبة . ربما التقطها بنفسه اذ انه قام بتصوير بعض اهداف العدو بمفرده . أنا لم أصحبه مع ان مهمتي القتالية تغطيته خلال الهجوم في الليل . في الصباح ، في العصر . بمجرد انتهائه من وضع خطة العمل ، تصبح مجرد اوراق جاهزة للتصديق عليها من قبل المستويات الاعلى، نراه يخرج من المكتب ، يتحدث الى بعضنا ، يصعد التلة الرملية بسرعة ، يقود دراجة بخارية يلف بها ارض التدريب مرات ، ومرات ، يدرك الرجال ان ثمة خطة اكتملت ، لكل منهم دور محدد الآن ، ان القلعاوي يبدو مرحا، خفيفا . ربما صاح على احد الرجال بدون اية مقدمات ليسأله عن احواله ، عن صحة اولاده ، مصاريف المدارس ، ربما استفسر عن احوال ام مريضة بالسكر او اب يعاني متاعب الشيخوخة ، عن تفاصيل مشروع زواج تبطيء خطواته بسبب عدم الحصول على مسكن او متاعب مع اهل العروس . في البداية يفاجأ المنضم الى المجموعة حديثا باسلوب القلعاوي المفاجيء. المباغت تماما كهجومه او ظهوره فجأة وراء خطوط العدو، اعتدناه ، يعرف كل شيء عنا ، اسماء اطفالنا ، عدد الاقساط التي يسددها كل منا ، بل قيل انه يحدد دور كل منا طبقا للحالة النفسية للفرد . اثناء عبورنا او مشينا فوق الارض هناك ، برغم تباعد المسافات بين الأفراد ، فان القلعاوي يتمثل الحالة النفسية التي عليها مقاتل الاستطلاع في المقدمة أو فوزي وحسان في أقصى المؤخرة تماماً كالقلب يدفع الدم الى أقصى أطراف الجسم ولكن هل

يرى الدم أثناء وصوله الى أطراف الاصابع . كل مقاتل يتحرك باتجاه الهدف كوحدة مستقلة . شعور يتملكه بأن القلعاوي يراه . يدرك ما يتردد بين طيات نفسه ، يرصد الخوف ، دفقة الشجاعة . شجن ذكرى معينة . ماذا يجعلني مستعداً للمشي أياما ؟ افنى في قتال ، ماذا يجعلني أوقن أنني عشت بما فيه الكفاية ولو فقدت عمري فسوف اقبل هذا ببساطة ، أهو الوطن ، الحقد على العدو ؟ أهو الذي جعله القلعاوي مادة في برنامج تعليمنا ، أهي طريقة حديثه عن شهداء المجموعة وضرورة الثأر لهم . يقول أحد زملائي . بعد كل حديث للقلعاوي اشعر انني ازددت ثقافة ووعياً ، قال القلعاوي باستمرار ، لابد من معرفة العالم ، هناك شيء مباشر يمكنني ان اشير اليه ، امسكه بيدي ، احسه ، اشعر بوقع نظراته .. له كيان وحركة ووجود . يمكنني القول انني افعل هذا لأثبت له انني كفء ، انني عند حسن ظنه ولم يخطيء في اختياري مقاتلاً الى جواره . أرى القلعاوي اثناء سفري واقفاً في خضرة الحقول ينظر الى المجهول من خلال منظاره ، اراه بيننا فوق نقطة ما من سيناء . نفاجأ بهجوم مضاد . اتقدم منه ، اقول له .. يا افندم اسمح لي ان احمي انسحابكم ، اقبل راضياً وانا اعلم ما ينتظرني بعد عدد معين من الدقائق ، قالوا عنه انه محجب وان من يقاتل معه لا يصاب وان رجلا سودانياً عجوزاً اعطاه حجاباً وان هذا الحجاب يحمله في مكان ما من ثيابه وانه يمنع نفاذ الشظايا الى جسده . لم ار الحجاب ، قيل انه قادر على رؤية الرصاصة والشظية في مسارها انه ينفذ بين الطلقة والطلقة . قالوا انه عاش دائماً بعقلية من يمر مروراً عابراً بالدنيا لهذا اندفع دائماً في اتجاه الخطر . قال عنه البعض . القلعاوي وش موت . اراه صامتا كأنه يطمئنني ، اسمع صوته دائما في اذني . وفي لحظات انتقالي من اليقظة الى النوم كل ليلة ، مع انه لم يتحدث الي كثيراً ، لا اذكر صوته غاضباً . غضبه صامت باتر ، لم يتحدث الى كثيراً انا اقرب الناس اليه في وضع الهجوم . لم يرتفع صوته في تمام الساعة الثانية عشرة والربع ظهر الجمعة ١٩ اكتوبر . قال كلمة واحدة صداها متصل في اذني حتى الآن . واضح كالطلقة الكاشفة التي تجرح صدر الليل بلونها الاحمر .

« غطيني ....

* * *

نص حوار بين اثنين من ضباط مخابرات العدو أمكن الحصول عليه ... ورئي ضمه الى مقتطفات السيرة لأهميته :

المكان : مقهى قديم بالشارع الرئيسي بمدينة العريش المحتلة .

التوقيت : الساعة السادسة بعد ظهر احد ايام نوفمبر الأولى عام ١٩٧٣ .

ضابط (١) : انني اميل الى وضع الامور في حجمها الطبيعي .

ضابط (٢) : ما اسهل هذا بعد وقوع حدث كبير .. حرب .. معركة .. الحقيقة تضيع تماما .

ضابط (١) : كنت ستقول شيئا .. ما هو ؟

ضابط (٢) : تبدوا الحقائق شاحبة بعد افتراء الحديث ..

ضابط (١) : حسولكم على امر لا يقل اهمية عن موته ..

ضابط (٢) : قلت انه من السهل اقتراح كل شيء بعد انتهاء الموقف نفسه .

ضابط (١) : وددت لو تأملته حيا او ميتا .. في معلوماتك عنه هل تعرف كم عدد الساعات التي بامكانه ان يمشيها ؟

ضابط (٢) : توشك ان تردد بعض ما توهمه رجالنا الذين فرغناهم لقتاله .. لا اعرف بالضبط قدرته على المشي . بعضهم نسب اليه اموراً خارقة كقدرته على المشي اسبوعا متصلا في اصعب الاراضي .. ستقول لي قدرات الانسان وامكانياته . لكنني احفظ .. اذكر عبارة رددها عدد من الاسرى اثناء استجوابهم . قالوا ان ثقته بقدرات الانسان لا حدود لها . وهذا اول شيء يقوله لمن يعمل معه .

ضابط (١) : انتهى كل شيء الآن

ضابط (٢) : وما زلت اقول .. ان الحقيقة لن تبدو كما كانت عليه أبداً ..

ضابط (١) : ربما ..

* * *

عندما علم العقيد أركان حرب (. ق) بمشروع جمع سيرة عبد الله القلعاوي .. طلب اجازة لمدة اثني عشرة ساعة ليقص حادثة معينة .. هذا نوردها كنتيجة لاصراره وربما تبدو في غير موضعها .

أنا مدين له بحياتي ، شهد النهاية والبداية . لم أره الا مرة واحـدة عندما حدث هذا منذ خمسة عشر عاماً . اشتركت في دورية سير لاختراق منطقة وعرة من الصحراء . أمامنا بدأ اللون الأصفر لا نهائياً ، العرض كالطول ، نمشي ، نمشي وخط السماء المنطبق على الأرض ثابت لا يتغير ، تجردنا من ثيابنا قطعة قطعة ، حاولنا حفر الرمال لندفن رؤوسنا ، شربنا بولنا ، تشققت حلوقنا ، الشمس كمصباح قوته ألف ألف وات لا يمكن الهرب منه ، لا يمكن اليقظة ولا النوم ، وكما قيل لنا أن القلعاوي الذي اشترك كعضو في هيئة التحكيم أبدى قلقاً ، لم يقلق كما نقلق نحن ، لم تتماسك أصبعه ثم تنفرج ، لم ينقل ثقل جسده من ساق الى أخرى يقولون ان عينيه ثبتتا في اتجاه واحد مؤدي الى بطن الصحراء . فجأة طلب من رئيس الهيئة السماح له بالاتجاه الى عمق اللانهائية بحثـاً عن المفقودين . بسط الخرائط يقول الذين شهدوا الموقف أنه اختار اصعب الطرق الذي يتعامد على خط سير الطابور ، حمل بعض زمزميات المياه وعدداً من القنابل الصوتية، للأسف لم يحدثني عما لاقاه في الجبل والصحراء. ما أعرفه انه مشى سبع ساعات متصلة في درجة تقارب الاربعين وعلى مسافات معينة يفجر قنبلة حتى يلفت نظرنا الى ان هناك من يبحث عنا . وعندما سمعنا انفجار القنبلة تصايحنا ، وقفنا عرايا تماماً ، بدأ القلعاوي لنا كأنه يخرج من باب بيت ظليل مستفسراً عما جرى ؟ قدم الينا جرعـات قليلة من المياه في غطاء الزمزميات . جرعات لا تكفي لبل أفواهنا . تطلعنا بشراهة الى الزمزميات المغطاة بقماش اصفر سميك . بدا حازماً حتى اننا لم نفكر في طلب المزيد تصور حالتنا ، الجوع ، الظمأ ، الانهاك . الخوف ، مع هذا عدنا مع القلعاوي مشيا على اقدامنا .. قبل وصوله بدا مستحيلاً ان نخطو متراً واحداً ! مشينا سبع ساعات معه . لم نتوقف لحظة لم نقعد لم يشجعنا انما بادلنا حديثا وديا عاديا ، بين الحين والآخر يقدم لنا قليلاً من الماء في غطاء الزمزمية المحدود ، تحدث الى الرجلين اللذين جاءا معه حديثا موجزاً . للأسف لم اعرف من هما . ولا ادري مصيرهما الآن ، تقدمنا القلعاوي بخطوات ، كأن لغة خفية بينه وبين رمال الصحراء ووحشتها . خلت مـن العلامات المميزة والكثبان ومع ذلك بدت خطواته راسخة في اتجاه اليمين واليسار والى الامام ، في الصعود والنزول ، احتملنا المشي معه ، كيف ، لا ادري حتى الآن. لم يشك احدنا ، لم يقل لفظ ، آهة ، .. هذا هو القلعاوي ..

* * *

توجهت اللجنة الخاصة بجمع السيرة الى المقاتل (ك.ي) رئيس عمليات المجموعة السابعة . طلب منه كتابة فصل عن آراء القلعاوي العسكرية وانطباعاته عن الحياة والناس كما عرفها (ك . ي) الذي يعتبر من اوثق الناس صلة به . لكنه رفض تقديم اي معاونة . قال ان كثيراً من الفضوليين وكتاب القصص والصحفيين السطحيين سيتخذون من هذه المادة فرصة للكتابة عن القلعاوي ، ماذا سيقولون عنه ؟ انه عاش بطلاً ؟ انه شجاع ؟ انه قام بعبور القناة وسيناء اكثر من تسعين مرة . هل هذا مايجب ان يقال عنه حقيقة ؟ ثم ينسون كل شيء . قال (ك . ي) انه لن يشارك في استباحة دم اقرب الخلق اليه . قال ان القلعاوي يجب ان يذكر بطريقة خاصة اخرى انه يعيش هنا — خبط صدره براحته — في رجال المجموعة . في كل من خدم معه ، ليتعقب سيرته من يرغب . لكن (ك . ي) سوف يذكرها بما يليق بالقلعاوي ، لن يبوح بأي شيء لاي لجنة ، او صحفي . . .

* * *

قسم به معلومات عن الاوسمة والنياشين :

في حجرة الاستقبال البسيطة بمنزل القلعاوي (يلاحظ بساطة الاثاث وخلو البيت من كل ما هو زائد عن الحاجة) ويرجع البعض هذا الى الظروف التي تم فيها زواج القلعاوي ، اذ ان اسرة زوجته عارضت الافتران به ، فاضطر الى فرض الأمر الواقع عليهم ، تحمل القلعاوي كل تكاليف تكوين البيت ويبدو انه استكمل بعض الحاجيات خلال العام الماضي اذ توجد فواتير شراء دولاب كتب ، وراديو ضخم به بيك اب وتاريخ هذه الفواتير يعود الى شهور خلت ، ويقول البعض الآخر ان البساطة ترجع إلى شخصية القلعاوي لم يره احد يعتني بالمظاهر . بل انه لم يرتد هو أو امرأته أو عياله أي ثياب مستوردة . وعلق على هذا يوماً في حديثه الى اقاربه قائلاً : اذا لم نرتد نحن مصنوعاتنا الوطنية فمن سيرتديها اذن ؟؟ .. في مواجهة الصالة توجد مجموعة كبيرة من براءات النياشين والانواط التي حصل عليها عبد الله . بعد اسبوعين من ١٩ اكتوبر اخرجت السيدة ماجدة القلعاوي هذه البراءات والنياشين . وقضت ليلة كاملة تعلقها بعناية . تملأ فمها بالمسامير الصغيرة ثم تتناول واحداً وراء الآخر لتدقه ، برفق حتى لا توقظ سامح وليلى ، ويبدو ان ابني القلعاوي عرفا الخبر في هذه الليلة . من الثابت انه

لم يرغب في عرض هذه الانواط والنياشين ولم يعلقها على صدره نظراً لارتداء الافرول باستمرار . لكن شوهد مرة يتجة لمقابلة احد القادة الكبار ويعلق مجموعة من النياشين (تشخلل) على حد قول احد زملائه الذي قال ان أي مقاتل يود لو حصل على وسام النجمة العسكرية مرة واحدة . القلعاوي حصل عليه ثلاث مرات . ويمكن القول انه لا يوجد مقاتل على امتداد تاريخ الجيش المصري حصل على مثل هذه المجموعة . في هذه الليلة وضعت السيدة ماجدة نموذجاً صغيراً لطائرة ميج ٢١ فوق منضدة صغيرة كتب عليه :

« الى العميد اركان حرب عبدالله القلعاوي »

ان عملية اقتحامكم للسان التمساح ، وتدميركم لمواقع صواريخ الهوك .. لن العمليات التي سيذكرها التاريخ بالفخر والاعزاز .

مقاتل طيار زميلك

٩٦٩/٧/١٧

* * *

« يتحدث العقيد صابر . . وهو احد من شهدوا التحام القلعاوي للسان التمساح ومهاجمته قواعد صواريخ الهوك » .

بدا القلعاوي مضطرباً ، وعندما أعلن قراره قلت ان هـذا جنون ، جنون ، وقلت لرئيس عملياتي . .

« ان عودته الى الضفة الشرقية أمر في غاية الخطورة . .

لكنه كما يقولون ، لا يقبل هذا ابداً ، وشاء حظي ان اشهد احدى هذه اللحظات التي يتحدى فيها القلعاوي الخطر والموت ، لو جرح احد رجاله لابد أن يعود به . لو استشهد فلا بد ان يقاتل . يقاتل حتى يعود بجثمانه ، ربما يفسر هـذا ذلك القتال المر الذي خاضه رجال المجموعة السابعة جنوب الاسماعيلية ظهر الجمعة ١٩ اكتوبر . الدفع في اتجاه القناة . رأسه عارية فهو لم يرتد خوذة قط . اندفاع الايدي في اتجاه المصير المحدد . رفعنا درجة الاستعداد للدرجة القصوى . وبدت السماء بصفاء يوليو منبعـاً للهلاك ، اضطرب قارب المطاط قليلاً ، جنح الى الشمال امتاراً ، ثم استقام في اتجاه الضفة الشرقية . وقفزت سمكة ضخمة من الماء مرات ،

اختفت . كقبضة صارمة بدت كتلة الدخان الناتجة عن انفجار دانة الهاون ، انبطح مع رجاله الاربعة الذين صحبوه قاموا ، تقدموا ، انفجرت دانات اخرى ، تجمد الدخان في الفراغ . وسمعنا في الدشم والخنادق والملاجىء صوتاً عالياً نفذ عبر الشظايا . .

– يا سعيد . . يا سعيد . .

ينادي رجاله الجرحى ، كيف يصدر هذا الصوت المرتفع القوي من القلعاوي ، الهادىء . المستكين . . الذي لا يتحدث إلا همساً ، اختفى عن ابصارنا ، لم نر مصدر النداء ، بدا قادماً من الارض والساتر الرملي . من عند خط السماء المطبق على الارض .

* * *

ما أدلى به احد مقاتلي المجموعة السابعة . . لم نذكر اسمه لأن زملاءه وصفوه أنه « مطلوب » أي أن العدو وضع اسمه في قائمة من يحاول الانتقام »..

أنا عملت مع القلعاوي ، انا أحد الثلاثة الذين عاد بهم القلعاوي من لسان التمساح ، خطوت معه فوق سيناء ، رأيته طيفاً ليليــاً ، يخطو بلا حس يسمع ، يصدر اوامره بصمت ، يمشي الساعات الطوال فيخجل الواحد منـا أن يصرخ بارهاق بتعب . يتحمل يتحمل حتى يثبت له أنه جدير بالقتال الى جواره . أنا حاربت معه هو اختارني . اختارنا واحداً ،واحداً ، حاربنا معه اسرائيل . بعد فترة معه عرفنا عنه كل شيء ، عرفنا ان القلعاوي جاء الى الدنيا ليقاتل . لم يتحدث الواحد منا اليــه كثيراً ، لكن كل خروج معه يقربنا اليه مسافات ومسافات ، أنا عبرت معــه ستاً وثمانين مرة ، سلكنا معه الاصعب دائماً ، اذا اتجهنا الى هدف معاد فان ثمة ثلاثة او اربعة طرق تؤدي اليه ، نسلك نحن الطريق التاسع ، قضينا معه الساعات الطوال فوق رمال سيناء لم يتقيد بتوقيتات ، كما يقولون انه يندمج تماماً في القتال ، يصبــح ميلاده مع بدء العمليـات ، لامجال معه لاستدعاء التفاصيل ، لرفيق الصور ، معه ينتفي الخوف القلق ، ألم بتفاصيل الارض التي نمر عليها ، اثناء عبورنا الخليــج ، مياه البحر جزء من سواد الليل ، ينظر الى النجوم ، الى الماء ، يطلب تغيير الاتجاه عدة درجات ، يذهل الدليــل بقدرته على اقتفاء الاثر ، اطلق اسماء معينة على مناطق الصحراء المختلفة ، توجد الآن كراسة في درج مكتبه – (لم يدخله انسان منذ الجمعة ١٩ اكتوبر حتى تليفونه المباشر لم يستعمله أحد ، كثيراً سمعناه يرن ، احدهم لم يعرف بعده في الأيام الأولى تكرر الرنين مرات ، تمضي

الايام ويقل حتى يصبح نادراً ، لم يرد أحد ، حتى هذا الرنين الذي بدد صمت فجر الثلاثاء الماضي ، صحبه اصرار ، ايقظ النيام منا ، لم يرد أحد ، وبدا صوته قادماً من صمت الليل يذكر بعبد الله القلعاوي . — في هذه الكراسة اسماء وعلامات اطلقها على الصخور والتلال ، اسماء زعماء اقتطع صورهم من مجلات والصقها فوق ورق اسود مقوى ، احمد عرابي ، سعد زغلول ، محمد علي باشا ، ابراهيم باشا ، اعرف انه اطلق اسماء ولديه وامرأته وشهداء المجموعة على بعض مناطق سيناء ، لو سألته عن شارع قصر النيل في وسط المدينة ربما اخطأ الرد ، ربما لم يره الا من نافذة سيارة ، رأيت القلعاوي يطوف بارض الطابور ، كأنه يمشي على حافة افريز مبنى ضخم . يمشي محاذياً حديقة مزدحمة بالاطفال النساء والرجال والصراع والمرح ، كأنه يلامس اطراف موجات هدأ صخبها عند الشاطيء ، أنا رأيته ينظر الى السماء الليلية عند اطراف معسكرنا بالصحراء الوسطى ، ايستلهم ملامح خطة ؟ ايفكر في تطوير زناد سلاح بحيث يصبح اسرع بمقدار جزء من الثانية ، ايجهد نفسه ليفك اسرار وشوشات النجوم ، سمعته يقول النجوم والرمال وشوشة ... اعرف انه نظم شعراً ، لكنني لم اقرأه ، لو فتحوا ادراج مكتبه ربما عثروا على بعض قصائد ، احياناً رأيته اكثر مما ارى نفسي ، احياناً يحدث به المسافات عني غير اني منذ ١٩ اكتوبر يتيم ، امشي بساق واحدة ، واحرك ذراعاً واحدة ، ربما استعيد مافقدته لو طرقت الارض نفسها ، الدروب التي سلكتها معه فوق سيناء اقول ..من هنا مر القلعاوي غير انني الآن اطرد الاسى عنه فاقول لكل من القاه ويلقاني .. انا عملت معه ..

* * *

ذكر بعض مشاهد متفرقة من حياة القلعاوي

مطعم بميدان الحسين ، الموائد مصفوفة فوق الرصيف .. تغرق المباني في الظلال ، عابرو الميدان يسرعون ، انها اللحظات التي تسبق مدفع الافطار مائدة حولها سبعة اشخاص يتصدرهم القلعاوي ، ابتسامته راضية تعكس راحة كأن امراً تحقق و كأنه سيقضي عمره مجاوراً للحسين ..

يتأمل زعانف مطاط تستخدم في الغطس .

السبت ٦ اكتوبر ، يدير قرص التليفون .. ماجدة .. مبروك .. الحرب قامت ...

امام بائع كتب قديمة اعتاد فرش بضاعته على سور مستشفى الولادة وسط المدينة ، في السماء غمامات بنفسجية ، يقف البائع محييا ، يقول القلعاوي : « اهلا عم كامل » ...

على باب طائرة هيلوكبتر . تطير على ارتفاع منخفض جداً تبدو بيوت المدينة ومع ضوء النهار الراهن يلمح القلعاوي ظل الطائرة فوق الاسطح والطرقات . عندنقطة معينة فوق المباني تبدو على شفتيه نفس الابتسامة الموجزة الغامضة والتي قال البعض انها نتيجة تفجر ذكريات معينة ، بينما اكد آخرون انها ثمرة خواطر عابرة ربما تضمنت مرحاً . وفي الشهور الاولى من زواجه حارت السيدة ماجدة في تفسيرها وسألته كثيراً عما يفكر فيه ، عندئذ تختفي تلك الابتسامة الدقيقة الموجزة ، واعتادتها امرأته كاحدى ملامحه .

منتصف ليلة الثامن عشر من اكتوبر ، يقف امام (س) بمركز العمليات .

القلعاوي : هل يمكنني ان اوضح ..

(س) : الموقف كما اري واضح ..

القلعاوي : لقد قلت ملاحظاتي ، وبرغم هذا سأقوم بها ..

لم يسمع بقية الحوار تماماً ، كان المقاتل (د) الذي رأى القلعاوي بعد خروجه مباشرة يؤكد ان الشعور الذي خرج به الى تلك العملية مخالف تماماً لكافة العمليات التي قادها . قال (د) انه لا يستطيع وصفاً لحالته بالضبط . لكنها تستدعي اليه حادثاً بعيداً من طفولته ، اذ حدث أن خرجت امرته للسفر الى بلدتهم وعند القطار راح شقيقه الاصغر محمد يشد ثوب والدته الى الوراء كأنه يود الرجوع الى البيت ، بمجرد وصولهم اصيب بمرض لا يدري (د) حتى الآن طبيعته او اسمه . ما يذكره ان شيخاً اسمه « ابو درية » جاء مرات ليضع على جبهة شقيقه احجبةمثلثة صغيرة ويقرأ الكثير من التعاويذ . آخر صورة يذكرها لشقيقه . رؤيته ملفوفاً في اغطية وثياب تخفي جسده ، لايبدو الا رأسهوعيناه فيهما استسلام عجيب . سنوات طويلة تلت هذهالزيارة وامه تقول : شعر محمد بما ينتظره . عرف انه لن يعود . لو اننا رجعنا معه لعاش وبلغ الآن كذا من السنين ، يثق (د) أن القلعاوي استشرف نتيجه عملية التاسع عشر من اكتوبر .. عندما استدعتهم السيدة ماجدة لتتعرف من كل مقاتل في المجموعة السابعة

تفاصيل الساعات والحظات الاخيرة لزوجها ونوعية المشاعر التي ارتسمت على وجهه ، كاد (د) ان يقول لها ما يثق فيه . ان القلعاوي خرج وهو يعرف بل موقن بأسيحدث أطرق (د) فكر في صعود القلعاوي تبة الرمـل . لو تأخر خطوة واحـدة لاخطأته الشظية ، لو خطا الى الامام لما نفذت اليه ، لو تبادل مكانه في المقدمة مع مقاتل آخر . لو تأخر التوقيت دقائق لو اهتزت فوهة المدفع لحظة خروج الدانة ، لكن كما قال احد الرجال ان هذه الشظية انتظرت اللحظة المناسبة بعد اربـع وتـسعين عملية عبور واستطلاع وقتال ..

قرب الاسماعيلية ، يلمح رجلاً عجوزاً يسند ذقنه الى عصاه وامرأة شابة وطفلة وخلفاً مطبقاً وطشتاً به موقد غازي . قال عبد المؤمن السائق . . لاجئون من القرى التي احتلتها اليهود .. قرض القلعاوي اظافره ..

قبل خروجهم من القاهرة في نهاية طريق صلاح سالم . فوق مساحة خضراء شبان يرتدون ثيابا كاكية ، حولهم حقائب جلدية بعضها مفتوح ومقعد مما يستخدم في الجلوس بالشرفات ، يدقون اوتاداً خشبية تمهيداً لشد خيمة لم تفرد بعد . هل رأى بينهم فتاة ترتدي الزي الاصفر ، فكر في ليـلى ، عندما تبلغ الرابعة عشر .. الخامسة عشر . سيدعها تسافر بمفردها تكتشف مصر .

قبل تبة الرمل ، يتقدم المقاتل (ك) يقف بجوار القلعاوي .

دعني اتقدم الى اعلى التبة .

يلتفت اليه عاري الرأس لم يرتد خوذته طوال عمره ابداً في كافة العمليات .

ارجع ..

— سأتقدم أنا .. الموقف غير واضح ..

يقبض القلعاوي ماسورة الرشاش .

— اسمع .. انا لم اصدر اليك طلباً في صيغة الامر ابداً . . الآن اطلب منـك ان تلتزم مكانك .. نفذ الامر ..

على مهل يتسلق التبة الرملية تتناثر ذرات رفيعة حول كعبيه ..

* * *

ورقة من الخدمـة .. تحرر في ١٩٧٣/٧/٤ البيان التالي بالاصابات الـنـاجمة عن القتال .

اثار طلق ناري بالساق اليمنى . التاريخ ١٩٦٥/١/٥ اليمن .

شظايا بالرأس ، التاريخ ١٩٦٧/٦/٧ ، رمانة .

شظايا بالساق التاريخ ١٩٦٩/٤/١٩ ، الطور .

* * *

ذكر السيدة زوجته وبعض أحوالها.

حدث في ليلة الجمعة ١٩ اكتوبر ان نزلت السيدة ماجدة الهـواري . عبرت فناء البيت تنظر الى الامام ، خطواتها منتظمة ، وقفت لحظة امام مدخل البيت ورأت فتاة تحمل سلة يطل منهـا مقدمة اربعة ارغفـة فينو وتمسك علبة زيت خضراء اللون عليها رسم اسد ، ورأت شابا يمسك بصديقته بقـوة ، ومرقت سيارة بداخلها خمسة اشخاص يرتدون ثيابا بلدية ، وعـلى مهل خطت قطة سوداء فوق جسدها بقعة بيضاء كبيرة ، ولاحظت ان عمود النور المواجه للبيت به فتحة قرب قاعدته السفلى تطل منها اسلاك كهرباء عارية . وفكرت انه من الممكن ان تصعق هذه الاسلاك طفلا او رجلا او سيدة عمياء ، وعندما توقف التاكسي فتحت الباب بدون ان تنحني ولو رآها احد رجال المجموعة السابعة او احد زملاء القلعاوي في الكلية الحربية ، او الذين عملوا معه في الصاعقة . او احد الذين حاربوا معه في بورسعيد واليمن وسيناء . لرأى نفس الطريقة التي يقدم بها القلعاوي على ركوب سيارة ، نظر السائق في المـرآة المعلقة فوقه ، سأل الى اين ؟ ! « العباسيـة » فعـلا صوت المحرك ، ولاحظت اضواء الشوارع الخافتـة ، وفوق الارصفة وخلف النوافذ المغلقة وفي الشرفات المهجورة يطل عبد الله القلعاوي هادئاً على وجهه ابتسامته الآمنة كعطر الورد تصغي الى مذاق صوته الهادىء ، « لاتبك » ،حازم ، باتر كطفلة لايريدها ان تبكي . وهي لم تبك لم فكرت في لحظة خروج الالفاظ من شفتيها وهي تنهي الخبر الى والدتها . تسألها يجب عمله مع الاولاد . فكرت انها بدأ يوم اربعاء، واليوم جمعة ، البداية لحظة زيارتها لاخته منذ اربعة عشر عـاما ، دخوله الهادىء الى شرايينها ، هدوء عينيه الذي لم يتغير عند خروجه الى عملية او عودته من دورية . وعندما انحنى فوقها بعد لحظات من انجابها ليلى ، الرؤية الاولى حوت كل شيء ، ضمت كل التفاصيل التي تكتشف واحدة اثر الاخرى على امتداد اربع عشرة سنة . ليلى عمر العلاقة ، ليلى الان صديقتها وليست ابنتها فقط وهي من ستتطلع الى عينيها اذا ماطرق باب البيت غريب ، وهي

من سترى في وقفتها وقفة عبد الله . تماماً كوقوفه في الشرفة . او امام مدخل البيت ينتظر السيارة . ستحتضنها تدعوها الى جوارها وتقول لها ، ان ابوك سيتأخر ، لو طلبت ليلى وسامح رؤية التليفزيون او سماع الراديو او احدى اسطوانات عبد الله فلن تمانع . هكذا تريد . توشك ان تلفظ اسمه الآن توشك ان تشم رائحته اثناء عودته طويل اللحية . يطلب قربة ماء ساخنة ، في بدايات الليل بعد ان يغادرها تصغي الى صوت هيلوكبتر يعبر الليل والصمت والعمر . ترقب طمأنينة سامح وليلى . تخرج الى الشرفة حتى في ايام الشتاء ونزول المطر . تتدثر بالمعطف . ترقب اكتمال الليل ثم شحوبه وبدايات الفجر . تكاد تتابع العملية بعد نصف ساعة سيخطو هناك . هذه هي المرة الخمسون ، الواحدة والخمسون .

لم يحك لها تفاصيل . وقع خطواته هناك يتردد عبر ضلوعها الاربعة والعشرين ، لا تذكر انه قال لها « احبك » . قبل زواجها يستمر صمتها لحظات . فجأة يقبض يدها كأنه جناح غريب . تأمن وتستكين قال ان أيديها حملت عبأ التعبير عن عواطفها زمنا . نظرته اليها حلوة ، هادئة ، فياضة لا ترجفها دانات . لا تجرحها شظايا . بعد عودته يتمدد بكامل ثيابه الكاكية . تستعيده من جديد . رجوعه كالولادة يبدو فرحا كالطفل . خلق شيئاً جديداً . بعد رجوعه موقتاً تدركها نفس هزة البداية قالت لداها خافت الا يستمر الوهج بعد زواجها . ان يدركها ملل ، ابتسم . لا يعيش الملل والخطر . قال انه اكثر جرأة على مواجهة الخطر بعد حياتها تحت سقف واحد ، تلثم اصابعه ، تستكين يده الليلية الضخمة ، مع عودته تعيش سعادة دافقة . كان المفروض ان تحرم منه ان يخرج لا ليعود . يرجع او لا يرجع السيدة ماجدة الهواري الآن لا تبكي ، تثق انه يرقبها من مكان خفي ، يراها ، يدرك قلبها ، عليم بما سيحدث لها غداً. يرى عمرها الآتي الآن ، لن تبك وسبل الاتصال بينهما مقطوعة ، خلال الايام المقبلة ستعبر هذا الطريق مرات . في نفس الاتجاه . في الاتجاه المقابل لن يصحبها . لن تجلس الى جواره بينما تطل ليلى وسامح من النافذتين الخلفيتين ستعبره ليلى يتيمة عندما تصير طالبة . هل ستمر الهليوكبتر في نفس الميعاد . لن تنتظر ، تخشى لحظة تستيقظ فيها يملؤها بقين انه يقف في الصالة . انه أعد الشاي بنفسه ، اذ تجلس اليه قد يبدى ملاحظة حول بعض رجاله . انهم ينتشرون حوله ولكنه في الظلام يبدو كرقائق المعدن المثبتة الى اجهزة اليكترونية معقدة يتلقى ما يشعرون به اما هو فلا يبوح بآلامه قط . لا يزعج محبيه ، عندما اصيب بشظايا في ساقه قرب مطار الطور ، مش فوق الصخور

عبر الخليج ، ضغط ألمه حتى وصل الى معسكر الاقلاع . لم يقل آهة واحدة ، وضع يده بين أسنانه وراح يعضها، يقتل الالم بالالم ، أيام خطوبتها بين الحين والحين يهاجمه صداع غريب تسبقه فترة من الوقت تغيم الرؤية داعاً عن عينيه ، حتى يصل الى لحظة لا يرى ما يحيطه إلا بصعوبة عرفت فيا بعد ضرورة اغلاق العينين عندئذ . لكنه ظل مفتوح الحدقتين دائماً . ينفي علامات الضيق من ملامحه . يستدير ليتناول قرصاً أصفر . سألته : قال انه صداع لكن أي صداع ؟ تتراجع البيوت بسرعة ، عندما يتأخر أو يقضي ليلته في المقر تتصل به حوالي الثالثة صباحاً . ربما تبادلا كلمة أو كلمتين أما الآن لو ادارت الرقم في نفس الميعاد الليلي المتأخر . من يرد ، من يجاوبها «من » ؟ ستلتقي بكل من رفاقه لتستجوبهم بدقة ، تعيش من خلالهم لحظاته الاخيرة . آهته الاخيرة هل لفظها أم كتمها ؟ عندما تسألها امها ستقول كما قال عبدالمؤمن « مات ميتة نتمناها كلنا ، جاءت الشظية في موضع القلب تماماً » . عندما تستفسر أمها عن الجثمان ستقول « رجالته جابوه » اذا نظرت أمها الى عينيها الجافتين ، الى نظراتها الحادة المستقيمة ستقول ان عبدالله علم كل من يعمل معه أنه لا حدود لقدرة الانسان ولما يمكن ان يقدمه ، ان يحتمله . حتى الآلام الوعرة يمكن قهرها . شظايا في الساق كانت أو في صميم القلب لهذا لن تبكي قط . لن تدمع أبداً .

* * *

هامش أخير :

أجمع عدد كبير من مقاتلي المجموعة أن القلعاوي كان يخرج في كل عملية وهو يعلم احتمالات موته . لكنه في العملية الاخيرة بدأ موقناً من النتيجة . من الموت ، هكذا تقول كل الدلائل ، لهذا تم التوجه بسؤال الى (ك . ي) رئيس العمليات والقرب الخلق اليه مع احترام رغبته في عدم الادلاء بأية تفاصيل. فقط يجيب بالنفي أو بالايجاب . كيف بدا القلعاوي في تلك اللحظات التي واجه فيها (ك . ي) وطلب منه بصيغة الامر لأول مرة منذ عملا معاً أن يلزم مكانه . ولكن (ك . ي) عندما وجه اليه السؤال بدا حزيناً كأنه تقدم في السن اعواماً عن اللقاء السابق الذي تم معه منذ اسبوعين ، لم يتكلم كثيراً ، لم يبدو ساخطاً . لكنه رفض الحديث رفضاً باتاً .

(جمال الغيطاني)

الكلمات التي اغتسلت في المطر

شعر: مجاهد عبد المنعم مجاهد

.... وانهمر المطرُ عليها ؛ بللها ، فاندفعتْ نحوي مذعورةً

القطة فاجأها المطر الساقط فارتعشتْ وبدتْ مقرورةً

كيف ترى اتجهتْ نحوي مع أني مرتعشٌ من مطر الحزن النازل في القلب بحوراً ؟

من أيام غضبتْ مني وبلا سببٍ أبدت في الوجه نفورا

كيف ترى صالحني المطر عليها وأقام بأيدينا للصلح جسورا ؟!

مع أني كنتُ عقدتُ العزمَ بأنْ أبعدَ عنها دربًا وشعورا

حتى لو لزم الأمرُ لكنْتُ تركتُ لها وطني، بل كنْتُ تركتُ لها المعمورَهْ
وكلانا فاجأه المطرُ .. فراحت ترنو لحظات في خوفٍ ثمّ اتّجهت نحوي
كالمسحورَهْ

أحسسْتُ بها كادت تدخل في السترةِ تلتمس بها دفئاً مع أن السترة معصورَهْ !
كيف ترى قلّم منها المطرُ الأظفار وكانتْ قد جرحتني فبدتْ قطناً
هرماً ووقورا ؟

كيف ترى ما احتملت مطرَ الرحمن وبانتْ من غضب الدنيا مقهورَهْ ؟
كيف إذنْ يمكن أن تتحمّلَ أمطار الحزنِ اذا سقطتْ في القلب دهورا ؟
كيف إذن يمكن أن تتحمّلَ أمطار الناسِ إذا حفرتْ في النفس جحورا ؟!
كيف إذن يمكن أن تتحمّل أمطار الهجْرِ إذا سقطتْ في قلبٍ يعشق لم
يتحصنْ ضد الغدْرِ ولم يبن له سورا ؟!
كيف ترى صالحني المطر علي؟ بل كيف ترى صالحت الدنيا وبعيني تبدّلت
الصوره ؟!

فنسيتُ المطر الساقط ونسيت الدنيا وعداها لم أشهدْ للأشياء حضورا
وإذنْ كان قراري أنْ أتركها كان قراراً من خلف القلب اتخذته النفس المهجورهْ
.. ضحكت في الوجه القطّةُ .. شوفوا الدنيا تقطر في القلب سرورا .. !!
حقاً في الأفق سحابات سوداءُ ولكنّي ألمح من خلف السحْب يبدأ بالحب
تطوّقها نورا

الآن أحسّ بأن الدنيا تعطيني قمراً يتكسّر في القلب بدورا
وتمنّيتُ يظلّ المطر يظلّ علينا يساقط أياماً لا تعرف في العدّ شهورا
لتظلّ جواري .. يدها بين يديّ تواسلني وتربني في اللمس أمورا
وتمنّيتُ أكون أنا مطراً لأمسّدشعر الرأسْ لاصنع من عطر الاحباب زهورا

وتمنيتُ أكون أنا مطراً لاكسّر في عينيها الألوان كضوء الشمس إذا لاقى منشورا

وتمنيت أكون انا مطراً أتلمسُ في الخدّين شراباً لي وأحيل التفاح بروحي تفاحاً معصورا

وتمنّيتُ أكون أنا مطراً لألامس بشرتها ليرقّ الكلبُ القاس لو كان بصدري ركّب فيه صخورا

وتمنّيتُ اكون انا مطراً يسري فوق الصدر لأعطى الناس انا قفصاً سحريّا تتمنّى لو تدخله الناس طيورا

وتمنّيتُ اكون انا مطراً حتى انفذ من خيط الفستان لكي يصرخ قلبي ان الهجر السابق كان قشورا

وتمنّيتُ اكون انا مطراً اساقط فوق القدمين لأركع لله شكورا

وتمنّيتُ يظل المطرُ .. ولكن فاجأني مطرُ الكلمات الشارب من عسل الشفتين خمورا

قالت : « فلنتّجه الآن الى مقهى بعصمنا .. منذ الآن سأنزع عن أسرار الحبّ ستورا

مع انّي من شهرٍ وجّهتُ إليها نفس الدعوة لكن رفضتْ ، ساعتها أحسستُ انا

إحساس الفنان اذا اعتنق الفنّ ولكن لم يصرْ في المسرح جمهورا

وطوال الدرب اعتذرتْ لي عن قسوتها بل شكرتني انّي مازلتُ على الودّ صبورا

ودخلنا المقهى ، خلعت من فوق الرأس وشاحاً كانتْ قد وضعتهُ فبانَ الشّعْرُ المبتلّ على الوجه القمريّ فراشة حبّ لم ترمها حتى هذي اللحظة أيّةُ اسطورةٍ

ورشفنا شاي العصر معاً ، بل نحن رشفنا شاي العمر معاً ، وبنينا لصداقتنا
من دخان الشاي قصورا
هي تشرب من فنجاني لا كيْ تجري خلفي ، بل حتى تشعرني انّا عدْنا اصحابا
ولتشعرني ان اراضي القسوة قد خلّفناها ارضاً بورا
وتعانقتْ الأيدي .. حفرت في الكفّ اظافرها ، فلقد شعرتْ ان صداقتنا
تعني ان يصبح كلٌّ منّا في الآخر محفورا
وانقطعتْ أمطار الرحمن فقالت : « هيّا ... » فخرجنا ورأينا الشمس تطل
وشفنا السحْب هنالك في الأفق شظايا مرآةٍ مكسوره
ودّعتْ صديقة عمري .. كانت تمشي كالقطّ يبلّله مطرُ الصفْوِ والمحها تتخذ
الآن صداقتنا في الدرب عبورا
ـ القاهرة ـ

قصائد عربية من اسبانيا

شعر : الدكتور محمود صبح

صليب الرجال

« صليبك ، ياناصري ! تباريح ناي
وحنجرتي إبر وهيب يداى »
ومازلت مثلك أحيا
تخطيت جسر المسامير من « بيت لحم »
لالقاك
موتك موتي
دماك دماي
ومازلت مثلك أحيا

مشيت طريق الصليب
عرفت عذاب النبيّ
وألتي تلفتّ : ألف يهودا
يصيح اصلبوا العربيّ
وما زلت مثلك أحيا
تلاحق شمسي الثعابين
تنفث عبر الأثير قذائف سمّ
وما زلت مثلك أحيا
على خشب الموت ألقاك في كلّ يوم
وما زلت مثلك أحيا
كأنّ الجراح بجسمك جسمي
غصون ضفيرة
تقطّر دما على خدّ أمك أمتي ،
سنابل قمح
بسفح الجليل ،
عناقيد كرم
تعمّد بالدم تحت أشعة شمس الظهيرة
كأنّ المسيرة
من الموت ،
عبر طريق الصليب ،
الى البعث
بضع ثوان قصيرة
وما زلت مثلك أحيا
كأن فلسطين سيف
تغلغل في داخلي ،
طيب كالخميرة

كأن صليبك غد

تقطّر بحر دم أحمر

أرجواني

ومازلت مثلك أحيا

فلسطين زيتونة بين بحرين :

بحر المنيّة والزعفران

وبحر الزنابق والبرتقال

سأصنع من دمها الخبز والخمر

والزيت والبندقيّه

وأقبس من نورها النار

أطعمها ذهب الوثنيّه

فلسطين تبعث عبر مخاض الألم

فلسطين رمز عذاب الأمم

صليب الرجال

مدريد في ٢٠ / ٤ / ١٩٧٣

صدقة

أعطني غرناطة ! ، الثلج
وأوتار القمر
أعطني
قلبي على ابني
وقلب ابني حجر
آه ما أقسى البصر
فلياليّ على أعتاب بابك
وأنا المنفيّ من جنّات غابك
ودمي الأحمر آجر رحابك
جئت غرناطة ! ، شاميّ الألم
ناصريّ الجرح
لوركيّ النغم
جئت أعطيك فمي
أعطيك دم
أعطني غرناطة ! ، الثلج
وأوتار القمر
آه ما أقسى العمى فيك
وما أقسى البصر
آه لو أنك قلبي
آه لو أني حجر

غرناطة : 1972/12/22

بقوس قزح

مدينةَ كلّ يتيم ! ،
« كونكا » ! ،
سأؤك لون الجنازة في الأمسيات
حصاك دموع النجوم
على شرفات المنازلْ
مدينةَ حيّ القديم ! ،
« كونكا » ! ،
أحبك أخشاك
أخشى حصاد النجوم
فمن أطلق الحزن والنار
من نجم الذكريات ؟
وخطّ بأفق قوس قزح ؟
فبين القصائد والنار خيط
بحجم الفرح
وطعم دموع السنابل
ولست أحبّ البكاء
سأصنع عقد حروف الهجاء
بقوس قزح
(عددت الحصى فيك
ألفيت خمساً وعشرين .... عام)
سأصنع عقد حروف الهجاء
بقوس قزح
وأهديك طوق الحمام
وعقد الزمن

أسير الحصى والسنين ! ،
أسير القرى والمدن ! ،
أكلّ تراب حزين ،
وكلّ مكان وطن ؟

« كونكا » ! ،
لحبيّ فلسطين
أحببت كلّ العيون
لمرج « ابن عامر »
أكرمت مرج عيون
واني لشاعر
فما من أحد
ولا شيء
يجبر
ان التراب يهاجر
فكل تراب حزين
وكل مكان « صفدٌ » .

كونكا 1973/1/4

بين الوسادة والعنق

عادل أبو شنب

أفرحني أن الصوت القديم عاد يردد أنفاسه بيننا ، بعد ان كان يرددها بينه وبين نفسه . مضت سنوات وشوقي بغدادي غائب ، أو منزو ، لعله ملّ أولعله قبع في الزاوية المظلمة يتفرج ، والفرجة في بعض الأحايين مفيدة ، ممتعة ، لأنها تتيح للمتفرج أن يرى الشاشة والنظارة معاً . فرصة مجدية للأديب الحق أن يغتنمها بالسكوت ، وما هي في الحق ، فترة سكوت ، لكنها فترة تمخض وتمثل .

هكذا كان ، وها هو الصوت القديم قد عاد كما كان شاباً ، وها هو ديوانه الجديد

« بين الوسادة والعنق » (١) يعطينا الدليل على أن الموهبة لا يمكن ان تنطفىء إذا سكتت أو اسكتت .

ماذا يريد شوقي بغدادي أن يقول في ديوانه الجديد هذا ؟

ثمّة ، قبل الاجابة عن هذا التساؤل ، أمر لابد من التركيز الشديد عليه ، فالشعر الحديث المطروح أو المسفوح على قارعة الطريق أكثر من الهم على القلب ، وهو شعر لم تعدله من خصائص الشعر المتعارف عليها إلا تسمية صاحبه له بأنه شعر ؛ لا وزن ولا قافية ولا روي ولا موسيقى . ومع أنني لست من المتشددين في موضوع البحور والأوزان والقوافي ، لكنني أرفض الشعر الذي لايحمل الى قلبي خلجة الموسيقى التي هي من شؤون الشعر الاصيلة به ، والتي لا يمكن أن يسمى الشعر ، حتى الحديث منه ، شعراً إلا إذا اتصف بها ، قصائد هذا الديوان شعر لأن لها موسيقاها ذات الايقاع المطرب ، هكذا الشعر يكون والا فالكلام المقذوف ليس سوى نثر ، وانت تقرأ قصائد « بين الوسادة والعنق » ترى وتسمع الى الموسيقى ، نفس الموسيقى التي كان لها حضورها الحاسم في القصيدة الكلاسيكية ، لكنها موسيقى موظفة في إطار التحديث ، وضمن مقتضيات القصيدة العربية الجديدة .

إن من افدح الكوارث التي اصيب بها شعرنا الحديث تخليه عن الموسيقى، وشوقي بغدادي ، في تقديري ، يدرك عمق الكارثة .. فيقف منها موقف المتحدي ، العارف كيف يعطي شعراً جديداً دون ان يتخلى عن الموسيقى التي هي من شؤون الشعر العربي الاصيلة به كما اسلفنا .

وإليك الشاهد :

يا مال الشام
يا مالي
غيّرت الدنيا أحوالي
دفعتني مثل الاطفال

(١) من منشورات « اتحاد الكتاب العرب » — ١٩٧٤ ويقع في ٩٦ صفحة من قياس خاص ، ويضم ٣٢ قصيدة كتبت ما بين عامي ١٩٦٧ و١٩٧٣ ، باستثناء قصيدة واحدة كتبت عام ١٩٧٤ .

اجتاز سياج البيت
إلى السهل المفتوح الاقفال
للافق النائي
نحو الشمس
هنالك في الجبل العالي (١)

لقد اخترت هذه القصيدة ، كيفما اتفق ، للدلالة على النغمة الموسيقية المتوفرة في قصائد هذا الديوان ، وهي نغمة لا أثر فيها للكدّ او الجهد . موسيقى منبثــة على سجيتها ، تطرب ، وتضع القارىء في الصورة التي يتطلبها من الشعر .

وإليك شاهد آخر دفعته الى الورق دونما اختيار مسبق أيضاً :

الآن لايبكيكم أحد
ولا تقوم بعدكم قيامة البلد
موتاكم ليس لهم اسماء
الأرض لا تذكرهم
ومثلها السماء
ليس سوى العدد
ودهشة الناس
لأنكم باقون في جلد
تكوون بالنار وبالحديد
عيون عالم بليد
يريد أن يرتع في الصديد
إلى الأبد (٢)

* * *

(١) من قصيدة « موال شامي في الحنين » صفحة ٢٤
(٢) من قصيدة « مرثية الموتى الذين لا أهمية لهم » المهداة الى شهداء الثورة الفلسطينية صفحة ٧٨ .

ونعود الآن الى تساؤلنا ، ماذا يريد شاعرنا أن يقول في هذه القصائد ؟

من المؤكد أن الشاعر يطمح إلى تجسيد هموم المواطن العربي في زمن جرحته فيه وخزات الهزيمة والهوان والقمع والتشرد والاحساس بالمرارة والوحدة والعجز والهرب. إن الحب لم يعد حباً مقبولاً في عالم كهذا العالم المفزع :

لم يتركونا لحظة واحدة
لم يدعوا اكتافنا تمس بعضها
كانوا وراءنا وبيننا
ونحن سائران
جنباً إلى جنب محاذرين
ننظر في رعب الى اليدين
تنمو بها مخالب غريبة
وفي العين
تلبث أنياب لنا عجيبة
فكيف نلتقي
وقد صرنا الى وحشين
لابد يافراشتي الحبيبة
لابد ان نقاتل
لابد يافراشتي الرهيبة (١)

ان الهرب لاينجي ، والحنين شواظ من نار تلفح صاحبها :

فان يكن امرأ فاني الرهين
وان يكن عهــــداً فاني الأمين
وان يكن ضعفاً
فاني اذن معترف

(١) من قصيدة « بين الوسادة والعنق » صفحة ٩ .

انا مريض الحنين (١)

والشاعر المفجوع الملتاع يعرف ان ثمة نائمين يجب ايقاظهم :

أواه . . لو يستيقظ الحجر(٢)

ويعرف أن الكلمات تفقدوهجها عندما يتصنع الكاتب أو الشاعر أو الاديب النواح والأنين والاحساس بالمرارة وبالهزيمة وهو ينعم في الاستيقاظ والنوم ، كل يوم ، في حين يغرق آخرون في السجن أو الاقبية المظلمة يقاومون المحتل :

قد كان في الامكان ان نبدل الخنادق
بجبهة في افخم الفنادق
وان يصير الحبل في المشانق
ربطة عنق فوق صدر عاشق(٣)

كل ذلك ماأراد الشاعر أن يقوله ، وهو قليل من كثير يحفل به الديوان ، وقد اداه الشاعر في سبائك شعرية لها مميزات واضحة :

اولا : حفل الديوان بهذه الموسيقى التي اشرنا اليها .

ثانيا : توخى الشاعر البساطة ، غاص على المعاني ، لكنه لم يتعمد الغموض ، وانما ، على العكس ، قنع بالثوب الذي يمكن ان يكون مفهوما للجميع ، وهذه ميزة ، طالما افتقدناها في شعر بعض الشعراء الجدد الذين يتقصدون الايهام ، لزعمهم انه اكثر تأثيراً على النقاد والقراء .

---

(١) من قصيدة « نزهة في دمشق » صفحة ٢٩ التي كتبها في عام ١٩٦٨ في الجزائر وفيها يقول :

سمعت انه شبا يغور
في حفر الخنادق
وانه في مدفن الزهور
تنتصب الاسلاك والبنادق

(٢) من قصيدة « الفجر في المدينة » صفحة ٣٢

(٣) من قصيدة « الطائر في القفص » صفحة ٥٥

ثالثا : عاد الشاعر بنا الى اللغة الصافية غير المقعرة ، التي من الممكن ان يصافحها المرء صباح مساء في علاقاته اليومية ، لكنه لم يتبذل في استخدامها ، وانما احسن التصرف بها .

رابعا : ترك الشاعر لشاعريته ان تتحرك على سجيتها ، وعندما ولدت القوافي في بعض القصائد من داخل المعاني المطلوبة .. لم يطردها امعانا في الكيد للشعر الكلاسيكي كما يفعل بعض شعراء العربية الآن ، وانما استخدمها كما جاءت . ليثبت ان في مقدور الشعر الحديث ان يحتضن الاوزان والقوافي دون ان تكون هذه مجرد عثرة في انسيابية القصيدة .

ان هذه المقالة التي كان لها هدف التعريف بديوان شوقي بغدادي الجديد .. لتطمح ان تؤكد مرة اخرى على حقيقة بسيطة ، شائعة للاسف في زحمة الشعر الكثير المسفوح على قارعة الطريق ، وهي ان الشعر الجيد ليس مطالبا بمسايرة الموضات السائدة ، لأنها موضات سائدة فحسب ، وانما هو مطالب بأن يخرج الناس .. ليطرد العملة الرديئة فأما الزبد فيذهب جفاء .

أبجدية المطر

فائق المحمد

« كان الشعر في اليونان يعيش في عالم السياسة ، في عالم الانسانية والالهيات . في عالم الأفعال البطولية ،في عالم الحروب ، بسهولة أكبر مما يعيش في العالم الداخلي(١).

أما اليوم فقد أصبحت صورة الشعر الحديث زاخرة بالالغاز ، والرموز ، والصراعات ، وهو في ذلك يلتقي بصورة الفنون الأخرى في عصرنا ، حيث لم تعد الفنون شكلا استعراضياً موزعاً بين المعابد والقصور ، وانتقلت من مرحلة الخاص الى مرحلة العام ، وهذا ما اقتضى منها التجاوز أو القدرة على مشاكلة الثورتين الاجتماعية والاقتصادية .

(١) الشعر والتجربة ـ أرشيبالد مكليش ص ١٣٥

وعن (دار العودة) صدر الديوان الاول للشاعر علي سليمان بعنوان « ابجدية المطر » ومع انه من المبكر الحكم على التجربة الشعرية من خـلال العمل الأول للشاعر ، فان هـذا القول يجب ان لا يقف حاجزاً دون العملية النقدية ، ودون البحث عن نوعية التناول الشعري للقصيدة عند الشاعر ، خاصة وان مرحلة البواكير تكون محكومة بدوافع العفوية ، والمنح من ينابيع الخيال الذاتي للشاعر ، وتكون شخصية الشاعر فيها اكثر انكشافاً وتجانساً مع تجربتها الخاصة .

يحتوي الديوان على مجموعة من القصائد ذات النفس الغنائي في مجموعها ، ويشير البناء الداخلي للقصائد إلى انها كتبت في أزمنـة متفاوتة ، وفي موضوعات متباينة ، فهناك فروق نوعية في المستويات، والمضامين الشعرية ، بالاضـافة إلى ان بعض القصائد جاءت تعبيراً عن نضج واقتدار على التحصيل الشعري ، بينما جاءت القصائد الاخرى تفتقر إلى نوع من التخطيط الشعري ـ ان صح التعبير ـ فهي تنتمي إلى حقل الشعر ، وتحمل ألوانه وظلاله، الا أنها قاصرة التشكيل اذا ما قيست بالنتاج الشعري الجديد للشاعر .

واذا كان الشعر الحديث كما يقول « جوتفريد بن » هـو « الارتفاع بالأمـور الخامة إلى لغة المستحيل على الفهم ، والفناء الكلي في أشياء تستحق ألا يقنع بها أحد»(١) فان هذا التعريف يحمل في تضاعيفه الكثير من الغبن لمفهوم الشعر في بلدان العالم النامية ، التي ما زال الشعر فيها صياغة للنضال التحرري الذي تواجهه هذه البلدان . وليس في ذلك اختلاف حول طبيعة الشعر الذي هو طريق النعق ، وتعبير عن صراع الشاعر مع صمت العالم وسكونيته ، وانما هو خلاف حول نوعية الابداع والتجسيم ، وحول درجة التعقيد والاغراب والايغال في الغموض والايهام قصد التضليل ورفض المعقول .

وعندما جنح الشـعر العربي الى التعبير عن الضياع واللاهدف ، وعن فقدان التوازن في عالم يستعصي الفهم والتذوق ، فان هذه الاشكالات نابعة عن طبيعة المدنية الغربية ، ومن طبيعة اللغة ، والصور ، والتراكيب ، والاستعارات الشعرية الجديدة ، التي أصبحت تعبر عن التضاد والمصادمة ، وعن قهرية التكنولوجيا ، وتقنية العـلم

---

(٢) ثورة الشعر الحديث د. عبدالغفار مكاوي ص ٣١

الحديث الذي أهمل دفق الخيال ، وصلب الصور في فجوات الآلة الطاحنة .

إن مشكلة الحداثة في شعرنا العربي المعاصر ليست تعبيراً عن فقدان المنهج ، ولا عن تخمة الحضارة الصناعية ، فالعلاقة بين الفن والمجتمع ماتزال ذات صلة حميمة ، والايقاع الداخلي للفنون مازال تعبيراً عن الفجوة الهائلة القائمة بين الانسان العربي وبمختلف العلوم التجريبية والانسانية . وبالتالي تصبح مشكلة الحداثة — عندنا — قائمة في قدرة الفنان أو الشاعر على تطويع القوالب والاشكال والمعاني والتيارات لخدمة التوصيل الحضاري الذي يتطلب مايمكن أن يدعى بحرق المسافات للوصول الى صيغة ، او صيغ جمالية فيها ملامح العالمية وخصائص المحلية القومية

وهذا يوصلنا الى مشكلة التشاؤم أو اليأس في شعرنا الحديث ، هذه المشكلة التي كانت في اوربا تعبيراً عن تيارين أدبيين متضادين ، الأول ينادي بخدمة القصيدة للعقل والفرح الانسانيين وجعلها « عيداً من أعياد العقل » والثاني يصرخ « ينبغي أن تكون القصيدة حطاماً يجرف العقل » . ولاشك أن تكنولوجيا القرن العشرين حطمت الشعار الاول ، وحولته الى نوع من السراب الصحراوي الخادع .

إن مبررات تيارات اللاوعي ، والغضب ، واللااتجاه مستساغة ومقبولة في مجتمعات وصلت مرحلة التخشب الحضاري ، غير أن هذه المواقف — النظرية — بالنسبة لبلدان العالم الثالث بعيدة عن ملامسة الوقائع الاجتماعية والاقتصادية لإنسان هذه المناطق ، الذي يرزح تحت كوابيس الجهل والتخلف ، ويعاني من مجموعة انفصامات في وعيه الحضاري ، وفي مقوماته الشخصية .

يتخذ اليأس مظهراً مأساوياً في شعرنا الحديث يعج بالحداثة والتجريب ، ويجعل من الحزن الرافض عموده الفقري ، وليس الحزن — هنا — رافـداً لليأس ، وان كان يتخذ أرديته ولبوسه الخارجية ، لأنه حزن ايجابي يرمي الى تصوير الواقع بغية الانقلاب على سلبياته :

يامن جئت ،

ووجهك يشعل بالحزن

وكفك يصهل بالشكوى والاشواق"

لم يبق لي منك

سوى غم في صدري

وجراح دامية الاحداق (۱)

الحزن – هنا – محاط بهالات من الخوف الاجتماعي الموروث ، وبواقع حضاري متخلف يحاول الشاعر اسقاطه على علاقته بالمرأة التي تجسد جميع مظاهر الطبيعة ، وتجسد وعيه بالكون والاشياء ، وذلك في محاولة تصويرية للهرب من دوامة الواقع .

وتتخذ مظاهر الطبيعة لبوس الحياة ، فيصوغ من ابجدية الخصوبة والنماء قاموسه الشعري ، الذي تتداخل فيه الارض ، بالوطن ، بالحرارة ، لأنها جميعاً تتصف بالخصوبة ، وتشكل معاً الثالوث الشعري والحياتي في كل زمان ومكان .

وفي (رحلة الانساغ) تتداح التساؤلات الحزينة صورا تشع بالتوقع والحلم ، ويردها الى هياكل الواقع مفاصل زمنية أصبحت صيرورة انسانية ، تتداخل فيها البكاء ، بالرغبة ، والامتلاك ، بالانطفاء ، غير ان الرحلة مستمرة بكل حيويتها وحرارتها ، وليس ثمة موجب للتوقف نهر الحياة ، فالدورة مستمرة وان كان القحط يفترش شواطيء الانهار :

انا قـــادم

ومعي شهوة الغيم

جوع المحاريث

شهقة من سقطوا

في الطريق اليك

وما وصلوا (۱)

إن قضية الحزن المصحوب بنبرة تشاؤمية في ادبنا المعاصر يمكن ردها الى عنصرين ينبعان عن طبيعة التراث الثقافي للشاعر في العصور الماضية والعصور الحاضرة :

(۱) أبجدية المطر ص ۲۳ من مطبوعات : دار العودة – بيروت .

(۱) أبجدية المطر ص ۳۲ .

١ – في الماضي: كان التراث المحلي الينبوع الرئيسي للشاعر، وبالتالي خضع الشاعر لنمط حضاري له خصائص وسمات فكرية محددة جاهزة الصيغ والقوالب الزمانية والمكانية. واذا حصلت أية ملابسة من نوع الانفتاح والتمثيل للحضارات الاخرى، فانها لا تعدو كونها ملامسات هامشية وآنية.

٢ – في الحاضر: تكسرت الحدود والاقفال الجغرافية والتاريخية، والتحمت الاساطير والديانات والثقافات والعادات والتكنولوجيا، وانظمة الحكم، والمجاعات لتشكل ما يمكن أن يدعى ب « الرمز الحضاري العالمي ». ولم تعد مهمة الشاعر أحادية، او ذاتية، او محلية، حتى ولا قومية، وذلك في عصر حروب العصابات، وثورات المشوهين، ومظاهرات الاحتجاج والادانة.

هذا الاشكال بين الماضي والحاضر ولد شعراً يفيض بالتفجع، والانين، والشكوى من فداحة الوضع البشري، ولم يقم الشعر العربي بعملية التحصيل والمعاصرة ومتابعة المصير الانساني لكان مجرد صراخ في واد سحيق الابعاد.

ان استمرارية الحزن، واستعماله في النفوس، ليس غرابة او ايهاماً بالمعاصرة كما يخيل لبعض، وانما هو صورة خلفية لاتساع الفجوة بين الفقراء والاغنياء، بين الرازقين والمرزوقين، ويمكن سحب هذا الواقع على ما هو ابعد من تخوم الواقع المحلي، فالحزن رؤية شعرية فرضتها: منابر الامم المتحدة، واقمار التلستار، وحركات التحرر العالمية، وقوانين العنصرية ... رؤية اذا تعامى عنها الشاعر، كان النحات الذي يصنع تمثالا اضخم من قامته الجسدية، ينحت الاجزاء السفلى التي تطالها يداه، ويهمل الاجزاء العلوية متذرعاً بقصر يديه.

وهذا يقودنا الى مقولة اساسية هل نجسد ما تطاله ايدينا وحواسنا؟ ام نجسد ما تدركه حواسنا ومشاعرنا واخيلتنا وعقلنا الباطني؟ ... يرى « على سليمان » استحالة قفل الدائرة، فتلافيف الدماغ البشري مسكونة بالهزائم البشرية، وليس ثمة مبرر لجزئية التناول:

يا كهفاً مسكوناً بجباه المصلوبين

المح في وجهك اشعاري
ناشجة
المح عبر ملامحك المربدة
وجه التاتار(١)

وفي بؤر الواقع العربي المتعفن « قبل معارك ١٩٧٣ التحررية » لا يجد الشاعر مناصاً من البكاء على ابواب الشخصية المسبية ، والذات المتقلصة . ففي قصيدة (الابجدية الجديدة) يرثي الواقع الذي غربت شمسه ، ويصور خريطته المتمزقة ، ويكون شاهداً على عصره ، غير ان فجيعة الواقع لا تمنعه من حمل البشارة الى الاجيال اللاحقة ، فحركة التاريخ لا بد ان تكون الى الامام ، وراية المهزومين المنكسة هي المنتصرة في النهاية ، مهما علاها من اصفرار وشحوب وعجز :

لكن لا بد لنا ان نستولد
هذي الارض
حروفاً وسلاحاً
واجنة(٢)

كان تمرد القصيدة الحديثة على كلاسيكية المنهج الشعري القديم ضرباً من الالتزام الشعري ، وتوكيداً لفاعلية الزمان في الانسان ، كان الزمن في الماضي اوتاداً تزرع في خيمة الشعر ، فتقيض اخبيتها بالنسيب ، والمديح ، والرثاء وما الى ذلك من تقسيمات ... اما الشاعر الحديث فقد تداخل الزمان في المكان عنده ، وغدت قدرته التعبيرية سفراً متصلا في الاشياء ، ومحاولة لرصد الزمني من خلال السفر في اقاليم المسافات ، ومن خلال اسقاط الزمان رمزاً على العلاقة التاريخية بين الانثى والذكر ، بينما تبقى عملية التنائي او العطاء مساحة مكانية ، او مسافة شعورية يعبر عنها بالمكان :

---

(١) أبجدية المطر ص ٤٧
(٢) ابجدية المطر ص ٦١

وأبقى أنا ...

عابراً نهرك المستحيل

خائضاً بحر وهجك ، بحر سرابك

قاذفاً زورقي ، نحو شطآنك

التائهة (١)

ولعل تداخل الزمان والمكان مقصود لذاته ، فبين مسافاتها تتوالد الاشياء ويحصل الموت والولادة ، الخصوبة والقحط ، النهر والصحراء ، الغيم وجوع المحاريث . التداخل اذن اطار لارادة لها وجهان متعاقبان تعاقب الليل والنهار ، والموت والحياة .

وتكثر في الديوان اوصاف القرية ، وصورها المحسوسة التي تشتعل في ذاكرة الشاعر ، ولا تغيب عن مخيلته الشعرية ، وهذا ما يمنح صورته الشعرية قدراً وافياً من العذوبة والبساطة ، وينأى بها عن التصوير الشعري المركب ، وهو يختار معانيه عن طريق توليد الاوصاف الريفية ، والصور التي تراكمت في وجدانه القروي الذي ما يزال يعج بصور الطفولة ... وما دامت الصورة بسيطة فلا بد ان تكون مصحوبة بطاقة غنائية عذبة في جميع المواقف والاحوال ، فالترابط بين الشكل والمعنى يكمن في اللاوعي ، والعقل يتلقى الاشياء والافكار والصور بتلقائية وعفوية .

وبما ان الشعر يصنع من الكلمات وليس من الافكار ، بمعنى انه يؤخذ من الكلمات كأحداث حسية ، وكأصوات متميزة باستقلالية ذاتية ، فان للحرف ، والنغم ، والصوت واللفظة ، وتركيب الجملة ، وطبيعة الاسلوب ... لكل ذلك آثاره التي لا تمحى من القصيدة ، فاللحن الريفي البسيط الذي يعتمد تجانس الاصوات وتكرارها ، وتساوق الحروف مع مخارجها ، يفعل في النفس اكثر مما تفعله الافكار المجردة .

ومن هذه النقطة كانت العملية النقدية عند الاعراب مجرد تذوق فني ، وكان البيت الواحد مثار اعجابهم لان نظام القصيدة لم يكن يقوم على وحدة القصيدة ، وانما على التنوع والشمول .

---

(١) ابجدية المطر ص ٨

واعتقد ان فقدان النفس الغنائي من الشعر الحديث واحد من الاسباب التي تجعل هضمه صعباً بالنسبة لقارىء الذي الف الصورة الحسية المتجانسة ، والف الاذن الغنائية التي تحكم الشعر بالأذن قبل ايصاله الى قنوات النفس والعقل . وهذا ما يفسر لنا سيطرة الشعر الرومانسي الغنائي على جميع اجهزة الاعلام في الوطن العربي .

وفي الشكوى التي يبثها — علي سليمان — بلسان دمشق نلمس صميمية العلاقة بين الشاعر وغرضه ، بين النفس والصورة المتجسدة :

دمشق بكت
شكت أهلها
بكوها وهو يلهو
ولم يبق في البيت لمصباحها
ولم يبق قمح لفصل الشتاء (١)

لست أدري لم يذكرني هذا المقطع بالطابع المأساوي للموال الحلي الذي تكثر فيه الاهات ، والشكوى الى الليل ، والتفجع على مافات ، والوصول بالحزن درجة الندب على الموتى والراحلين ، .. قد تكون العلاقة الجدلية بين شخصية الشاعر المعاصر ، والتراث الشعبي هي التي فرضت هذا الانسجام ، وذلك التوحد ، خاصة وان طبيعة الموضوع الشعري في القصيدة والموال شبه موحدة ، فكلاهما يحس بعبودية الانسان ، وكلاهما يعبر عن توقه لمجهول يفك جميع القيود والأغلال ، وكلاهما يمثلان ذلك العالم الذي يكمن وراء الذات . .. صحيح أن الشعر الحديث يدرك المصير البشري من خلال وعي متكامل بطبيعة الصراع ، ومن خلال أيدلوجية محددة تعادي الشكلية القائمة ، وتعارض النفاق والرياء والتقاليد الاجتماعية البالية ، وتركز على تفكك الشخصية البشرية وسط ظروف الانحلال والاحباط السياسي والاجتماعي . . كل ذلك لايقلل من أهمية التراث الشعبي الذي كان ثورياً بالفطرة ، يعاني أزمات الواقع ، ويلجأ الى العوم على سطوحها الخارجية ، عن طريق الوصف والتصوير الحسي مخافة الوقوع في أشراك الجمود ، والاتهام بالمروق وعدم الولاء .

(١) — أبجدية المطر ص ٨٥

الشعر الحديث - إذن - يحتوي على فن إثارة الوجدان وايقاظ المشاعر بالاضافة الى أنه محارب أسلحته مسئولة دائماً ضد العبث ، والفقر ، والضمور ، ورايته مرفـوع بيرقها على فيالق الفقراء والمسحوقين ، يبشر بالمخاض وبولادة الفرح ، ويحمـل عصا العصيان ضد كل الوجوه المقنعة :

أعرفـــكم . . .
اعرف لون عيونـــكمُ
قبل الأصبـــاغ
وبعد الأصباغ(١)

ونحن لانتجاوز الحقيقة اذا قلنا إن قصائد الديوان « أبجدية المطر » تعـبر عن مرحلتين ، كانتا متداخلتين في البداية ، ثم لم تلبث كل منها في الشروع بامتلاك مقوماتها الخاصة ، وفي الانفصال التدريجي عن قرينتها التي كانت تشكل معها وحدة عضوية ،نظراً الى أن مرحلة البدايات تكون دائماً محكومة بشعر الفطرة وبالبحث عن الظواهر الشعرية والانسانية العامة .

المرحلة الأولى : وهي مجرد تصوير النزعة الانسانية ذات الصبغة الرومانسية أوالذاتية، وفيها تشخيص لتجربة الشاعر مع المرأة بكل دقائقها وتفاصيلها الجزئية ،وتبلغ الصراحة التعبيرية فيها حداً يوشك أن يجرفها نحو طريق المذكرات اليومية :

ويرعبني الظن ، حين تضيعين
تحت سقوف المساء
وحين تروحين
وحــدك(٢)

وهذا عود على بدء ، واستمرار لما كان ، فالبدوي المزروع بالخوف والشك مازال يتقمص ساحته الشعورية ويصمه بنمطه الفكري والسلوكي في مواجهة المرأة ، وفي طبيعة

(١) أبجدية المطر ص ٩١
(٢) أبجدية المطر ص ٩٠

العلاقة بين الرجل والمرأة ، وتتصف أشعار هذه المرحلة بالعاطفية المشبوبة، وبتصارع الشك واليقين ، وبخيالات جامحة ، ويبدو ذلك واضحاً في القصائد التاليـة « الطرق الميتة » « زهرة الثلج » « لحن قصير » .

المرحلة الثانية ؛ وفيها يميل الى تقديم المضمون، والالتزام بمواقف عقلية تتبنى مواقف اجتماعية ، نابعة من البيئة المحلية ، وتركن القصيدة فيـها الى استقرار نسبي ، فالسياق الشعري لم يعد وقفاً على لحظة ذاتية يجسدها الشاعر ، لأن رؤية الشاعر أصبحت كالطيف الشعاعي يلم بالعالمين الباطني والخـارجي ، ويكتشف مجـاهل الخيال والواقع . ويستشرف آفاق الحاضر والآتي :

ان حضورية هذه المرحلة هي التي وضعت ثالوثه الشعري المتمثل بالوطن والأرض والمرأة ، ولا بـد أن نلاحظ التشارك العضوي والمعنوي بـين مكونات هذا الثالوث ، وكونها جميعاً رموزاً للخصوبة ، والخلق ، والفاعلية الانتاجية والجمالية ، بمعنى أن هذه القيم الثلاثـة تجردت من الصيغ الجاهزة ، ومن التعريفات المثاليـة ، وانخرطت جميعاً في بوتقة الفعل الحضاري المبني على ديناميك الوقائع المادية .

وتكثر في الديوان صور القرية ذات البناء الصوتي البسيط ، والايقـاع الداخـلي السلس ، كما يقود إلى التوازن والانسجام في الأفعال والصفات ، ويجعل الألفاظ أوعية مشحونة بالصـدق والامتلاء ، فالرموز ليست ألغازاً ودوائر مقفلـة يصعب اقتحامها ، وانما هي انعكاس للصور المادية على ساحات النفس الشعورية ، ومع أنني لست ضد الشوب الضبابي البائـس للقصيدة الحديثـة ، الا أنني وجدت في قصائد الديوان من البسـاطـة والعفوية ، وسهولة الادراك ما جعلني أؤمن أن طبيعة الانتاج الشعري ، وطبيعة العلاقة بـين الشاعر ونتاجـه هما اللتان تحددان ماهيـة الحداثة ، ومدى امكانيـة الشاعر على التوصيل ، في حال توافر شروط المعاصـرة ومواكبة الحركة الشـعرية مع ترك الباب مفتوحاً على مصراعيه أمام الشاعر ليمارس حرية التجريب ، والاختيار ، بعيـداً عن القيود الاصلاحية ، والتعريفات النموذجية .

ولعلني أشفع لنفسي عن هذا الحكم بالأمثلة المادية المأخوذة من مختلف قصائـد الديوان مثل « صوت البراري - أكوام الغلال - شروش الزيتون - موقدة العمر - جوع المحاريث - تشويل القوافل - رحلة النسغ والينابيع ... » ومن الملاحظ أن

جوانب الصورموزعة بين المادية المجسمة ، والمادة اللامحسوسة ولكنها منظورة بالادراك الواعي . وما دام الشاعر قد اختار جزئيات القرية وأناسها مادة لصوره وأحاسيسه الشعرية فان اعترافه من مخازن الوجدان ، ومن الاستعارات والتراكيب المنسجمة ، واختيار للصفات المتقاربة ، حتى وإن تباعدت ، وتركيزه على التماثل العضوي والمعنوي بين الشكل والمحتوى ، واكثاره من استدعاء الصور الأولية المترابطة ... كل ذلك وفر عليه « انتقائية » بعض رواد الشعر الحديث الذين يميلون الى التنافر ، ويجنحون الى اللاترابط ، والاكثار من الأخيلة ، والمشاعر ، التي من الصعب أن يحيط بها الادراك للوهلة الأولى .

ان جانبي الصورة - عند علي سليمان - يقومان على المشابهة والتشارك في الصفات والابتعاد عن الطلاسم السحرية ، ولا بد من التنويه بأن هذه الطوابع ليست ولا تتصف بالديمومة ، فمسيرة الشاعر نحو العالم الداخلي لابد من أن تزيد من أواصر اللقاء بينه وبين طابع القصيدة الحديثة من ناحية الشكل ، أو الهيكل الشعري ، فنسيج القصيدة هو مجموعة التداعيات ، والصور والأخيلة ، والتفاقات ، والاحتمالات الانسانية التي يرمي اليها الشاعر ويحسن بنا أن نقول أن المستقبل الشعري هو الذي سيمنح « علي سليمان » استمرارية الصورة ، وتوعيتها ، وفاعليتها من ناحية الصياغة والدلالة .....

والدليل على ذلك أن القصائد الشعرية الجديدة له ، والمنشورة خارج الديوان تؤكد المنحى التطوري للصورة عنده .

وهناك ملاحظة حول تركيب الجملة في قصائد الديوان « فالجملة مازالت » تفتقر الى النفس الطويل ، والى الالمام الكلي بخصائص اللغة ، وتركيب أدوات التعبير في العربية . ومن أبسط القواعد اللغوية أن الجملة البسيطة هي المؤلفة من فعل وفاعل ، أو خبر ومبتدأ مع فضلات تلحق بها ... بينما تتمثل الجملة المركبة بالتداخل والاتساع في الحروف والألفاظ ، يقابله تنوع وغنى في المعاني ونفس ملحمي يثري عملية الأداء الشعري ، ولا يعني هذا إنكار فاعلية الجمل القصيرة ، والفواصل المتتالية ، والأفكار المنسقة والواضحة ، فالجمل القصيرة مطلوبة لذاتها شريطة أن تشكل مع توالها أقفال ودوائر وحلقات مترابطة .

ومع أن النفس الشعري للقصيدة في الديوان يعتمد على أحادية الموقف ، وليس على تعدد المواقف وتمازجها ، فان ذلك لم يحل دون تراكم الجمل البسيطة ، والاكثار من

صيغ الافعال ، وخاصة الفعل المضارع في زمنه المستقبل ، وعلى سبيل المثال لاالحصر يمكن أن نعد في قصيدة واحدة لا تتجاوز الصفحتين ، وهي « لحن قصير » أكثر من عشرة أفعال مضارعة تتقدم مصاريع الابيات « يرعش ـ يضيء ـ يشعل ـ يحمل يوقد ـ أروف ـ أعانق ـ يحمل ـ يمطر ... » .

ثمة ملاحظة أخرى على تركيب الجمل في الديوان ، وهي الولع بالفعل المضارع في حالة دلالته المستقبلية المطلقة « أرحل ـ أجتاز ـ أتصبب ـ أبذر ـ أبقى ... » والاكثار من هذا الفعل مصحوب بجعله مطلعاً للشطر الشعري ... وباستثارة الذهن « ذهن القارىء » عن وظيفة الشعر ... أهي تعليمية غنائية .. اهي وجدانية رومانتيكية خالصة ... ام انها استيعاب شامل للاحساسات البشرية في مختلف اوضاعها الانفعالية ؟

قد يكون صحيحاً ان نقول إن طبيعة الاستجابة الشعرية في الديوان توحي بأن الشاعر يميل للغنائية الوجدانية والتعليمية البحتة ، ولكن من الصحيح أيضاً الاعتراف بأن عملية الخلق الشعري هي في مخاض دائم ، وفي افادة دائمة من التجارب السابقة ، وان محنة الشاعر في مواجهة بشاعة العالم كفيلة بتطوير استجابته . ثم لابدمن الاعتراف بأن ابسط تعريف للشعر انه الغناء .

تبقى كلمة اخيرة حول تسمية الديوان بـ « ابجدية المطر » وهي تسمية فيها دفق وحيوية ، وتجديد، وتوظيف لاحاسيس وانطباعات ومدركات القارىء ، فالعنوان بحد ذاته ، يثير خواطر شفافة اشبه بالحباب المرتسم على حفاف كأس الشراب. فالعنوان يقرن المعرفة « الابجدية » بالحياة « المطر » ويمزجها في ثنائية تجعل منهما كلا متوحداً لا تنفصم عراه الى خلايا وحلقات .

ان الترابط السببي في عنوان الديوان ، والشفافية في تعبيره ، والظلال والالوان النفسية التي يوحي بها . واستخدام الصفات المكانية لخلق ابعاد زمنية ، كل ذلك يلقي ظلالاً مستقبلية خاصة على تجربة هذا الشاعر .

«موناداً» دمشق

فايز خضور

مثلما هو الموت علة الحياة . كذلك كان ـ النيل ـ سيد الريح والمحراث ، والدوالي الحبالى ابداً ، بالدم والسكر : كذلك كان ، يوم صدّعته حب فلاحة عذراء ، وألحّ بادخالها معه الى مملكة الطقس ،وجحيم الحواس . ليثبت ـ كما قال احدالفلاسفة: (انّ حاجة الله الينا ، هي حاجة افتقار .) .

(*) كل ماهو بين قوسين صغيرين ، من كلام المونادا وهي قصيدة نثرية طويلة (نشرت المعرفة أقنوميها الأول والثاني في العدد ١٤٢ ونشرت (الموقف الادبي)اقنوميها الثالث والرابع) في العدد ـ ١٢ ـ السنة الثالثة .

لكن المتعلقين من حرس الهياكل تأبوا على الرب ــ الليل ــ ان يقترن بامرأة من نسل البشر . غير ان الرب غالى في الالحاح : فمن حقوق الملكية ــ كحد ادنى ــ عليه ان يترك لرئتي غرائزه ، وغبطته ، ان تتنفس بحرية ، وتتجـاوز ــ ولو لمرة واحدة ــ دائرة ، او محرم العائلة المقدسة .

فتصوروا إلهاً يبكي . نعم ، يبكي وينتحب كشحاذ منبوذ : انه يريدتلك الفلاحة، اغضبوه فثار ، وهدد بالقحط .فما كان من خوف الرعاع الا ان ابتكروا ــ لارضائه ــ اجتهاداً يوهمهم . وبكل غباء اقترحوا عليه ان تقترن الفلاحة برجل من طبقتها ومن ثم يحتويها الاله الليل .

ولكن محال ان يحصل هـذا . فتفجرت بأعماقه لغة الفارس ــ وكبرياء الفحل . قاطعاً : لا ... لا ... لا . وقتها اقترحوا عليه ان تنزل الفلاحة عارية الى البحر ، وتخرج الى حبيبها مطهرة ، مفترعة ،منعمة بالتخطي .. ومنذ ذلك اليوم اتخذ البحر رمزاً لسيد الذكورة .. وقتها انفجرت سدود الفرح وصار المستحيل ممكناً .

من هنا .. ومن هنا فقط اكتسبت موناذا دمشق ــ العواصم . اكتسبت واقعاً حضارياً ، يجوس في الماضي ، ليرسم هوية جديدة للمستقبل .

هي ليست حـكاية : تبدأ وتسير بخط بياني ، صعوداً او هبوطاً ، انهـا قصيدة تعتمد على ــ المحرق ــ انها محمع ــ بركاني يتشظى من المحرق ــ المفوهة ــ ليتناثرفي شتى الاتجاهات ــ والمحاولة التي قام بها الشـاعر لتقسيم القصيدة الى أقانـيم جاءت لتسهيل التناول . فليجرب القارىء ان يلمسها من الوسط . او النهاية ، او البداية ومن ثم يـسوح في عالمها ، فانه لن يخسر او يتوه ، وانما يفتتني ، ويجني المزيد من الدهشة ، والاغتراب الساحر ، والرضا المنتمي وبعدها ، لاشك سيستزيد .

موناذا السيد . عمل جميل ، في زمن يتكاثر فيه التهريج والادعاءات :

كالصشيان في عانة قذرة .. لأن صناعة الجميل ، حب كبير ، طوفان ، تضحية فادحة ومن لا يمتلك الجميل ــ الحب الكبـير ــ فهو مخلوق دودة .... مخـلوق خارج العصب المدهـش . ولذلك ، أن تقـترف المغلق ، يعني ان تستوطن المدهـش ، وتسكنك الدهشة يقول في صفحة لا عـلى التعيين : « اليد القابضة عـلى القتل ، وحدها المتـمة تتموجك يا امرأة تابى التكريس والانتظار ... ووحدها اليد القابضةعلى القتل ...»

اذن ، هي هاجس صُيِّر حالة . فدمشق لا تؤطّر موتادا دمشق ، لأنها محض مُتَسَّكأ ، اشارة ، بشارة ، توميء، الى موتادا العواصم - الانسان الذي احرق حواسه الخمس ، مجمرة وثنية للجسد الحي ، وليس لصنم الهيكل « ياسفناً مكتظمة باعياد الحب ، يا رحيلاً متزوجاً بأحصنة الريح . » .

انها الحرية المطلقة و : « نحن ايضاً نحمل جذوة التلوي ، والتشابك ، وايضاً نمقت الغرف المغلقة .. » .

والندم في الموتادا ، لايحمل طابع ذل التوبة، والنكوص . بل يحمل حسرة القدرة على انتهاك الكل .. انه النهم لاحتواء المحظور ، ورفع راية المحرم – التابو – للخلاص للتطهير الكامل – التطهر – والرضوخ امام افتراع بكارة المجردات ، التي هي ممتلكات مستعمر الغيب – الحلم – الله – المطلق... فليكن الجسد – اذن نهاية المطاف – الخلاص ، الداحض للتحولات جميعها ، واجتهادات المهرجين – الراسخين في العلم – كما يتوهمون ويصنفون أنفسهم ، فزعاً من خطورة السعي ،والعذاب فيه . اذ ليس المهم أن الدروب كلها . تؤدي الى روما . لان الاهم ، أن نبدأ في رحلة الكشف . ونهب المسافات .فالجسد عندما ينتشي بالعبور المفعم . يسمو ، يصير شجراً غابة ،بحراً ، يابسة ، ريحاً .ينصهر ليصبح كرة أرضية . وقتها ، ووقتها فقط يبدو العالم جليلاً للغاية .. وقتها ، ووقتها فقط ينسل التعب غبطة ، ولغة جديدة تستنفر الحاملين : ذباباً حول الموائد المهجورة .

وقتها ، يكرّس الموت ليصير بعثاً. حياة «(آه الانثى ، تضيق وتتسع ·والنوتي يتلمس خميرة الرحم ...)

الموتادا بحر . او كالبحر ، يخطيء من يتوهّم ان الشاطيء هو بدايته او ان له نبعا ما ، ترفده الامطار والجداول التواقة للولوج .

ان البحر هو الغامض ، هو خوف البحارة ، ودموع المنتظرين اوبة المسافرين . انه مملكة النوارس الزئبقية . و . و .. انه الجسد – الفضيحة : « بين يديك الجسد وليس من طهارة الا وفيه . ايها المهيمن بلا سطوة ، امنحني قرابة مافيك من ذكورة . . . انا استغفرك الملوحة . . لاخبز بلا ملوحة بلا بحر . . كل السفن تعرف ما في طعمي من قرابة لطعم الدم والخصوبة .. » . والفضيحة ، هذه (اليوتوبيا) المحرمة ، لماذا لم تزل كوناً ، حضوراً للذعر ، للغز – المضحك في تفاحة آدم – المهزلة. هذه التفاحة التي اصبحت برازاً رخواً، طحلبي اللون والماهية . لماذا تضعنا

بين فكي كماشة تضغط علينا ، وتضغط بمنتهى البلادة ، وتهرس لحمنا ، وتسحق عظامنا ، وتعيق انسراحنا ، وتغبش رؤيتنا ، وروانا ... ؟! لماذا تسكننا كشرطي مضطر الى تأدية واجبه ، بكل غباء وحسن نية ؟! ولماذا يحس الواحد منا ـ بسبب الذعرالوهمي ـ أن في داخله عسساً يترصده حتى في لحظة استرخائه ، او خروجه الى المرحاض ؟ !!

انه الخوف من الفضيحة الحرية ، اذن .. فلماذا لا نعتبر الفضيحة عارضاً عادياً؟! أو بالأحرى لماذا لا نتحد بالفضيحة ، وننهي اللعبة ؟! : « أيها المضللون المتقطرسون كدمى الشمع المريض . السعادة ليست دائماً في جعبة المنتصر ، وليس الحب في مركبة تخطف المدينة ... »

فالفضيحة . هي حاجة الثورة . ولذلك نحن امام خيارين : اما ان نستمر او ننقرض . وبحجم أدق ، نحن امام خيار واحد ، هو ان نقبل على الفضيحة ونصهرها ونلصهر فيها وقتها ، ووقتها فقط تصبح معادلاً موضوعياً يوازي خلع الحذاء ، او ارتداء المنامة ، أو .. أو .. الى آخر ما هنالك من السلوك اليومي التلقائي : « الحب يقود الجسد ودوماً النار يشلع ابواب المدينة المرغة يبطل كوتها الحجري المنضد... »

وعندما تصر المونادا على التمحور مع الفن: «رجل واحد يخترق خريطة البكارة ، يغيب وطعم المرأة فرات يقطف على الرمل ـ يستنشق في الأمرة .. » وهنا تدخل المونادا من خلال هذا التمحور ـ في ملكوت الاستقصات : الماء ، والنار ـ والهواء ، والتراب .. حيث يؤكد الفن نفسه ، على انه لعبة وثنية ، او أبعد من ذلك لعبة تبدأ من حضور الضوء والظلمة : هذه اللعبةالتي لم يستطع نقادناالتعساء استكناهها لانها دهشة الخلق الحر .. والعاقرون عاجزون عن التعامل مع هذه الغبطة !!

هو الغموض اذن ولكن كيف ؟!..

فلو أخذنا نموذجين للخالق : الشاعر والرسام وحاولنا دراسة ادواتها.ومن ثم تعرضنا لموقع المتلقي من الملقي لو حاولنا ، لوجدنا ان أداة الشاعر هي الكلمة يصوغها في عبارة يبينها مع عبارة اخرى و .. و .. ليقدم هيكلاً ، قصيدة طالت او قصرت. وهذه الكلمة تحمل اول ما تحمل معناها الوضعي ـ المعجمي ـ أي ان الشاعر يبدأ من عالم الضوء ـ الوضوح ـ لكنه عندما يشحن هذه الكلمة بمدلولات نفسية جديدة ، ويوظفها في عبارات ومن ثم يقدم منها جيعاً قصيدة ، او عملاً شعرياً متكاملاً فانه

وقتها يخرج من عالم – الضوء – الى عالم – الظلمة – فيتهم بالغموض كما يحلو لبعض القاصرين ان يصنفوه .

وأما الرسام ، فانه يتعامل مع أدوات كتيمة : علب ، ألوان ، فرشاة ، سكين ، قنب .. الى آخر ماهنالك من أدوات فهو في هذه الحال يتعامل مع – الظلمة – ليشكل بالتالي لوحة تشكيلية ، ومن البدهي – كما يتوهمون – أن يعطي عالماً مضيئاً . ولكن من المخجل فعلاً أن القارىء يتهم الطرفين : الشاعر والرسام بالغموض .

لقد أوردت هذا المثال لأؤكد على ان التقصير هو من المتلقي ، وليس من الملقي وحتماً أنا هنا أطرد الطحالب الفنية الواضحة .

وها هي الموتادا : « طوبى لهم يتعاركون مع الجبل والصخر، مع اليبس والتحطم و العطش ، ومع الطواويس ذات الاسلحة ، وذات القلاع . »

اذن هي هكذا ، ليست اكثر .. مادام « هوذا الجنون قارض التويجات المهبلية يحرر المرأة » . ومادامت « بالغبطة ، الارض تتذكر بكارتها . »

هوامش :

١ – الموتادا ليست صخابة في ايقاعها التشكيلي انها كما يقال عن الماء كلما ازداد عمقاً كلما ازداد هدوءاً . وكلما كان ضحضاحاً ، كلما بالغ بالسقسقة والقرقعة الجوفاء .

٢ – الشاعر لايدّعي الخارق ، بل يزداد موضوعية عندما يتكىء على العظيم من التراث القومي والانساني .

٣ – ألومه وأصرّ على اللوم ، عندما انتهى من الموتادا ، وأغمض عينيه حيث كان من الممكن أن يحدّق فيها أكثر ، ويطعن كلّ شائبة معيقة إلا ان روعة الخلق – كما تبدو – ألسَّيِّئَة ، وغلّقت عينيه عما عَلِقَ بالجسد النظيف من شوائب .

كتاب الانتظار

بندر عبد الحميد

يبدو أن الشعر يدفع ثمناً غالياً حينما يعلن عن نفسه بصوت عال في زحام الفنون وتغير علاقاتها بفروعها من خلال انشطارها وتداخلها من جهة وعلاقاتها بالحياة من جهة أخرى .

والرأي الذي ينطرح حول عمل أدبي جديد مكلف بالغاء كثير من الآراء والتصريحات المسبقة ، حتى يستطيع أن يتحرك بحرية مماثلة لحرية الكاتب أو الشاعر في انجاز نتاجه ، ما دامت العلاقات الأدبية غير متضامنة بشكل يكفل لها توطيد صلتها بالجماهير من جهة والعالم وثقافاته الواسعة ، والمتغيرات التي تفرض نفسها على الحياة وتنعكس بشكل ما على الأدب والشعر بشكل خاص من جهة أخرى ، ولكن يمكن أن يكون الرد الجاهز على هذه الحالة هو ، الكتابة من الحاضر المستقبل – وهذا الرد ليس مقبولاً أو مرفوضاً

إلا بقدر ماتكون هذه الكتابة تنتمي إلى الحاضر حينما تــؤرخ له بطريقة ابداعية أو تتوجه إلى المستقبل وتستطلع خطوطه وألوانه التي لم تولد بعد .

من هنا يمكن تأكيد أهمية فتح الحوارات المختلفة حول النتاج الادبي الذي يواجهنا، دون أن نتعرف على حدوده ، وربما كانت مسائل النشر والتوزيع والعلاقات الثقافيــة في الوطن العربي مسؤولة عن هذا المناخ المعتم .

في الوقوف عند « كتاب الانتظار » ـــ وهــو الديوان الخامس لفايز خضور ـــ ومقارنته بنتاجه الأول ، يمكن تسجيل الملاحظات الأولية التالية :

ـــ الاصرار على علاقة خاصة باللغة والوزن الشعري ، والتكثيف الشديد في الخطوط
ـــ فتح حوارات جديدة مع الناس ، وتوسيع دائرة الموضوعات الشعرية .
ـــ الاعتراف المرّ فيما له علاقة بالحياة الداخلية الخاصة .
ـــ الاستفادة من اللهجة الغزلية وتوظيفها في الصورة الشعرية بشكل عام .

في بداية الديوان نقرأ البرقية التالية :

(هذه الشمس مضحكه
والحديقات ماتزال
صورة للرؤى شائكه
« فرحي مقفر السلال »)

الفرح هنا هو فرح الحاضر ، والمكابرة في رفض الاشتراك في أفراح الحاضر ، تحمل انتظاراً لمهرجانات الفرح الاتي ، فالشمس التي يقــول عنها كازنتزاكي : الشرقية العظيمة ، تبدو هنا مضحكة ، والحدائق ليست نداء لممارسة القصف والغناء لأنها لاتزال بعيدة عن الفرح الحقيقي . وهذا مايبرر الانتظار عند فايز خضور في هذه البرقية التي تثير القلق .

إن القصيدة الطويلة تملك من القدرة على الحركة والانتقال مايكفي للتعرف على المساحات التي يسبح فيها الشاعر ، ويمكن أن تكون كذلك تأريخــاً للحياة الشعرية الــتي يمارسها ، وهذا ماتحققه قصيدة « اعترافات الحسن بن علي » ...

في القصيدة تخرج شخصية الحسن من التابوت ، لتأخذ ملامح جديدة هي مزيج مركب من الشخصية المعروفة وشخصية المواطن العادي المقــدور وشخصية « الراوي » الذي يحكي باسم التاريخ بشكل ما ، اضافة الى شخصية الشاعر التي تشترك في موقف ما، وتنسحب في موقف آخر ، والعمود الفقري للقصيدة هو :

(ذاهل : كرّسوني شهيداً ، وهم قتلوني .. ! !)

ثم تحكي الشخصية قصتها بطريقة المقاطع الشعرية المتلاحقة التي يتزاوج فيها الماضي والحاضر والتذكر والتداعي . وهذا النوع من الشعر يحقق إذا توفرت له الشروط ، مستوى عالياً ، إذ تتسرب من خلاله « المعرفة الكامنة أو اللاشعورية » كما يسميها برغسون .

إن الحسين هنا مغدور ومتمرد وذكي وعاشق وتقدمي ، وآلامه الكبيرة تنمو بسبب معرفته لما حدث ، وإذا كان قاصراً عن تغيير ما حدث فانه ليس قاصراً عن الفهم والتفسير :

(كنت رجيماً أعرف ماتحمله اللعبة .. !!)

وهو يصحح الأخطاء المتراكمة ، ويستقصي جذورها وامتداداتها ، ويرفض أن يكون قميصاً تأكله النيران والمراثي ، ولايريد أن تكون حياته بكائية ينام على أصدائها الذهن العربي كما نام :

(ظلمتني عائشه ..
حين ظنت أنني أؤمن بالغيب ، وأدعو للامامه ..
كنت أدعو لمصير عربي ،
يمنح الكون سلامه ،
لا لعرش دموي .. !!)

وهو اذ يستنكر الظلم الذي لحق به ، فانه لا ينكر انتماءه الى البطولة المتمثلة في الجذور التاريخية للانسان العربي ، لأنها الأرضية التي يتحرك عليها المصير ، وتستمر فوقها الحياة التي يدعو الى وحدتها .

ان الموت ليس مرعباً للذين يخرجون من التوابيت المظلمة ، والثورة ليست مسألة قابلة للمناقشة ، انها الدرب الوحيد ، ولكن الخلاف يبدأ حول لون هذا الدرب ، أخضر ، أحمر ، أبيض .. وهو هنا يدعو الى ثورة بيضاء :

(فمن يفتح اليوم قلبه ،
لقلبي .
ونشرب نخب المحبه
على جرح ثوره ،
لأول مره ..)

في الديوان قصائد متنوعة في موضوعاتها ، تجمعها لهجة الانتظار والأسى الذي يغمر النظرة الى الحاضر ، والقارىء البعيد يحتاج الى الهوامش الايضاحية والاحالات التي تفسر الحوادث الخاصة التي تلتقي مع الحوادث العامة في الحياة ، في مساحةواحدة ويبرز هذا اللقاء الحركةالنفسية والانتقالات المستمرة بين الحوارات الخارجيةالمكشوفة والحوارات الداخلية التي تفضح سراً أو تعترف ، اضافة الى ما يمكن أن يكون طارئاً على القصيدة ما دامت القصيدة ليست محكومة الا « بالحس الفني » ، الذي حكى عنه فايز خضور في مقدمة ديوانه « أمطار في حريق المدينة » هكذا :

(فقبل أن أدخل في هيكل هذا الشعر ، أحب أن أجيب على اعتراض مسبق : قد يقول أحدكم : ما هي المعادلة الرياضية الضابطة لهذا الشكل الشعري ؟! « أو بالأحرى ما هي القاعدة في سر العمل الفني . ؟!

فاقول : إن هـذا شعر ، وليس أرقاماً حسابية تنتظمها نظرية ما ، أو منطق عقلي ما .. ولكونه شعراً فان المعادلة الضابطة له . هي الحس الفني المتجاوز لبلادة الحواس الخمس . ومعرفتــك السر ، يعني انتهاء وقتلاً لبكورة الخلق .. هي الحس الثاقب لقشرة الوعي المحدود ضمن قوسين من المعادلات الحياتية والتقاليد البائرة . .

هي الحس الثاقب لقشرة القاموس ذي البعد الوضعي الواحد .)

نقرأ جملة في ديوان ونقف عندها كما لو كانت قصيدة طويلة ، هكذا :

« يسلم دمع الحنونات »

الأم والحبيبة والمرأة المسافرة أبداً ، المرأة التي تبعث الشعر النائم في العمق ، البئر المسحورة ،عمق النفس البشرية ، والمرأة التي تقتل الشعر أحياناً ، أو تغير اتجاهه، أو تضع له سقفاً .. والحب هو الذي يحدد ذلك .

ارتبط اسم «زليخة » بشعر فايز منذ خمس سنوات ، فصار طرفاً في الحوارات الشعرية ، واستمرت الحوارات في بطاقات الغزل والاعتذار والتساؤل والتهديد ، ومن خلال هذه الحوارات في اقبالها وصدودها كانت اشارات الاضاءة والتعتيم بين الشـاعر والحياة اليومية ، وفي هذه الحوارات تكبر بعض الكلمات من خلال العلاقات اليوميـة وتنضاف الى القاموس الشعري ، وتتمركز حيثما تريد ، وقد تشير الى مسافة طويلة في النفس ، لأنها تشير الى ماله علاقة بالحب ، والحب هنا ليس حاجة الى النصف الوسـع

الضائع ، وانما سفر غير مشروط ، ولحظات صغيرة تملأ الحياة ، حينما يصعب التفاؤل القديم :

(« كان همي الهروب إليها :
ذبيحاً ،
أقصّ لها غربة القافلة .. »
كل ما بيننا ــ مذ عثرت على دمعها ــ رعشة الانتظار .
كنت أحضن أحلامها :
وردةً ،
في زحام السفر ،
وردة ذابلة ...)

والحب ليس فرحاً أو حزناً دائماً ، إنه حركة لاتنتهي بين المحطــات المختلفة ، وهو الشجرة التي تفيض بالطاقة الداخلية للحياة ، وتمنح لممارسة الحياة معنى ، للخوف معنى وللبكاء معنى ، وللنوم معنى ، وللانتظار كذلك :

(يا قميص الحبيب ،
تحت عري المساء ،
ضمني ابرة ، في نسيج الرحيل الكئيب ،
والتحف بالبكاء .!!)

إن البكاء ليس ملكاً لأحــد ، ولا يبرر البكاء أن الحياة صعبة أو محاصرة ، ولكن الحب يبرر كل الممارسات القاتلــة أحياناً ، وعند فايز خضور ــ الذي يكشف أوراقه الخاصة ــ يمكن أن نجد اشارات إلى خصوصيات الحب ، في قالب شعري :

(« كيف صفقت الباب
وخنقت الهاجس .؟؟ »
يا كف زليخه ،
أفديك من البرد القارس ..)

يحكي فايز « سيرته » في قصيدة « فصل من كتاب منسي » حيث تهم في البداية خضوع التصوف والزهد والممارسات الغيبية في حياة الناس الذين عاش بينهم ، واكتشف

أن ثمة طريقاً آخر للحياة اكثر صعوبة لأنه مليء « بالقتل » الذي عبر إليه بعد أن مشى طويلاً في ممرات بين « الليل » و « الشمس » وطقوسها. وكان الاختيار الصعب بين الطريقين ، وفي النهاية هجر عالم الطقوس وعاد إلى عالم « القتل » عالم الشعر حيث تبدأ الحياة بصعوبة :

(وقهقت ، بالقهر .
أجبرت أن أنحني ، مكرهاً ،
للطقوس الرهيبه .!!

آه ، كيف انحنيت .؟
أيقظوني ، بكيت ـ بصمت الجنون الطفولي ـ

حاروا بأمر امتلاكي
مشيت على إبر الرمل ،
تفعمني غبطة الترف ،
ودعتهم عائداً :
أمتطي حمحمات الخيول المهيبه ..!!)

والقصيدة في خطوطها المتماسكة تشير إلى الوضوح الذي وصل اليه فايز بعد أن كتب بصعوبة خاصة ، وهي تلتقي مع قصيــدة سابقة له هي « عرضحال مواطن من الدرجة الثالثة » من حيث الخطوط الاساسية ، الا أنها أكثر سهولة ووضوحاً .

ومن خلال العناوين التالية يمكن أن نتعرف على تغير الاهتمامات الشعرية عند فايز خضور من هموم لاجيء متجول — بطاقات إلى غسان كنفاني — وجــه لوركا — المتنبي يقرأ في كتاب قاسيون —

إنــه يشترك بشعره في التعليق على ما يحـدث في الحياة ، ولكنه يصطدم بالحياة الراكدة فيقول : (والقطارات في وطني واقفه)

وهو يهجو النـاس الذين يمارسون الحياة ببطء شــديد وينحدرون إلى مصــيرهم بسكون الموتى ، ولكنهم متوزعون في الحيــاة ، ينشرون ركودهم على وجهها ، انهم صحراء جديدة تثير الفزع :

(من ينقذ هذي الصحراء ،
من الصحراء ..؟!)

ولكن الشاعر ينتظر الفرح الذي يأتي لكي تتحول الصحراء الى بحيرة أو غابة والانتظار لا يعني الوقوف الصامت إنه الحركة اليومية الواعية في الحياة .

في دواوين فايز ـ الظل وحارس المقبرة ـ صهيل الرياح الخرساء ـ عندما يهاجر السنونو ـ كتاب الانتظار ـ يمكن أن نجد ملامح مشتركة قاسية وحادة هي كالملامح التي يعتمد عليها فن « السلويت » في الرسم ، وتتشكل في شعره من الجمل المتلاحقة والتأنق المسترف في التعامل مع الألفاظ والقسوة في تناول الاشتقاق في اللغة ، والتخلص من الأطراف الزائدة في الصورة ، غير أن فايز حاول في كتاب الانتظار أن يكون أقل تمسكاً بهذه الملامح وربما كان ذلك لتجديده في الموضوعات التي يتناولها شعره ، وهو في ذلك يعتمد على التغير بالامتداد المتواصل وليس بالقفز . وهذا يمكن أن يكون علامات فارقة في النتاج الشعري الذي طرح نفسه منذ عشرين عاماً حتى الآن .

سجل «المعرفة» الفني

ثوابت ومتغيرات في عالم اللون

رؤية كاتب لفنان تشكيلي

وليد اخلاصي

من الثابت ، حتى هذه اللحظة ، أن الملل هو من الثوابت الرئيسية في حياة الفنان التشكيلي . أمامه تنتصب المساحة الفارغة تلك من عوامل الاستفزاز ما يوصل الرسام في لحظة معينة الى الهجوم بكل حيويته على الفراغ لملئه بالألوان والأبعاد الزمنية والنفسية .

وإذا كان الملل كثابت ، هو القاسم المشترك بين جميع الفنانين التشكيليين ، فلا بد من وجود ثوابت أخرى اذن ، فما هي تلك الثوابت ؟

ومادام هناك ثوابت في عالم الألوان ، فالمتغيرات لابد موجودة أيضاً ، وهو أمر منطقي ، فما هي تلك المتغيرات ؟

هل تتشابــه الثوابت الأخرى ، وهـل تتشابـه أيضاً المتغـيرات عنـد الفنانين التشكيليين ؟

لقد تردد كثيراً في مجال النقد الفني ، أن الناس يتفاوتون في أحكامهم على لوحـة فنية لفنانما،ومرد ، ذلك الى الاحساس الذي يختلف من فرد لآخر ، بالاضافة الى ثقافة الانسان نفسه حيث تلعب دوراً رئيساً في اطلاق أحكامـه . واذا كان الاحساس يرتبط بالتركيب البيولوجي والفيزيولوجي والنفسي للانسان ، فان ثقافتـــه ترتبط بتاريخه والبيئـــة المحيطة به . واذا اعتبرنا الاحساس تجاوزاً ، من ثوابت الفرد فان الثقافة تعتبر من متغيراته ، أي أن جملة من الثوابت والمتغيرات هي التي تحكم العلاقة القائمة بين المشاهد واللوحة ، فاذا كان الامر كذلك ، فانـه من الطبيعي أن تتحكم في أعمال الفنان جملة من الثوابت والمتغيرات .

يتفاوت الناس في أحكامهم على الاعمـال الفنية لتباين ثوابتهم ومتغيراتهم ، كذلك يتفاوت الفنـانون أنفسهم في انتاجهم لتلك الاعمـال ، وتلك هي حقيقـة باتت أقرب إلى المسلمة .

يقال دوماً أن رساماً ترك بصماتـه على الحركة الفنية في عصر ما ، وهذا القول الشائع يبدو للوهلة الاولى صحيحاً من الناحية اللغوية ، أما الوجه التاريخي لهذه الملاحظه فيبدو ناقصاً ، فالبصمات تعتبر من ثوابت الانسان التي لا تتغير ولا تتشابه ، واللوحـة ليست من ثوابت الفنـان ، بل هي من نتاج تفاعل ثوابته ومتغيراته ، لذا فان اصطلاح « أسلوب » يعتبر افضل علمياً من كلمة « بصمات » .

فاللوحة اسلوب ، والاسلوب هو الناتج النهائي لعمليات كيميائية بالغة التعقيد ، فتكون عناصرها من اطراف متباينة هي ثوابت الفنان ومتغيراته وألوانه .

هل يلد اللون مع الفنان ؟ هوذا سؤال تبدو السذاجة في طرحه ، ولكن الوصول الى الجواب يعني في البداية سؤالا كهذا . الألوان موجات صغيرة ترتبط بالجملة العصبية للكائن ، وهذا يعني مـدى ارتباط اللون المفضل بفسيولوجيا الأعصاب . وهذا بالتالي يؤكد على أن لونا ما ، وليكن الأحمر مثلا ، يفضله فرد ما نظرا لتجاوب موجـات الأحمر مع تركيب أعصابه . ولكن هل يعني هذا أن اللون يولد مع الفنان حقا ؟ ولكن من قال ان اللوحة هي لون واحد أو أكثر من اللون ! اللوحة علاقة لونية : الألوان بعضها ببعض ، الألوان والفنان ، الألوان والموضوع . والفنان التشكيلي أصلا يتمتع بحساسة

متفردة في إدراك الألوان جميعاً وتحليلها وتركيبها ، لذا فحساسية اللون تولد مع الفنان أما وظيفة اللون فتتكون خلال حياة الفنان ، لذا فان القول بأن اللون هو نتاج من ثوابت (حساسية) ومتغيرات (وظيفة) امر يقارب الحقيقة النسبية ، وأن اللون هو حاصل تفاعل ثوابته بمتغيراته في عالم اللوحة الكبير .

هل يمكن لنا أن نتصور معادلة رياضية لانتاج الفنـــان على ضوء الملاحظات السابقة ؟ قد يكون المحظور الوحيد لمثل هذه المعادلة هو الخوف من الوقوع في ميكانيكية التفسير للعمل الفني ، ولكن مرونة المعادلة في شكلها الأولي قد يخفف من حـــدة ذلك المحظور . اذن كيف يمكن لنا تصور مثل هذه المعادلة ؟

الانتاج الفني للفنان التشكيلي (الرسام) =
ثابت المل‍ه + الثوابت + المتغيرات + اللون
فاذا رمزنا لثابت المل‍ه بـ ثا
ولـ الثوابت بـ ث
ولـ المتغيرات بـ م
ولـ اللون بـ ل.ن (ل = ثابت الحساسة . ن = متغير الوظيفة)
نستطيع أن نتخيل المعادلة التالية :
انتاج الرسام = ثا + ث. ث. ث. + م. م. م. م. + ل . ن
١ ٢ ٣ ... ١ ٢ ٣ ...

وهذه المعادلة لا يمكن اعتمادها إلا كمدخل رئيسي الى عالم الفنان واللوحة .
فالاستثنـــاء في عالم الفن هو القاعـــدة ، لذا فما سيكتب لا علاقة له بتأسيس منهج نقدي .

ينظر الشرقي المسلم الى اللون الأخضر نظرة تختلف كلياً عن نظرة الغربي اليه . فبينما يدخل عامل التقاليد الدينية في تشكيل نظرة المسلم الى اللون الاخضر حيث يعتبر هـذا اللون في كثير من الاحايين رمزاً للأولياء الصالحين، يدخل عامل حب الحياة وازدهارها في تشكيل نظرة الغربي الى اللون الأخضر . ان الحزن الصيني يرمز اليه باللون الابيض بينما حزن العرب فيدل عليه اللون الاسود . لذا فان اللون الاخضر والاسود كثيراً ما يكونان من الثوابت الرئيسة في حياة فنان شرقي مسلم، كذلك تصبح بعض المواضيع الدينية ثوابت في تشكيل انتاج فنان تشكيلي شرقي .

ان معرفة الحياة الشخصية والبيئية لرسام ما ، تفيد حتما في الوصول الى معرفة أكبر بانتاج الفنان ، لأنها تقود الى نوع من الحصر لاهم الثوابت والمتغيرات التي تساهم في الانتاج الفني لرسام . أما اللون ، حساسية ووظيفة ، فان تقويمه النهائي يعود الى تقنية الفنان ومرانه وازدياد خبراته بكيمياء اللون وفيزيائيته أيضا .

ان مثل تلك المعادلة المرسومة قد تؤدي الى تفصيل تحليلي لعالم الفنان التشكيلي في عالم اللوحة ، ولكن هل تستطيع ان تؤدي مثلها الى تقويم العمل الفني نفسه ، اي هل يمكن لهذه المعادلة ان تقودنا الى القول بان هذه لوحة رائعة او ان تلك لوحة جيدة ؟ وان وان ...

لا اعتقد ان المعادلة بشكلها الراهن تفيد في الوصول الى مثل هـذه النتيجة ، فذلك التركيب الرياضي لا يهدف منه التقويم ، انما الكشف والتعرف الى عالم الفنان . هل تستطيع تلك الرموز ان تفسر الابداع ؟ ان تحقق الخلق والابداع ؟ ان تحكم على عملية الخلق ؟

هل الابداع الفني هو اعادة لخلق ! أم انه نقيض لما هو سائد ؟ هل هو تحد للطبيعة ؟ ام تراه اضافة ؟ أتراه - الخلق - ثورة هادئة داخل مجريات مستقلة لما هو سائد ؟ أتراه حلم البشرية في تجسيد الخيال المصطفى ؟ أم تراه تخيل ما يجب ان يكون ؟ أم أنه تجسيد للاوعي الانساني ؟ أتراه الهاما ؟

لنفترض أن الابداع أو الخلق هو واحد من اولئك التساؤلات ، وليكن هو جميع تلك التساؤلات ، فكيف نستدل عليه من خلال تلك المعادلة ؟

كما تبين لنا ، فان المعادلة المذكورة تشير الى ان النتاج الرسام هو نتاج تفاعل اربعة عوامل تقع في الطرف الأيسر من المعادلة : ثابت الملء وثلاثة عوامل . الملء قاسم مشترك اعظم بين الرسامين ، والثلاثة تمت بصلة شخصية الى الفنان لذا فلا تتشابه بين رسام وآخر . فهل يتشابه « الملء » بين الرسامين ؟ ان خلق اللوحة يعتمد على الملء ، ولكنه يتباين في مستواه بين فنان وآخر ايضا ، ذلك هو مفتاح الدخول الى عالم الخلق والابداع .

فما هو الملء ؟

في الشعر ، تعتبر اللفظة الشعرية او التركيب الشعري العام للقصيدة مكتملا اي ان

طاقة الاستيدال فيه صفر ، وهذا يعني أن العجز الكامل عن اجراء اي تغيير او احلال او الغاء في القوام الشعري للقصيدة . في الموسيقى كذلك ، لا يمكن اجراء تعديل على تركيب السوناتا او السمفونية نظراً لوصولها الى حالة الاكتمال .

وأنقال كذلك في تعريف البلاغة الادبية التي أست بقادر على التغيير او التبديل في لفظة واحدة

الملء اذن هو الاشباع ، هو الوصول الى حدود اللانهاية في التعبير عن فكرة او شكل ما ، وكما ان قطعة الاسفنج التي تأخذ استطاعتها من الماء الممتص فلا تقدر على تقبل اية كمية اضافية من الماء ، فان اللوحة الفنية الكاملة لا تستطيع ان تقبل اية اضافة وبالتالي اي تعديل او تبديل او تغيير ، فهي مشبعة ، اي أن ثابت الملء قد أخذ مكانه كاملا في طرف المعادلة .

كيف يمكن لنا ان نتصور الملء هندسياً .

يحاول الفنان أن يتمدد في الزمان والمكان مكسراً الحواجز . ان الأشكال الهندسية المعروفة لدينا كالمثلث والمربع والمستطيل والمعين ومتوازي المستطيلات وشبه المنحرف والمخروط ، ان هذه الاشكال تعتبر مساحات مغلقة لا تحقق فكرة الملء أو الاشباع ، لأنها تعتبر بمثابة قوالب تحد من طموح الفنان في التمدد خلال أكبر مساحة ممكنة . وتقف الخطوط المستقيمة حواجز حادة أمام الاحساس بالملء . وبالرغم من أن اللوحات الفنية التي أنتجها الفنان تأخذ شكل المربع أو المستطيل عادة ، فان الموضوع الفني يتمدد ليملأ مساحة ليست هي بالمستطيل أو المربع أو أي شكل محدد بخطوط مستقيمة . ان الحجر عندما يسقط على سطح ماء يرسم في البداية شكل دائرة وليس أي شكل هندسي آخر لا تلبث ان تتسع في دوائر أكبر فاكبر حتى تتلاشى تلك الدوائر في كيان سطح الماء الى درجة يمكن فيها القول ان الحجر قد اشبع سطح الماء بأثر سقوطه ، وعندما يكون سطح الماء صغيراً يكون اشباع السطح بالدوائر اكبر ، ان ترمي بسائل على جدار صلب فان الشكل المتكون مهما كان عفوياً ومشتتاً فان الشكل النهائي له هو الدائرة وليس المربع او اي شكل هندسي بأضلاع محددة . وهكذا تتوفر لنا الحقيقة النسبية التالية :

إن الملء و الاوحة يعبر عنه بالدائرة ، وكذلك نمو الاثر الفني الجيد في نفوس الآخرين لايعبر عنه الا بالدائرة وليس بأي شكل هندسي آخر . والفنان ، بثابت

ملئه ، يحاول تكسير جميع الحواجز التي تقف امامه ليصل الى مرحلة الاشباع كما فعل الحجر بسطح الماء .

* * *

هل تصلح تلك المقدمة مدخلاً الى عالم فنان تشكيلي ؟ قد تكون صيغة نهائية أو شبه نهائية للكشف عن عوالم الفنان الداخلية والخارجية .

لنحاول اذن ان نستفيد من بعض الحقائق والملاحظات الواردة في تلك المقدمة للحديث عن رسام يعتبر الآن في الصفوف الأولى للفنانين التشكيليين السوريين المعاصرين .

وحيد مغاربة ، من مواليد الحرب العالمية الثانية . شهد النور لأول مرة في يوم من أيام العام ١٩٤٢ ، لذا فانه الابن الفني للنصف الثاني من القرن العشرين . على اللوح الاسود في الصف الأول من حياته المدرسية ، اكتشف سحر الطباشير . جمل بتقليد الرسوم المدرسية التي يشاهدها في كتبه . احب الحصان والكركي ، ويبدو انه احسن بغريزته اعادة رسم التوازن البديع للحيوانين . في (الكلاسة) عاش طفولته ، وأحاطته شعبية الحي بغلاف يبثي لعب دور البكاروس الفني في اعماله المقبلة . ويبقى السؤال لم وحيد مغاربة ؟ لم يؤخذ هذا الفنان تطبيقاً لتلك الملاحظات الفنية ؟

وحيد مغاربة يعتبر في طليعة المساهمين في بناء الحركة الفنية التشكيلية المعاصرة ، الا انه لم يسافر الى العالم الخارجي الا من خلال الكتب والنقل الشفاهي للثقافة العالمية ، لذا فانه يبقى في مراحله التجريبية اكثر نقاء من غيره من الفنانين الذين هاجروا جسداً وروحاً الى منابع الحضارة الغربية بالذات ، وهذا يعني بالتالي فرصة اكبر لهذا الفنان ان يكتسب من البيئة المحلية مما يساعد على تقصي ثوابته ومتغيراته . وبالاضافة الى كل ذلك فهو صديق جمعتني اليه الأيام والاحداث فعرفته اكثر مما يمكن لي أن اعرف غيره .

في سنتين متتاليتين (١٩٦١ و ١٩٦٢) أقام وحيد معرضين فرديين . كان يريد أن يرسم وأن يلون ، وكان جاداً ومخلصاً ولكنه لم يكن بعد ليستطيع أن يشبع تلك المساحة البيضاء النهمة . ان فترة التدريب كانت قاسية ، المدرسة هي المادة ، والاستاذ كان الإصرار ، والمواد الخام للعمل الذي كانت اقلاماً مستوردة وألواناً مجرولة الكيمياء ، ولكن وحيداً تابع التدريب ويكتب في دفتر انطباعه :

« المصور كارافاج ، مصور ايطالي (١٦٥٩ — ١٦٠٩) كان عاملاً يومياً في بداية حياته ونجح في تكوين نفسه كمصور بلا مساعدة من أي استاذ » .

وخلال العام ١٩٦٩ يهجر الألوان ليصور بالأبيض والاسود ، ويقام له معرض عن الحب والمقاومة ، حيث بلغت تنظيمات الفداء الفلسطينية أوج أعمالها، ولكن التناقض في اللونين بالرغم من نقائها لم يستطيعا ان يحققا الاشباع اللازم للقضية او اللوحة ايضاً . ان المغامرة الحقيقية في بدايات وحيد الفنيــة تتجلى في تعليم نفسه بنفسه ، وبالمثابرة ابتدأ الفنان بالتعرف الى نفسه ، ونجده في بداية السبعينات يدخل عالماً جديداً ومتميزاً سيدفعه حتماً لبناء اسلوب شخصي نابع من عالمه الداخلي وتطوره التـابـع خلال رحلة فنية مضطربة ولكنها شجاعة ، ففي السنوات الثلاثة التي سبقت منتصف عام ١٩٧٤ استطاع وحيد ان ينتج لوحات سبقت منتصف عام ١٩٧٤ استطاع وحيد ان ينتج لوحات ذات طابع فني مميز لابد من الاشارة اليها في وقت لاحق .

كيف تكون وحيد مغاربة ؟ وكيف تكونت معه ثوابته ومتغيراته ؟

عائلة فقيرة يحميها البكر وحيد في ايام الحرب السوداء ايام خبز الشعير والوقود المقنن . بلاد محكومة بالمستعمر والغلاء واثرياء الحرب ، ولكن الطفل لايعي شيئاً حتى ايام الاستقلال والتمخضات الوطنية الاولى نفسها لاتعني له شيئاً .

ان اكثر الامور اثارة في حياة الفنان هي تلك السنوات الأخيرة في الخمسينات حيث بلغ الفكر السياسي والاجتماعي أوج مداه متمثلاً في طرح المفـاهيم الاشتراكية والوحدوية وفي محاولة لتعميق المفاهيم الشعبية في الأدب والفن حيث تعالت الاصـوات منادية بضـرورة العـودة الى روح الشعب وامتلهامه وقد لبثت تلك الاحداث الحركات اليسارية التي اشتد عودها في المجتمع وباتت عاليـة ومسموعـة من كل الناس ، وكذلك غمرت السوق بالكتب الجديدة الوافدة المؤلفة والمترجمة والتي عمقت من تلك المفاهيم وساعدت على تبنيها وكانت احدى الركائز الاساسية لفكر كثـيـر من الكتاب والفنانين السوريين .

ان الأعمال الشعرية الطليعية الحديثة والتقنية الجديدة في القصة لم تقل في خطورتها التأثيرية على وحيد مغاربة عن آثار حرب حزيران نفسها . لذا فان وحيد مغاربة يمتاز عن بعض من الفنانين المعاصرين بعمق التجربة الحسية لقيمة الاعمـال الطليعية الأدبية

السورية والعربية والعالمية . وسورية شهدت في الستينات تطورات ذات دلالة في الانتاج الشعري والقصصي ، كما ان الحركة الشعرية العربية على وجه العموم شهدت تلك التطورات التي لعبت دوراً جدلياً مع الحيارة السياسية والاجتماعية والشخصية الابداعية أيضاً .

يلعب الذكر الشرقي دور السيد المتمتع بالصلاحيات التنفيذية والتشريعية بالنسبة لأسرته وامرأته ، وكثيراً ما يمرق صلاحيات اخرى فارضاً بذلك وجوده وظله ، وهذا الأمر يظهر بوضوح في المجتمعات الصغيرة المغلقة والتي تكون صورة المجتمع الكبرى . وكما يلعب رجل السلطة في المجتمعات الشرقية اكثر من دور متطابقاً في ذلك مع مفهوم الذكر الشرقي . فان سلطة الوالد في تلك المجتمعات استمدت أيضاً أبعادهـا من سلطة الذكورة . وطفولة وحيد لم تخل ابداً من تعسف تلك السلطة . لذا فاننا سنجد هـذه الآثار متمثلة في أعمال مقاربة ، وبخاصة الحديثة منهـا والتي تمثل تتويجاً مرحلياً لانتاجه الفني . ان الذكر الشرقي يكاد يصبح في كثير من الاحايين ثابتاً من ثوابت الفنان ، وان تلك العـلاقة التي تنشأ بين الذكر والأنثاء والمسماة أحياناً بالجنس فانها تصبح ثابتاً أيضاً .

لذا وعلى ضوء بعض الملاحظات المطروحة سابقاً ، نستطيع أن نتساءل الآن : ما هي ثوابت وحيد وما هي متغيراته ؟

في الانتاج الاخير لمقاربة (وابرزها عشرون لوحـة ١٠٠ × ٨٥ سم قماش) استطاع الفنان أن يضع بين أيدينا وثيقة هامة لتقصي أبعاد الثوابت والمتغيرات للفنان بالاضافة الى عامل اللون نفسه ، وهذه ميزة تسجل لصالح الفنان التشكيلي لأن هذا يعني البدء في الوصول الى أسلوب شخصي . ففي هذه المجموعة تناغم رائع داخل اللوحة الواحدة وضمن اللوحات ككل . شبه معالجة واحدة لمواضيع مكرورة لم يفقدها التكرار جدة كل منها على حدة ، لذا فان تقصي الثوابت والمتغيرات يصبح مريحاً ويسهل من مهمة الكشف عن عالم هذا الفنان التشكيلي .

عن الثوابت :

مادمنا تحدثنا عن الذكر الشرقي ، فان موضوع الذكورة في اللوحات يحاول ان يؤكد نفسه أبداً ، فلماذا الذكورة ؟ إنها تظهر أحياناً على شكل فارس أو بطل شعبي أو رجل عصري ، ولكنها ابداً ، أي الذكورة ، تأخذ شكل القلق او التصعد او الاعتداء

والفنان في أغلب الأحايين يلجأ الى الألوان الداكنة او القاتمة للتعبير عن الذكر الشرقي. وثابت الذكورة إما حالة متطورة للسلطة او ان السلطة نفسها يعبر عنها بالذكورة او الفحولة. والفنان في نهاية مطافه يعبر عن المسألة الشرقية لجانب الاجتماعي في حياتنا المعاصرة، فما هي المسألة الشرقية؟ قد تكون العلاقة القائمة غير المتوازنة بين الرجل والمرأة سمة عالمية تشترك بها معظم شعوب الأرض، ولكنها تتجلى أكثر ما تتجلى في العلاقة الشرقية، اذ أنه بالرغم من محاولة الاسلام الناجحة في تحرير المرأة التي كانت تقتل لمجرد كونها انثى، الا ان التراكمات الاجتماعية خلال العصور المتلاحقة قد أدت الى وضع المرأة في صف أدنى من ذلك الصف الذي يتربع عليه الرجل ملكاً وسيداً ومتعسفاً وطاغية الى آخر قاموس السيادة النابعة من أوضاع اقتصادية متردية للمرأة الشرقية. وباعتقادي انه حتى الآن لم تفش أم شرقية بأسرارها الدفينة الجنسية وغير الجنسية لابنها الفنان او الكاتب او الثائر الاجتماعي، ولو ان ذلك حدث لما استطاع احد من هؤلاء ان يقف موقف المتفرج من تعاسة أمه داخل الفراش وخارجه. وأظن هنا ان الفنان مقاربة استطاع ان يتلمس تلك العلاقة البائسة بين الذكر والانثى داخل عائلته وخارجها ايضاً. وان تلك الآثار لم تكن واضحة في ابداعه الفني بل في سلوكه الشخصي وفكره السياسي ايضاً.

ومتفرعاً عن عامل الذكورة كثابت او صنوا له، يأتي عامل السلطة ثابتاً آخر لدى الفنان في أعماله. والسلطة كما ذكرنا تأخذ احياناً شكل الذكورة، ولكنها تبقى في مضمونها مستقلة ومعبراً عنها في « الحوائل » أو « الموانع » او « الرقابة » التي تأخذ شكل « الاشباح » او « الاسلحة » او « التخوف » الخ ... او كلمة ممنوع او حرام او لاتفعل وغيرها من مصطلحات النهي الشائعة في المجتمعات الشرقية، الضيقة منها بالذات ليست من اختصاص المؤسسة الادارية فحسب بل هي تخرج من مؤسسات اجتماعية كثيرة كالعائلة والتدين والمدرسة وغيرها. ان السلطة بمجملها وفروعها تحرم العلاقة بين الرجل والمرأة ولكنها تبارك ممارسة التعسف عليها، لذا فانه كثيراً مايختلط الجانب الاجتماعي للثابتين الذكورة والسلطة بحيث يضيع احياناً على الفنان القدرة على تجسيد اثر السلطة على الرجل أيضاً. وهذا الأمر يقودنا الى ثابت ثالث لدى الفنان هو ثابت الجنس الذي يتكرر في معظم اعماله، فلماذا الجنس؟

الجنس كمفهوم شائع هو تحصيل حاصل للعلاقة الوشيجة بين الذكر والانثى،

ولكنها عند وحيد تعني أشياء اخرى مضافة الى تلك السلمة . انها شيء شرعي واسامي في العلاقات الانسانية ، وهو بذلك الشعور يقف موقف الضد من التفكير الشرقي السائد. الجنس ليس دنساً وهو يؤكد على تغربه في بحر المفاهيم الشائعة والجنس مبارك ويصل احياناً الى مرحلة الحلم . ان الجنس عند الفنان مقاربة يدخل ضمن المقدسات الشرقية في الوقت الذي يسود فيه الشعور العكسي .

الدين — الطقوس هو ثابت آخر لدى الفنان ، والدين هنا ليس الفلسفة أو الروح بل هو المفهوم الاجتماعي للدين ، انه جملة مركبة من تصرفات الافراد والمجتمعات مزيجة بالتراكات القديمة المتوارثة. ان اللحية رمز للدين عند ناس معينين وهي في الحقيقة لم ترد في أي نص من النصوص فرضاً أو سنة ، الا أن الفنـان لا يستطيع ان ينفصل عن تلك الرؤية الشائعة للدين ، وهو كذلك احياناً يخلط بين السلطة والدين — الطقس ، الا أنه في كل الاحوال يعبر عن ذلك الثابت باكثر من اسلوب .

الاسطورة ثابت هام عند مقاربة . ماهي الاسطورة ؟ انها احياناً جماع لروح الشعب في معتقداته وتخيلاته واحلامه احياناً ، وانها الذاكرة الجمعوية ايضاً وذاكرة الفنان نفسه ، وانها التراث احياناً ، وانها الطقوس العفوية المتوارثة . انها الشرق في محاولة دائبة للفنـان لتمثل الكامل للمعطيات التي تعيشه ويعيشها ، ولكن هل يؤمن مقاربة مـلاً بتلك الطقوس ، هو ذا سؤال له قيمة والسلوك اليومي والحياتي للفنان لا يشير الى مثل هـذا الايمان المطلق ، فهل يعني أنـه يرسم كامل اعماله بلا وعيـه ، الجواب : نعم ، ومن هنا تنبع قيمة هذا الفنان .

نماذج المتغيرات :

عالج وحيد مقاربة في رحلته الفنية الطبيعة الصامتة والحيوية ، رسم الانسان والحيوان والاسلحة والتعاويذ ، ولكنه كان يلح بصورة مستمرة على تلك العلاقات التي تنشأ بين الانسان وضده ، والعلاقة الضد ليست دوماً العكس او الاختلاف ، بل هي كثيراً ماتكون بين المتشابهات نفسها . العلاقة بين الرجل والمرأة تحمل في طياتها التعاكس والتوافق في بحيرة من المؤثرات المختلفة ، وهـذا الأمر المتناقض يؤدي دوماً الى طبيعة الفنان القلقة ، اذا كانت متغيرات مقاربة كثيرة ولا يمكن هنا الا الاستشهاد ببعض منها .

من هي المرأة ؟ تجد المرأة في اغلب اللوحات ، وهـذا أمر طبيعي لدى جميع

الفنانين ، ولكنها عند وحيد موضوع رئيسي برؤى مختلفة ومتباينة. في البداية يتعلق الفنان بالأم لأنها كائن مضطهد من قبل الذكورة الشرقية. يمتزج الحب بالاحترام والتقديس، ثم يتطور هـذا السلوك الشخصي لديه ليفسحب على النساء اللواتي يدخلن حياته . هو يحترم المرأة ويصل به الأمر الى حد تقديسها . وتمزج الشهوة بالاحترام ليحلم احياناً عوضاً عن المرأة بكوابيس المتعة . انها متباينة في لوحاتـه ، المرأة الضعيفة الحالمة المنتظرة وعشرات المواقف المختلفة . ان المرأة التي يحبها الفنان نبيلة ومعطاءة ولكنها في أعمـاله متطهرة خلعت عنهـا الثياب والقشور لتستقبل المصير الذي تحـدده لها احلام الفنان .

ثمة متغير ملازم للمرأة ، هو الحب في كثير من اوضاعـه هو المرأة ، لذا فمفهوم الحب يرتبط بتغيرات المرأة بنفسها. ولكن رؤية الفنان للحب تتلازم بالحلم في كل أبعاده ومعانيه ، الحلم عند مقـاربة يصبح أحياناً بديلاً للاساطير . ولكن شكلاً . اذ يبقى للحلم قيمة لا تعادله أية قيمة . ان احلام وحيد تتكاثر وتنمو فيا يغفو أو يصحو يتحرك ويسكن . والحلم عنده ليس بديلاً للواقع ، انما هو هندسة وجدانية الواقع . ان احلامه تمتزج ايضاً بالاساطير ، ولكنه يستخدم الاساطير نفسها لصالح الحلم. حلم الفنان مقاربة عريض ولكنه بسيط ، متنوع ولكنه واضح . انه يرسم الصراع بين الخير والشر ولكنه يحلم بالسعادة . طفل صريح وصادق ولكن احلامه رجولة هي من أجل الآخرين، يحس بالمسألة الشرقية فنياً وحضارياً ولكنها لا تسيء اليه شخصياً ، لانه غير معقد . ان احلام وحيد مقاربة اخلاقية بالرغم من عريها . لذا فان التواصل بـين البشر بعضهم ببعض بالرغم من تناقضهم يعتبر متغيراً من متغيراته . التواصل باللون والخط والفكرة. هو واحد من خيوط النسيج الجميل لوحيد . انه متواصل مع ما يحيط به . أليف. بالرغم من رفضه للواقع . انه يتواصل مع الشعوذة لانه يرفضها ولا يؤمن بها .

الحديث عن فنان مبدع يحمل من الخطورة مالا تحمله أية قضية أخرى ، فمعرفة الانسان أمر صعب فما بال الحديث عن انسان مبدع هو الفنان ! قد تعرف شيئاً عن حياة فنان وانتاجه ، ولكن هل تكفي تلك المعرفة ؟ هل الفنان نفسه يعرف كل شيء عن نفسه ؟ هل اللوحة وسيلة للكشف عن الحقيقة ؟ أم ان الحقيقة في انتاج الفنان شيء ليس قيمة ، لأن القيمة تكمن في اللوحة وحدها !

سؤال هنا لابد منه ، هل وصل وحيد مقاربة المرحلة الملء او الاشباع؟الجواب

التقليدي يكون دوماً بأن الفنان الحقيقي يصل الى درجة الاشباع لأن لوحته ماعادت تحتمل اضافة أخرى ، فهل توصل مقاربة الى تلك المرحلة ؟

هذا الكائن الحي الذي نسميه اللوحة ، ما أشدّ ماتظلمه حين تخضعه المعادلات. الجمهور والناس كائنات حية متطورة وتخضع لشيء اسمه « حمض الزمن » يبقي لحظات جديدة ويغيب لحظات مضت ، لذا فان الحكم على لوحة بأنها مشبعة لن يكون صادقاً الا من خلال اشباع الطرف الآخر الذي نسميه هنا حس الآخرين المرتبط بالذاكرة ، فهل توصل هذا الحس الى مرحلة التشبع ؟ تلك قضية جدلية بالغة الأهمية لايمكن اغفالها حين نتساءل : هل وصل مقاربة الى مرحلة الملء والاشباع في اللوحة الواحدة ؟ والجواب عليها فذلكة نقدية تحتمل الانتظار لمدة لايمكن قياسها ، مدة قد نطلق عليها لفظة « الزمن الحضاري » لايكفي لطرف ان يدخلها وحده ، بل على الطرفين ، الفنان والآخرون ان يدخلاها ، ومقاربة في الطريق اليها .

لقاء مع

أنور عليم جانوف

سكرتير اتحاد الكتاب السوفييت

أجرى اللقاء: خلدون الشمعة

يشغل القاص والروائي « أنور عليم جانوف » منصب سكرتير اتحاد الكتاب السوفييت ، ورئيس اتحاد الكتاب الكازاخيين . قام « جانوف » مؤخراً بزيارة لسورية ، بحثاً عن « الفارابي » المعلم والفيلسوف والموسيقي الذي توفي ودفن في دمشق . كانت الرحلة روحية وحضارية قدر ماهي سياحية . ذلك ان رحلة البحث هذه استهدفت استحضار واستعادة ملامح من عالم « الفارابي » الذي يعتزم « جانوف » كتابة رواية تؤرخ له وإن لم تكن رواية تاريخية بالمعنى التقني للمصطلح . لقد أصبح « الفارابي » هاجس هذا الكاتب الذي يبدو مستغرقاً في موضوعه ، يتصرف بتواضع طلبة العلم ، ويمحض التراث المحلي والعالمي من الاحترام

ما يثير الدهشة . وقد التقيت بـ « جانوف » ولم يكن على لساني سوى اسم (جنكيز إيتماتوف) و (رسول حمزاتوف) من ادباء الجمهوريات الآسيوية من الاتحاد السوفييتي . ومن هنا فإن الحوار قد اتخذ منذ البداية منحى تعريفياً . من هو « جانوف » القاص الروائي؟.. إننا مقصرون في التعرف الى الأدب السوفييتي المعاصر وبخاصة ادب شعوبه الشرقية . اذن فلا بأس من الانطلاق من البداية :

يقول « جانوف » :

أول قصة نشرت ظهرت في عام (١٩٥٣) . أما مجموعتي القصصية الأولى فقد صدرت في عام (١٩٥٩) . لقد بدأت بكتابة القصص القصيرة أولاً قبل ان انتقل الى الرواية . في ذلك التاريخ اتصل بي الأديب الكازاخي الكبير (مختار أوزوف) الذي الذي يعتبر أحد أبرز الروائيين السوفييت . لقد استرعت انتباهه قصصي التي نشرت في الصحف والمجلات . قال (اوزوف) انه يريد كل مالدي من مخطوطات لكي يقرأها . واخبرني أنه قرأ كل مانشرته في الصحف والمجلات . واتبع (أوزوف) . ذلك بعبارة حاسمة : « أريد أن أؤكد لك انه يمكنك أن تكون كاتباً جيداً » .

وهكذا بدأت علاقتي بمختار أوزوف . لقد دشن إعجابه بنتاجي القصصي عندما كتب مقدمة خاصة لقصة طويلة لي . وكانت كتابة المقدمة من قبل هذا الكاتب الكبير حافزاً لي على متابعة نشاطي الادبي . ومنذ ذلك التاريخ حتى الآن ، صدرت لي ثمانية كتب ، كان آخرها رواية تاريخية بعنوان « المراسل » . وقبل هذه الرواية التاريخية ، كنت قد أصدرت رواية عنوانها « تذكار من أوترارا » نالت جائزة « نهرو » الادبية في الهند . وقد ترجمت هذه الرواية الى العديد من لغات العالم .

أما روايتي « الجبال الزرق » فقد حازت على جائزة الدولة . وكان نصيب القصة الطويلة التي اشرت اليها قبل قليل ، وكتب مقدمتها (أوزوف) جائزة اتحاد الشبيبة .

وبالنسبة لمهامي الادارية ، فقد تم انتخابي في الهيئة الادارية لاتحاد كتاب (كازاخستان) خلال المؤتمر الثالث للاتحاد . وفي المؤتمر الخامس لاتحاد كتاب (كازاخستان) ، تم انتخابي رئيساً له . وقبل ذلك أي في عام (١٩٧١) انتخبت سكرتيراً لاتحاد الكتاب .

(السوفييت) وذلك خلال جلسات المؤتمر الرابع ، كما انتخبت نائباً لرئيس اللجنة السوفييتية للعلاقات مع كتاب آسيا وافريقيا .

سؤال : — لقد فهمت انك تكتب بلغتك القومية ، اي الكازاخية . الى اي ارومة تنتمي اللغة الكازاخية ؟..

جانوف : — الكازاخية هي من اللغات (التركية الهندية).وأنا اكتب بالكازاخية كما أشرت . إلا أن اعمالي كلها ترجمت الى اللغة الروسية .

سؤال : — اود ان اسألك عن نهجك الادبي رغم انني اعلم ان الروائيين يكرهون الحديث عن مسائل نقدية ..

جانوف : — لقد ظهرت في الصحيفة الادبية لدينا دراسة خاصة عن النهج الأدبي لدي . وقد وصف نهجي الأدبي بأنه يكرس الاسلوب الملحمي الغنائي . ولكني احاول أن اكتب بطريقة معاصرة ، كيلا أجعل القارىء بعيداً عني . أعني انني أحاول أن أفسح المجال للقارىء كيما يتأمل ويفكر . وفي كثير من الأحيان أجدني اقرب الى التكثيف مني الى البعثرة والتشتت ، سواء كان ذلك فيما يختص بالوصف الروائي او بحركة الشخصيات .

إن النهج الأدبي للكاتب ، لايتبلور من خلال كتابته فحسب ، بل انه يبدأ بالتشكل والنمو خلال مسيرته الحياتية . وثمة الكثير من النقاشات حول منهج الواقعية الاشتراكية كما هو الشأن بالنسبة لبقية المناهج الاخرى . وانني لأفهم الواقعية الاشتراكية على انها الطريقة التي يعبر بها الكاتب عن نفسه في ظروف اجتماعية معينة . وهذا المنهج لايجسده الطابع السلوكي للفرد وحسب ، بل يجسده الطابع الايديولوجي ايضاً .

سؤال : — إذن فأنت تدعو الى منهج الواقعية الاشتراكية بهذا المفهوم الذي عرضته .

جانوف : — اود ان اؤكد انه مهما كان نهج الكاتب فانه لايجوز إطلاقاً ان يتصرف بازدراء تجاه نهج أدبي لشعب آخر . انني استطيع ان احترم ذوقي ولكني لا انكر اذواق الآخرين . استطيع مثلاً ان احرث ارضي ولكن علي الا ازدري جبال

الآخرين . إن المبدأ الأساسي للواقعية الاشتراكية هو تحريم الدعاية للحرب والعداء بين الشعوب . وطبقاً لدستور بلادنا تجري ملاحقة من يحرضون على الحرب . ان منهج الواقعية الاشتراكية الذي ولد مع غوركي وماياكوفسكي ثم شولوخوف ، يمكن إخضاعه للمناقشة ، ويمكننا ذكر العديد من الاسماء الأخرى ... بالطبع .. اسماء كثيرة ارتبطت بهذا المنهج واخلصت له . وينسحب ذلك على جميع الآداب القومية لدينا .

سؤال : ـ السؤال التقليدي الذي يطرح دائماً يتصل بالعلاقة بين الشكل والمضمون . هناك وهم شائع مفاده اننا لانستطيع ان نفصل بين الشكل والمضمون وكأن الشكل هو قشرة الموزة والمضمون هو الموزة نفسها . ولكن الحقيقة اننا عندما نفصل في العملية النقدية بين الشكل وبين المضمون فان ذلك يتم على اساس الفصل المنطقي وليس الفصل الواقعي .. ماذا يمكن ان تقول بالنسبة لهذا السؤال التقليدي ؟..

جانوف : ـ أؤكد على العلاقة بين الشكل والمضمون . إن لهب هذه المدفأة الذي أراه يشتعل امامي هو المحتوى . ولو لم يكن شكل المدفأة العام على هذا النحو لما نشرت الدفء في الغرفة التي نجلس فيها ، وهذا الشكل الذي تم اختياره لصنع المدفأة جرى على أساس أن تكون مفيدة للناس وذات نفع عميم لهم لا أن تكون عديمة الجدوى

من هنا فان الواقعية الاشتراكية لا تركز على المضمون بمعزل عن الشكل .

إن شعراءنا يكتبون اليوم على الطريقة الحديثة . وثمة آخرون يكتبون على طريقة مايا كوفسكي .

وهكذا فالسؤال وارد بالنسبة لهذه النقطة : العلاقة بين الشكل والمضمون . إن الحديث عن الشكل يعني الحديث عن القيم الانسانية العامة التي نفهم بواسطتها كيف تتحرك البشرية الى أمام . أنا لست ناقداً ولا منظراً ادبياً ولهذا فمن الصعوبة بمكان ان أعطي حكماً خاصاً بي . ولكن دعني أتحدث عن تجربتي العملية . عندما أبدأ بالكتابة أجدني معايناً لكثير من الصعوبات ، وأناقش آلاف الاحتمالات المتعلقة بالطريقة التي يمكن أن أكتب بها ما أريد أن أقوله ، ولهذا فانني افكر طويلاً بمغزى ومحتوى الشيء الذي أريد أن أقوله . وأحاول أن أجد الشكل الذي يساعدني على اظهار فكرة ما بشكل أعمق

وأوسع مدى ، وبكلمة واحدة فانني أطمح أو فلنقل اننا نطمح إلى حالة من الانطباق الأمثل بين الشكل والمضمون في منهج الواقعية الاشتراكية .

سؤال : — وماذا يعني عن الواقعية الاشتراكية في بلدان لما تتحقق فيها الاشتراكية بعد . ؟ .. كيف ترى هذه المسألة . ؟ ..

جانوف : — إن هذه الاشارة تذكرنا بواقع آخر . المسألة لا تتعلق فقط بالدول الاشتراكية الأخرى ، فلدينا آداب قومية حديثة جداً . هناك آداب يبرز فيها الأدب المروي . ان طرق البحث مختلفة بطبيعة الحال . هذا يعود الى مستوى القارىء والى مدى ثوريته والى التقاليد الثقافية السائدة .

ويمكن لأدب كل شعب من الشعوب ان يختار طريقه الخاص للتطور . (هذا رأي شخصي) . ولكن الشيء العام الذي يمكن أن يؤالف بين هذه الطرق هو مبدأ (غوركي) . إن (غوركي) لم يبلور مبادىء نهائية للواقعية الاشتراكية . لقد كانت مجموعة من الاقطار التي يمكن للكتاب ان يقفوا عندها وهم يولدون بتشكيلات جديدة ويطمحون لاغناء أدب وثقافة مجتمعهم . لا نستطيع طبعاً أن نكتب الآن بالطريقة نفسها التي كتب بها فولكلورنا الشعبي ، كما لا يمكن لأدبائكم اليوم أن يكتبوا على طريقة قصص الف ليلة وليلة . وكما تعلم فان الأدب هو جزء من البنية القومية . فاذا وجد الأدب في بلد اشتراكي يكون تعبيراً عن هذا المجتمع . ومهما كان الشكل الذي يختاره كتاب هذا الادب فان المنهج يظل واحداً . هذا رأيي الشخصي ككاتب .

سؤال : ماعلاقة الادب الكازاخي بالتراث الشرقي والتراث الغربي؟

جانوف : — الوضعية الاجتماعية بالنسبة لنا كانت تختلف بعض الشيء . فالشعب الكازاخي يمتلك ارضاً واسعة تمتد بين الشرق والغرب . وقد استوعب الادب الكازاخي الأدب العربي والفارسي والروسي في آن واحد ، لقد كان الادب الكازاخي مع نفسه دائماً . لان شكل حياة المواطن في بلادنا كان مختلفاً . وقد ابدع الشعب الكازاخي الكثيرين من ابطاله . وكان الفن الاول في الادب الكازاخي الشعر المكتوب بطريقة النثر الفني ، وكانت الموضوعات المطروحة في تلك الملاحم النثرية تتعلق بالحب والبغضاء بين القبائل . وثمة

القصائد الملحمية الكثيرة التي تتحدث عن مسألة الدفاع عن الوطن. وما نسميه الآن بالادب الشوري يعود في اصوله الى القرن التاسع عشر . وما نسميه الآن بالشعر الفلسفي يعود بجذوره الى القرن التاسع عشر أيضاً ، أما ما يتعلق بروسيا فلنا حدود مشتركة معها منذ آلاف السنين . وفي اول اثر ادبي روسي قديم وعنوانه « كلمة عن فوج ايغور » ، توجد أسماء كازاخية كثيرة .

وفي الاساطير الروسية القديمة الكثير من المعارك بين العمالقة الروس وبين الاشباح الخارجيين . ويقصد بهذه الاشباح الشعب الكازاخي . وقد لقب شعبنا باسم الشعب الكازاخي من قبل شعوب العالم ، كل على طريقته . أما نحن فنسمي أنفسنا كذلك ، باعتبار أن المصطلح يعني بلغتنا : « الرجل الحر ذو الارادة » .

إن شعبنا يصادق الشعب الروسي بملء حريته . وكذلك الامر مع بقية جيرانه . وقد أسس ثقافته الخاصة مستفيداً من ثقافات الشعوب الاخرى . وكانت الثقافة الروسية أقرب روحياً الى الثقافة الكازاخية . ولهذا السبب لعب الادب الروسي دوراً كبيراً في تطوير الادب الكازاخي . وكما كان يعرف الكازاخيون « قصص الف ليلة كذلك دخل الشعر الروسي بغنائيته الى أدبنا الكازاخي . هناك أصداء لبوشكين وغوته وبايرون . إن مؤلفات هؤلاء قد ترجمت لاول مرة وكان لها أثرها الكبير .

ومن طريف الامور ان الشعب الكازاخي الذي كان امياً تعرف أول ما تعرف على (بايرون وغوته) .

عندما كان شعبنا أمياً لم يكن يعرف هؤلاء . وفي أواسط القرن التاسع عشر ظهر لدينا شاعر كبير هو (آباي) الذي وضع اسس اللغة الادبية للشعب الكازاخي وأبدع موسيقاه .

وفي ذلك الوقت ترجم (آباي) اشعار هؤلاء وغناها بألحان كازاخية وتناقلها الناس باعتبارها أغان كازاخية .

سؤال : ــ ما هي الأسماء الادبية الاجنبية المطروحة في اوساط القراء الكازاخيين . ؟ . .

جانوف : ــ لنبدأ بالشرق الاقصى . ان اشعار الياباني (أكوتا غاوا) تحظى

بشعبية واسعة . وهو احد الشعراء الكبار في بداية القرن العشرين . وكذلك الامر بالنسبة لآثار الكاتب الياباني « كوبو آبي » والكاتب الكوري (لي غي إن) . ومن الصين هناك (لوسين) .

ومن الآداب الغربية ترجت اعمال همنغواي ، وسالنجر ، ونيرودا ، ولوركا .

سؤال : ـ ماهو موقع الادب العربي من هذه اللوحة .. ؟ .. (الادب العربي القديم .. والادب العربي الحديث) .

جانوف : ــ إن الأدب العربي القديم يترجم لدينا على نحو واسع .. بدءاً من عصر هارون الرشيد والمأمون إلى ألف ليلة وليلة .

وقد قرأت جرجي زيدان ، وطه حسين ،والكثير من الأسماء التي لاتحضرني الآن، قرأتها بالروسية وبالكازاخية . لدينا كاتالوكات تضم كل مايترجم من آداب . ومن الصعب أن يتابع المرء حتى العناوين . في العام الماضي فقط صدرت ترجمة لمجموعتين شعريتين لشعراء سوريين ، وصدرت ترجمة لمجموعتين قصصيتين لكتاب سوريين أيضاً . هذا بالاضافة الى مجموعة شعرية تضم قصائد فلسطينية من بينها قصائد (محمود درويش) . وبالطبع هناك اهتمام عملي بالأدب في مصر والعراق . لايمكنني أن أذكر كل الأسماء الآن لانها كثيرة جداً . لقد ظهر هذا الاهتمام قوياً لدينا خلال ربع القرن الأخير .

سؤال :ــ لقد برز اسم (جنكيز ايتماتوف) بقوة في المحيط العربي .. ما رأيك بايتماتوف .. ؟ ..

جانوف : ــ لقد نسيت أن أذكر لك أن . (مختار أوزوروف) قد كتب مقدمتين الأولى لكتاب لي والأخرى لجنكيز إيتماتوف . كان أوزوروف يتمتع بنفوذ واسع لدى الكتاب الآسيويين . وكان احد كتاب الجمهورية الأوائل الذين حصلوا على جائزة لينين . وقد حصل على عدة جوائز من الدولة على قصصه الأولى التي نشرها عندنا .

كان (أوزوروف) أكاديمياً . وكان يحاضر في جامعات (ألما آتا) و (موسكو) و (لينينغراد) .

أما (إيتماتوف) فقد ساعده (مختار أوزوروف) وأخذه إلى (موسكو)

وعرفه على (أراغون) قائلا : — هذا أديب ينبغي الاهتمام به ، إنه ممثل شعب جار لنا وقليل العدد .

وقام (أوزوروف) بمهمة التعريف بكتاب آخرين ك (رسول حمزاتوف) من جمهورية داغستان . وقد تعرف القراء في العالم على هؤلاء عبر ترجمات إلى الروسية .

وثمة محاولات لدينا لترجمة آثار الكتاب السوفييت إلى اللغات الأجنبية .

سؤال : — كيف تقيمون العلاقات الثقافية مع الوطن العربي..؟..

جانوف : — نحن نؤكد باستمرار على أهمية العلاقات الثقافية المتبادلة مع الوطن العربي ونريد في الوقت نفسه أن تتجدد هذه التقاليد المتعاقبة على أسس متينة .

ولنعد الى (الفارابي) الذي بدأنا به الحديث . ان (الفارابي) جذر تاريخي قديم ضارب في أرض الشرق العربي . ان عقله وعلمه ملك للجميع فهو ابن للانسانية جمعاء . ولو انه ولد على أرض كازاخية وجاء الى هنا غلاماً للخليفة المقتدر وصار أكبر علماء العالم في هذه المنطقة .

وقد كتب (الفارابي) أشهر مؤلفاته هنا في الشام القديمة وترجمت آثاره من العربية إلى الكازاخية . وقد ظهر من هذه الآثار ستة مجلدات حتى الآن ، ونقوم حالياً بالكشف عن أشعار مجهولة له صدرت مؤخراً في ديوان صغير باللغة العربية .

ومن جهة أخرى اتخذت (اليونسكو) قراراً بالاحتفال بذكراه في العام القادم وذلك بمناسبة مرور (١١٠٠) سنة على ميلاده . لقد تأخر اتخاذ هذا القرار لأن (الفارابي) ولد في عام (٨٨٠) وهذا يعني أنه في العام المقبل يكون قد مضى (١١٠٤) من الأعوام على وفاته .

وفي خريف (٩٥٠) توفي الفارابي في مكان غير بعيد عن دمشق وكان شيخاً يناهز الثمانين من العمر .

— وماذا عن روايتك التاريخية التي تعتزم استيحاء شخصية (الفارابي) بها..؟..

جانوف : — لأريد الكتابة عن (الفارابي) لأنه فيلسوف عظيم . كل ما أطمح اليه هو أن أفهم ماقام به وأن أقتفي آثاره . لقدمضت عشر سنوات وانا ادرس (الفارابي) والمصادر المتعلقة بالفارابي مبعثرة في العديد من دول العالم في الهند وايران وسوريا واشعر

بالرهبة في الكتابة عن مثل هذا الشخص لأنه مثلما كان انساناً بسيطاً كان ايضاً عملاق العالم بأسره. ان تكتب عنه كحكيم معناه ان تفهم كل فلسفته ، وهذا امر صعب التي مسكون به ، واريد ان اكتب مهما كلف الأمر شيئاً عن حقيقة الفارابي عن الانسان الذي نظر عبر الف عام في المستقبل ، عن الانسان العاشق ، عن الانسان ذي المأساة الكبيرة في حياته الخاصة . ان يكون المرء فيلسوفاً كالفارابي لايكفي ان يكون لديه العلم فقط ولكن القدرة الجسدية الهائلة . يجب ان نتحدث للناس عن هذا الانسان لأن العالم يعرف العرب من خلال الف ليلة وليلة فقط .

لقد تعرف العالم على (ارسطو) و (سقراط) و (افلاطون) بفضل الفارابي . ولهذا كان (الفارابي) يسمى (المعلم الثاني) بعد ارسطو ، رغم ان مفكراً ككونفوشيوس عاش قبل (الفارابي) . إن فضل (الفارابي) هو جمعه مابين منجزات الشرق والغرب ، ونحن نسير على هدي آثار (الفارابي) .

من خالد محيي الدين البرادعي

جامعة الكويت تعيد كتابة التاريخ العربي

الحكاية من البداية

أي الكتاب العالميين قال : « التاريخ بوابة المعرفة » لا أدري ، بل لم أعد أذكر بالضبط في أي الكتب مرت هذه العبارة . وليس غريباً ان يحتفر اشعاع معين شكله في سهول الذاكرة بينما تمحي الاداة التي شع منها .. بل وتمحي اليد التي حملت هذا الاشعاع.

وكلما مرت في الذهن أو لامست صفحة الادراك عبارة تتعلق بالتاريخ فنأوسيرة وتسجيلا وتحليلا وعلماً ، تقفز تلك العبارة بشكل يتوازى مع طول العبارة الوافدة .. « التاريخ بوابة المعرفة » .

والحلقة العلمية التي انهت اعمالها على مدرجات كلية الآداب في جامعة الكويت « حلقة إعادة كتابة التاريخ العربي والاسلامي » والتي اشترك فيها أربعة عشر عالماً من رجالات التاريخ مؤرخين واساتذة ومختصين من الوطن العربي ، جاءت لتؤكد عبارة ذلك الكاتب ، بل ولتعدها بعطاءات جديدة واشراقات اكثر حداثة ، بعد ان اثبت هؤلاء

المهتمون . « اعادة » كتابة تاريخنا من جديد ، ان التاريخ ليس تسجيلاً لاحداث الماضي الغابر فقط ، بل هو بطانة الحاضر ، وقبس في آفاق المستقبل .

وقبل أن نتكلم عن اعمال هذه الندوة، لابد من تغطية الفكرة تاريخياً ، والاشارة الى ما ظهر في هذه الندوة من ابحاث ودراسات وتخطيط لكتابة التاريخ انما هو ثمرة لجهد طويل ومرير مر بعدد من المراحل قبل ان يصل الى الامه الحاضرة .

بعد حرب حزيران عكف الانسان العربي على محاسبة ذاته ، وظهـر الى الوجود العربي « النقد الذاتي » بشكل حاد وعلى كافة المستويات الفكرية والسياسية والاجتماعية، ومن خلال هذا النقد والقسوة في محاسبة الذات ، تم حضور العربي في الوجود بصورة جديدة كانت حرب تشرين واحدة من اشراقاتها .

وكان من ضمن الاهتمامات التي شدت اليها المثقفين العرب — كلهم تقريباً — النظرة الفاحصة الى التاريخ العربي ، وهل كان هـذا التاريخ ضمن اطاره المدون احد اسباب هزيمة حزيران ؟

ولعل الطائفة المهتمة بقضايا التاريخ انقسمت الى فئتين تختلفان في الوسائـل وتتفقان في ضرورة الاجتهاد ، بعد ان اجابت بغالبيتها بكلمة « نعم » على هذا السؤال الكبير والخطير .

فئة قالت : الذين تعاملوا مع التاريخ تعاملاً سلبياً هم الذين انهزموا . والتعامل السلبي هو الاتكاء على جدران الماضي ، والاحتماء بالامجاد الذاهبة ، والعودة بالذات الى مغاور الحضارة التي تشع على الاحقـاب لكنها لا تنتقل . . أي لاتتحرك ، ومثـل هذا الاحساس نحو التاريخ تعامل سلبي يشل المعاصرين عن الحركة ، ويشل معطيات التاريخ عن الاشراق .

ولو لم يكن هذا التاريخ عظيماً بحجمه وحرارته وأمجاده لما شد اليه اللاحقين بمثل هذا الجبروت الساحق ، وعطلهم عن متابعة العطاء .

وفئة قالت : بل تاريخنا المدون ، أحد اسباب هزيمة حزيران لأنه لم يكن — على سعته وكبر حجمه — علمياً في طرائق تدوينه ، فهو مفكك غير مترابط . بمعنى أنك تستطيع قراءة ما يتعلق بالنواحي الادبية والفكرية ، بينما انت حائر مضطرب عندما تحاول قراءته من الناحية الاقتصادية ، أو الاجتماعية . وتستطيع ان تقرأ مجلدات كاملة

في تاريخ مدن معينة ، — دمشق — بغداد — مكة — البصرة — حلب — بيوقاعلى جغرافية الوطن العربي مناطق يلفها الظلام تاريخياً ، ولا نعلم عنها شيئاً . واكثر من هذا قيل : كان « تاريخنا تاريخ افراد لا تاريخ شعوب » وكانت غزارة التدوين في كل عصر منوطة بنشاط الحاكم — الخليفة — السلطان — الملك — القائد العسكري — . ومن هنا نجد بوضوح فترات سياسية كاملة غارقة بالظلام كمعظم اجزاء تاريخ بني امية ، واجزاء من تاريخ بني العباس ، ولا بد ان نذكر ان التاريخ العلمي العربي مبتور ومهزوز من حيث تلاحقه وطريقة تدوينه . وكل مثقف عربي يعلم أن بعض علمائنا الأقدمين معروفون في أوربا اكثر من معرفة أبناء جلدتهم بهم ولعل ابن الهيثم صاحب النظائر المشعة واحد من أمثلة دامية مبكية وكثيرة .

وفي جامعة الكويت نبتت فكرة جديدة سرعان ما نمت وأورقت واستولت على اهتمامات نفر من أساتذتها ، وهي إعادة كتابة التاريخ بأسلوب جديد . ووقف على رأس هذه الفكرة في أوائل السبعينات الدكتور شاكر مصطفى المؤرخ واستاذ التاريخ في جامعة الكويت ، والدكتور حسين مؤنس المؤرخ . ورئيس قسم التاريخ في جامعة الكويت . وتمت قناعة القرن وصلت الهم الفكرة بضرورة صياغة تاريخنا بشكل متكامل ومتلاحق وعلمي يخدمنا كمعاصرين ويخدم أجيالنا اللاحقة . ويخدم التاريخ نفسه من حيث إضاءة المناطق المظلمة وتسوية الاضاءة — منطقياً — على مناطقه الساطعة الانارة . ولأن هذا العمل خطير من حيث مسؤولية الاقدام عليه ، ومرهق من حيث تكاليفه المادية . رافقته ضرورتان :

١ — يكتب هذا التاريخ في الكويت — وفي الجامعات بالذات — لأن الثقل المادي متوفر في الكويت سواء في وزارة التربية أو في مخصصات الجامعة .

٢ — لأن هذا العمل مسؤول تاريخياً وانسانياً لابد من إشراك كل العلماء العرب بانجازه حتى يخرج من حيز الفردية إلى مستوى العمل العلمي الجماعي

ونقلت الفكرة إلى مجلس الجامعة فأقره على الفور . وحملها مدير الجامعة السابق الدكتور عبد العزيز كامل إلى اتحاد الجامعات العربية في القاهرة . وبعد التداول على مدار سنة كاملة أقر المشروع وحلقة العمل التي اتمت أعمالها اليوم في جامعة الكويت كانت أولى ثمراته على مستوى التحقق الفعلي .

وعلينا في هذا الصدد أن نؤكد بأن فكرة كتابة أو إعادة كتابة التاريخ

العربي – بطريقة علمية ، وأسلوب بعيد عن التهويل والتعصب والفردية ، تمت بنمو الوعي القومي واتساع الثقافة المعاصرة . ومن بدائع الأمور لا من غرائبها أن مثل هذه الفكرة استوت ومنذ سنوات على اهتمامات الكثير من مثقفينا العرب . وعقدت من أجلها ندوات في الاذاعات والاذاعات المرئية في أكثر من قطر عربي . وألحت عليه بعض الهيئات الأدبية والعلمية عبر الصحف والمجلات . في الوقت الذي كانت فيه هذه الفكرة تأخذ طريقها إلى مجال التحقق هنا في جامعة الكويت .

هيكل المشروع سابقاً :

من الانجازات النظرية التي استطعنا الوصول إلى معرفتها قبل الندوة الحالية ،أن جامعة الكويت قامت بتكليف عشرات المؤرخين والمتخصصين العرب للاسهام في مشروع كتابة التاريخ العربي والاسلامي ، كل حسب اختصاصه ، وبعد أن تحدد معه نوع العمل أي الفرع الذي سيكتب ضمنه ، وتمنحه مكافأته المالية ثم تتولى هي طباعة المجلدات تباعاً . وقد تحمل المجلدات إسم جامعة الكويت على غرار تاريخ كامبيردج .

ولم تحدد المدة التي يستغرقها انجاز المشروع ولاعدد المجلدات . وهاتان النافذتان تظلان مفتوحتين إلى ان يستكمل المشروع شكله العلمي المتكامل .

وستكون البداية في تحقيق المشروع بداية او نواة لمركز ابحاث علمي للتاريخ ، لاينتهي عمله بانتهاء المشروع ، بل يتخذ طوراً جديداً بعده ، ويكون اول مركز ابحاث من نوعه في الوطن العربي .

بل ويكون ظهور المشروع إلى حيز الوجود على ايدي جماعة متخصصة ، بمثابة أيقاف للتشويه الذي لحق بتاريخنا المدون واستغله اعداء الحضارة العربية ابشع استغلال ، كما يكون حلقة جديدة في طريقة علم التاريخ من جانب التدوين للاجيال المقبلة ، وهذا يوفر الكثير من الجهود الفردية التي يبذلها المخلصون والامناء في تدوين الأحداث وصياغتها او تحليلها . بنفس الوقت الذي يقدم فيه صورة الماضي من كافة زواياها . فلا ينمو تدوين الغزوات والأحداث العسكرية على حساب معرفة حياة الملايين من الناس الذين عاصروها .

ضمن هذه الأطر العامة وغير المحددة فهمنا من بعض القائمين على المشروع هيكله العام .. وظلت صورته في اذهاننا عرضة لكثير من التساؤلات التي تطرح نفسها امام

هذا العمل الكبير غير المحدد تفصيلياً إلى ان انعقدت اولى حلقات تنفيذه خلال الايام الخمسة الماضية ، بحيث ظهر هيكل المشروع العام من شكله العائم والفضفاض إلى حيز التفصيل والتخصيص ، وبشيء من الدقة والتحديد ؛

أول حلقة في سلسلة المشروع :

أما حلقة العمل الأولى التي انعقدت على امتداد خمسة أيام فكانت الخطوة الأولى في انجاز هذا المشروع الضخم وناقشت في جلساتها خطوات المشروع . ومن أهم النقاط التي عولجت فيها (١) :

١ – دراسة كل ما يتعلق بتقسيم المجلدات .

٢ – دراسة رغبات الهيئات والمؤسسات العلمية العربية في الاسهام بهذا المشروع .

٣ – دراسة المقترحات الخاصة بالأساتذة والمؤلفين الذين سيتولون اعادة كتابة وتوزيع المجلدات عليهم من خلال الرغبة والاختصاص .

٤ – مناقشة طريقة النشر ، والفترات الزمنية التي تفصل بين مجلد وآخر .

وأبرز الذين شاركوا بجهد ملموس في انجاح جلسات هذه الحلقة التي أجمع المشاركون على اعتبارها الخطوة الأولى أو الجهد التمهيدي للمشروع :

الاستاذ الدكتور محمد مرسي أحمد .الامين العام لاتحاد الجامعات العربية .الاستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم رئيس الجمعية التاريخية بالقاهرة . الاستاذ الدكتور صالح أحمد العلي رئيس قسم التاريخ بجامعة بغداد . الاستاذة الدكتورة زاهية قدورة، عميدة كلية الآداب بالجامعة اللبنانية . الاستاذ الدكتور عبد العزيز الدوري من الجامعة الاردنية . الاستاذ الدكتور عبد العزيز عبد الله مدير جامعة الرياض . الاستاذ الدكتور محمد الطالبي من جامعة تونس. الاستاذ الدكتور عبد الكريم كريمة من جامعة محمد الخامس بالرباط . الاستاذ الدكتور نور الدين حاطوم أستاذ التاريخ الحديث بجامعة الكويت . اضافة الى صاحبي فكرة المشروع الدكتورين حسين مؤنس وشاكر مصطفى .

(١) انعقدت هذه الندوة في قسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة الكويت بين الخامس والعشرين والثلاثين من شهر تشرين الثاني « نوفمبر » ١٩٧٤ . وافتتحها الأستاذ جاسم خالد المرزوق وزير التربية والرئيس الاعلى للجامعة .

وحتى لا تكون جلسات عمل الحلقة غائمة أمام جمهور المثقفين والمهتمين ، أضاءها عدد من المشاركين فيها بكلمات تمهيدية كانت شهادة لشرعية هذا المشروع الكبير . فقال الدكتور محمد مرسي أحمد في اليوم الاول لافتتاح الندوة : « كلما زاد الوعي القومي في العالم العربي والاسلامي . زادت الحاجة الى كتابة علمية تضمها مجموعة من الكتب لتكون مرجعاً للدارسين وأهل الفكر . تاريخاً يجمع بين المستوى العلمي الرفيع والمادة الغزيرة مع التركيز وبساطة العرض ، تعطي صورة صحيحة عن الدور الحضاري والانساني للأمة العربية » . وهذا مجرد رسم تقريبي لضرورة المشروع . أما الدكتور حسين مؤنس فيقدم تبريراً لمشروعية الكتابة بقوله :

«ما من شعب من شعوب الدنيا ذات الحضارة الا وقد كتب تاريخه أكثر من مرة. ففي كل الامم الكبرى التي تحاول أن تلحق بها في ركب الحضارة قام العلماء بكتابة تاريخها في كل صورة ممكنة من الموجزات الصغيرة والمتوسطة الى المطولات ذات الاجزاء الكثيرة ، لان الامم الواعية حريصة جداً على أن تدون تاريخها لا مجرد تسجيل الامجاد وتعرّف مواضع الاخطاء في الماضي ، بل لكي تستكمل شعورها بوعيها وتحدد مكانها في هذه الدنيا ، فان التاريخ ليس مجرد ذكر للماضي واشادة بأمجاده ، بل هو نوع من حساب النفس يقوم به كل جيل من أجيال الامة حتى تشعر الأجيال المتوالية بما قدمت أمتها لنفسها ولغيرها من خير وبما تستطيع ان تقدمه في حاضرها ليكون ذلك دليلاً ومرشداً للجيل الراهن على الطريق الذي ينبغي ان تتجه فيه الامة كلها لتكون في كل يوم أهدى وأرشد سبيلا .

ومشروعنا الراهن يحاول أن يقدم هذه الخدمة للأجيال الراهنة والقادمة من أمة العروبة والاسلام .

ولقد حرص أجدادنا من أيام محمد بن إسحق ، على تسجيل تاريخ أمة الاسلام والعروبة، وقد دفعهم الى ذلك احساسهم بأننا أمة مجيدة جديرة بأن يدون تاريخ ماضي من اجيالها ليكون نبراساً للمعاصرين والقادمين. ومضت الاجيال تكتب التواريخ العامة للعروبة والاسلام، ثم تراخى هذا التقليد الجليل في عصور الانحدار السياسي وما اعقبتها من نكبات الاستعمار ، ثم عادت امم الاسلام والعرب الى النهوض وعاد معه الشعور بضرورة العودة الى تدوين التاريخ ، فقام المؤرخون بتأليف مجلدات كثيرة في التاريخ الاسلامي والعربي ، وبقيت الحاجة الى كتابة هذا التاريخ كاملاً في صورة قصة واحدة تقص تاريخ امة العرب والاسلام كوحدة متكاملة تسير في طريق واحد .

وقد أحسسنا من سنوات أن لدينا من المؤرخين من يستطيع النهوض بهذا الواجب الكبير ، ففي يومنا هذا يوجد في بلاد العروبة وجامعاتها أساتذة اجلاء ومؤرخون موهوبون ، ولو اجتمعت ايديهم في العمل لحققت ذلك العمل الجليل ، فاستقر رأينا على أن نحاول القيام بهذا العمل وفاء بحق الامة العربية على مؤرخيها في ذلك الجيل .

وقد وضعت المذكرة الاولى للمشروع على هذا الاساس ، وهو كتابة التاريخ العربي والاسلامي موسعاً مفصلاً ، اقترحت ان يكتب على اساس علمي سليم ، وتراعى فيه كل قواعد التأليف العلمي في التاريخ من ناحية الموضوع والشكل ، لاننا نريد ان تكون مجلدات هذه السلسلة نماذج يحتذيها المؤلفون في التاريخ في تآليف أبحاثهم .

وستراعى في كتابة مجلدات هذه السلسلة النقط الاساسية التالية :

١ — وحدة الشعوب الاسلامية جميعاً وان اختلفت الدول ونظم الحكم .

٢ — ترابط الامة الاسلامية العامة ، خاصة في حالات تعرضها او جانب منها لخطر خارجي يستهدف الاسلام أو سلامة الوطن العربي أو الاسلامي او جزء منها .

٣ — وحدة التيارات التاريخية العامة التي مرت ببلاد الاسلام كلها سواء في تاريخها منذ دخلت رحاب الاسلام واصبحت اعضاء في امته التي وضع اساسها ودستورها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٤ — اظهار العطاء الحضاري الاسلامي العربي للحضارة العالمية وبيان استمراره وفاعليته وقيمته الرفيعة .

٥ — الالتزام بالخط الاسلامي العربي العام وتجنب كل لفظ أو اشارة يمكن أن تمس شعور العرب والمسلمين .

٦ — تجنب مشاعر التعصب والتفريق بين جماعة اسلامية واخرى وتحاشي تيارات التعصب التقليدية الشائعة في بعض مؤلفات التاريخ المتداولة في البلاد العربية واعتبار المسلمين أمة واحدة واعتبار غير المسلمين من سكان الوطن العربي والاسلامي جزءاً من الامة العربية الاسلامية تراعي عقائدهم وتحترم مشاعرهم ويبين في وضوح وإنصاف ما قاموا به من مساهمات كبرى في خدمة الحضارة الاسلامية والعربية ، وذلك

لأن الاسلام دين تسامح ومساواة وإخاء ومودة ولأن العالم العربي ملك لكل سكانه من العرب مهما اختلفت اديانهم .

٧ — تحري الدقة التامة في كتابة هذا التاريخ والاهتمام بإبراز الحقائق وجدها على اعتبار ان تاريخ امم الاسلام حافل بنفسه بالمفاخر والامجاد وليس بحاجة إلى أي مبالغة .

وفيما عدا ذلك لن نتدخل في آراء المؤلفين ، فلكل منهم أستاذ في مادته وله الحق في أن يروي التاريخ ويفسره بحسب ما يرى ، على اعتبار انه مسؤول عما يبدي من آراء .

وعبر الجلسات المطولة التي نوقشت فيها كل الآراء والنظريات المتعلقة بخطر المشروع وضرورته ، تشكلت لجنة متفرعة عن الندوة لصياغة الخطوط الرئيسية التي أقرت فوراً وستأخذ مجالها التنفيذ مباشرة.وسيكون المشروع كما أقر على الشكل التالي:

تاريخ العرب والاسلام موسوعة تاريخية مؤلفة من سبع حلقات .

الحلقة الاولى تتضمن أربعة مجلدات

المجلد الاول : يشمل تاريخ العرب قبل الاسلام بكل مناحيه السياسية والاجتماعية والاقتصادية .

المجلد الثاني : ويشمل السيرة النبوية وعصر الرسالة ، وصياغة علمية جديدة لأحداث تلك الفترة من كافة جوانبها .

المجلد الثالث : ويشمل عهد الخلفاء الراشدين ، وعهد الأمويين ، والفتوحات العربية وانتشار الاسلام في العالم في تلك المرحلة .

المجلد الرابع : وهو يخصص للحديث عن التنظيم الاداري والمالي ، والتطورات الاقتصادية التي رافقت تلك الفترة من تاريخ العرب والمسلمين ، مع تركيز خاص على التطورات الاجتماعية في تاريخ مرحلة مابعد الاسلام .

● الحلقة الثانية : وتتضمن اربعة مجلدات وتشمل تاريخ العالم الاسلامي من أوائل الحكم العباسي حتى أواسط القرن الرابع الهجري .

المجلد الاول : عن التاريخ السياسي للدولة العباسية .

المجلد الثاني : التاريخ السياسي للدويلات .

المجلد الثالث : التطور الاقتصادي والاجتماعي في العصر العباسي .

المجلد الرابع : ويشمل تاريخ المغرب العربي والاندلس من بداية الفتح حتى بعث الخلافة الاموية . مع الحديث عن المناحي الاقتصادية والاجتماعية في المنطقتين — المغرب — والاندلس .

● الحلقة الثالثة : وتخصص لتاريخ العالم الاسلامي من اواسط القرن الرابع الهجري الى اواسط القرن الخامس ، وتضم اربعة مجلدات :

المجلد الاول : ويشمل البويهيين ومعاصريهم .

المجلد الثاني : ويشمل الفاطميين في المغرب ومصر والشام .

المجلد الثالث : ويشمل الاندلس في فترتين — الحكم الاموي — وملوك الطوائف .

المجلد الرابع ، ويشمل الحديث المتكامل عن احداث المغرب العربي حتى قيام دولة المرابطين .

● الحلقة الرابعة : وتشمل العالم الاسلامي بين اواسط القرن الخامس الى اواسط القرن السابع في خمسة مجلدات .

المجلد الاول ، ويخصص للخلافة العباسية في مرحلتها الثانية والمتأخرة .

المجلد الثاني : ويشمل تاريخ السلجوقيين والاتابكة .

المجلد الثالث : ويخصص للايوبيين .

المجلد الرابع : ويشمل الاندلس والمغرب في عصر المرابطين والموحدين .

المجلد الخامس: ويشمل المشرق في عصر الخوارزميين والغوريين وظهور المغول.

● الحلقة الخامسة : وهي خمسة مجلدات ، تتناول العالم الاسلامي من أواسط القرن السابع حتى اوائل القرن التاسع مقسمة الى :

المجلد الاول : ويخصص لدول المغول والايلخانيين .

المجلد الثاني : للتيموريين والتركمان وسلاجقة الروم .

المجلد الثالث، ويخصص لمصر والشام في حكم المماليك والسلطنات .

المجلد الرابع : يخصص للأندلس حتى سقوط غرناطة .

المجلد الخامس : ويشمل المغرب من نهاية حكم الموحدين حتى نهاية حكم بني نصر .

● الحلقة السادسة : وهي في سبعة مجلدات ، تتناول العالم الاسلامي من أوائل القرن التاسع الهجري الى نهاية القرن الثاني عشر مقسمة الى :

المجلد الاول : العثمانيون والمشرق العربي .
المجلد الثاني : ايران والدولتان الصفوية والقاجارية .
المجلد الثالث : ويخصص لسلطنات الدكن ومغول الهند .
المجلد الرابع : ويخصص لبلدان المغرب في عهد السعديين والعلويين .
المجلدالخامس : ويتناول المغرب العربي في العهد العثماني ، وبشكل خاص . الجزائر وتونس وطرابلس الغرب .
المجلدالسادس : ويخصص للجزيرة العربية .
المجلد السابع : ويتناول الاسلام في افريقيا وجنوب شرقي آسيا

● الحلقة السابعة : وتتناول الوطن العربي والعالم الاسلامي من اواخر القرن الثاني عشر الهجري حتى اليوم ، وهي خمسة مجلدات .
المجلد الاول : العالم العربي في ظل الحكم العثماني .
المجلد الثاني : بداية الغزو الاجنبي والحياةالعربية في ظل الاستعمار بكل انواعه .
المجلد الثالث : عن نشوء الدول العربية الحديثة في المشرق والمغرب .
المجلد الرابع : عن الحركة القومية والحياة السياسية في البلاد العربية .
المجلد الخامس : عن الوطن العربي بحالته الراهنة .

ويتبع هذه المجلدات مجلدان للفهارس والخرائط . ثم اربعة مجلدات اخرى تنهج نهج التحليل التاريخي وتتحدث عن اثر الحضارة الاسلامية في الانسان العربي وفي العالم وهي مقسمة على الشكل التالي :

١ — نشأة الحضارة الاسلامية في عهد الرسول العربي . والتكوين الفكري والفني للأمة الاسلامية ، ومظاهر هذه الحضارة في العمارة والعلوم والفقه والادب والتشريع .
٢ — دور الحضارة الاسلامية في المناطق التي وصل اليها الاسلام في عهود الامويين والعباسيين والفاطميين والاندلسيين .
٣ — مرحلة تفاعل الحضارة الاسلامية مع غيرها من الحضارات السابقة للاسلام .
٤ — التغيير الحضاري الذي ساد العالمين الاسلامي والعربي في العصور الاخيرة ، وأثر الحضارة الاسلامية في حضارات العالم .

وبانتهاء هذه المجلدات الاربعة تصبح الموسوعة التاريخية في اربعين مجلداً تتناول أحداث العرب والمسلمين من البداية التاريخية المعروفة للعرب الجاهليين حتى اواخر القرن

العشرين . ويصبح للانسان العربي تاريخ متواصل منسق وفي متناول يده ، بدون تشويش او فجوات .

وستراعى في صياغة المجلدات الاربعين عدة مسلمات وحقائق منها : الابتعاد قدر الامكان عن التمحور الفردي حول الابطال صياغة التاريخ، وابراز دور الجموع والجماهير التي هي صانعة التاريخ . الابتعاد عن العاطفة الجامحة والتركيز على النهج الموضوعي في الكتابة . مراعاة تكليف المختصين والذين سبق لهم وبرزوا في مجالات الكتابة والمعالجة التاريخيتين .

وكان المؤتمرون قد رفعوا تقريرهم الختامي الاخير في الاول من شهر كانون الاول ١٩٧٤ الى اتحاد الجامعات العربية، وتقرر البدء فوراً في العمل بالنسبة للكويت.

أما على مستوى الدولة هنا فقد قرر المسؤولون تغطية نفقات المشروع كاملا . تأليفاً وطبعاً ونشراً . وحاز على اهتمام كافة المسؤولين من اعلى المستويات ، وتبع هذا الاهتمام إلحاح خاص ورعاية خاصة ايضا لانجاز المشروع بكامله خلال اقل من خمسة اعوام .

كتاب جديد

الحمّى البيضاء والصهيونيّة على المحك

بتأليف : عبد الكريم الخطيبي — عرض : الدكتور جمال شحيد

يطلع علينا المغرب العربي منذ سنوات بدراسات قيمة عن المجتمع العربي. والظاهرة المميزة لهذه الدراسات ان اصحابها درسوا في الغرب وتمرسوا على اسس التفكير الغربي ، لا سيا فرنسا ، وتعتبر خير تعريف للغرب على تراثنا واوضاع مجتمعنا . ومن هؤلاء يجدر بنا ذكر الاستاذ عبد الله العروي والأديب الطاهر براش والاستاذ محمد برادة والاستاذ عبد الكبير الخطيبي مؤلف الكتاب الذي نحن بصدده .

والاستاذ الخطيبي هو استاذ علم الاجتماع في جامعة الرباط ومدير معهد الدراسات الاجتماعية في الرباط ايضاً . ومنذ سنة اضطر الى التفرغ للبحث العلمي في مركز التعريب في مدينة الرباط . والخطيبي هو مؤلف « **الرواية المغربية** » (ماسبيرو ١٩٦٨) و « **الذاكرة الموشومة** » (رواية ١٩٧١) و « **جرح أسم العلم** » (وهو دراسة للسوسيولوجيا الجنسية في الثقافة الشعبية العربية ، صدر في ايلول ١٩٧٤) وله قيد النشر في دار سندباد كتاب شعري عنوانه « **المصارع الطبقي على الطريقة الطاوية** » ، بالاضافة الى كتاب « **الحمى البيضاء** » الذي سنعرف به هنا والذي صدر في باريس في اواخر آب ١٩٧٤ .

والحمى البيضاء ظاهرة مرضية خاصة بالغرب الذي تسيره وسائل الاعلام الصهيونية . ولجأ المؤلف الى هذه التسمية أسوة بتسمية الغرب للحمى الصفراء والحمى السوداء اللتين أطلقها على كل من آسيا الشرقية وأفريقيا السوداء . ويعالج الخطيبي في كتابه هذا تغلغل الصهيونية في أوساط اليسار الفرنسي . ويقول المؤلف في مقدمة كتابه إنه كتب جميع فصول الكتاب قبل حرب تشرين التحريرية ، متأثراً بمجازر أيلول وبالردة العنصرية في الغرب إثر عملية ميونخ . وبالاضافة الى العنوان الرئيسي للكتاب نجد عنواناً آخر هو : الصهيونية والوعي الشقي ، علماً بأن تعبير « الوعي الشقي » مأخوذ عن هيجل . يقول المؤلف : « إن هدفي العام هو إجراء نقد للصهيونية كوعي شقي ، وفضح ما يربط هذه المواقف المتذبذبة تجاه تجربة الشقاء في الرأي العام الفرنسي واليسار منه بشكل اخص ، وذلك في بعدها اليهودي — المسيحي كما بالنسبة لعمليات الابادة النازية البشعة » (ص ٣)

ويلاحظ الكاتب ان حرب تشرين لم تزعزع أركان هذا الوعي الشقي ، بالرغم من الهزة الكبيرة التي حصلت له . ولم يخف على الصهيونية ان الصراع بين الأمة العربية وبينها حتمي ، لذلك نراها تلوح بشعارات الإبادة كل مرة تتضافر جهود العرب لإعادة حقوقهم السليبة ، وذلك في أجهزة الاعلام الغربية التي تصول الصهيونية فيها وتجول . ويختصر الكاتب خلاصة ماقالته الصحافة الفرنسية بعد الحرب التشرينية بقوله : « لقد أظهرت الحرب أنكم ماعدتم متخلفين . لقد بلغتم مرحلة التكنيك والعقلانية . أنتم الآن

رؤوساء أركان حقيقيين مثلنا تقريباً . ولكن بعدان انتهيتم من حربكم الصغيرة ، يكفي » (ص ٥) .

ويلاحظ المؤلف ان طبيعة الصراع بين العرب والصهيونية هي ايديولوجية من جهة وخاصة بالأرض من جهة أخرى . وتستند الايديولوجية الصهيونية على رؤيا تطورية للتاريخ لاتنفصل عن أطماع مدروسة في احتلال أراض مختلفة من المنطقة . وترتكز الايديولوجية العربية على صد هذه الأطماع . وتبرر الصهيونية أطماعها بابتكار « نظرية الأرض الخالية » التي كانت تصبو أبداً الى عودة الحبيب الغائب . ولهذا السبب لايستطيع المنطق الصهيوني التفكير بتاريخية منفتحة ، لا بل يعتبر نفسه فوق التاريخ (ص ١٣) . وساهمت الدول الغربية كثيراً في إبراز هذا المنطق وتبنته كسلعة . ولكي يتم السلام في المنطقة يطرح الكاتب ثلاثة حلول :

١ – هدم الكيان الصهيوني .
٢ – التعايش المفروض فرضاً .
٣ – المصالحة .

وتشكل الدولة الديموقراطية العلمانية التي ينشدها النضال الفلسطيني البديل الوحيد لهذا الوعي الشقي المتمثل بالصهيونية . ويطلب الكاتب من اليسار الفرنسي المتذبذب تحديد موقفه .

١ – الوعي الشقي وشقاء النسيان :

هذا هو عنوان الفصل الأول من هذا الكتاب القيم التي طالما حاربت نشره دور النشر الفرنسية . ويركز التحليل فيه على العدد الخاص الذي أصدرته مجلة « الأزمنة الحديثة » لجان بول سارتر مع الإلتباسات التي حصلت للعرب الذين كتبوا في هذا العدد . ويخص المؤلف بالتحليل ثلاث مقالات صهيونية هي لـ « بارنير » و « فيربلوفسكي » و « مسراحي » . ينطلق الأول من نظرية الأرض الفارغة المتخطاة التي تجتازها أحياناً بعض القبائل البدوية (يعني بذلك الفلسطينيين) . ويتساءل مع المؤلف إلى أي حد يمكن أن يبلغ الكذب والسذاجة ؟! كأنه يريد ان يبرهن للغرب ان احتلال الصهيونية لأرض فلسطين كان نعمة للبشرية جمعاء وللغرب بشكل أخص ، لأنها في نظره كانت نواة حضارية

ومن المؤكد والمؤسف في آن واحد أن هذا المنطق استساغته ومازالت تستسيغه كثير من العقول البسيطة في الغرب ، وليست بقلية . وتحاول المقالة الثانية التي يعالجها مؤلفنا ابراز الصهيونية بقالب علمي . لاتعتمأن تسيطر عليه المفاهيم التوراتية كـ « شعب الله المختار » و « أرض الميعاد » الخ ... ويعترف « فيربلوفسكي » أن شقاء الحركة الصهيونية لاينبع من هذه الحركة بالذات وانما من الوعي الوطني للعرب . كان على الصهيونية ،

كما يقول صاحب المقالة ، أن تحتل فلسطين قبل ١٩٤٨ بكثير . ويفرط فيربلو فسكي في اعتباراته العنصرية ضد الشعب الفلسطيني ، أما « مسراحي » فيحاول في مقالته « اما التعايش واما الحرب » أن يوفق بين الصهيونية الرسمية في اسرائيل وبين يهود العالم المزدوجي الجنسية . ويرى أن النقاش يجب ألا يمس أبداً وجود اسرائيل . وبمنطق مناور لايخلو من التناقض يجمع بين الأمر الواقع والشرعية. ويعترف المؤلف أن الشعور بالذنب في الأوساط الغربية مازال يتأثر بمثل هذا المنطق ، ولكن الى متى ؟

٢ — دموع سارتر :

وأحسن مثال على ذلك هو موقف سارتر من القضية الفلسطينية . ان التحول الذي طرأ له تجاه الحرب الجزائرية من جهة وتجاه القضية الفلسطينية كبير جداً ، حتى حتى اننا لكاد لانعرف سارتر الذي تألبت عليه قوى اليمين مطالبة بشنقه في « الشانزيليزه» لمناوئته العنيفة للسياسة الحكومية الاستعمارية في حرب الجزائر . ولابراز ازدواجية الموقف عند سارتر تجاه فلسطين وشعبها ، يستقصي عبد الكبير الخطيبي كتابات هذا الكاتب منذ الحرب العربية — الاسرائيلية الأولى . يبدأ سارتر الدخول في الموضوع سنة ١٩٤٥ بمقالة نشرها في « الأزمنة الحديثة » بعنوان « اللاسامي » فيحدد بقوله : « ان ماتتمناه اللاسامية وتهيؤه هو موت اليهودي » ص ٥٠ من كتابنا) . ويحمل الشعب الفرنسي تبعة الدم اليهودي الذي سفكته النازية ، ويضيف قائلاً : « لن يكون أي فرنسي في أمن طالما أن هناك يهودياً واحداً في فرنسا وفي العالم كله يمكن أن يخاف على حياته » (ص ٥١). ويرى في الصهيونية حركة لابل ثورة طبيعية من صلب التاريخ اليهودي (ص ٥١) . ويدور في فلك سارتر عدد من المثقفين « اليساريين » الفرنسيين مثل « سيمون دي بوفوار » و « كلود لانزمان » (مخرج فيلم لماذا اسرائيل الذي صدر بعد حرب تشرين). و « روبير مسراحي » الآنف الذكر وغيرهم من جماعة « الأزمنة الحديثة » و« تحرير » (وهي جريدة يومية انشأها سارتر منذ سنة) . ويستعرض المؤلف كتاب « تأملات حول المسألة اليهودية » ، وكتبه سارتر تحت تأثير الحرب العالمية الثانية .

وفي أيار ١٩٤٨ اخذ سارتر موقفا يؤيد انشاء دولة اسرائيل ، على انه في ذلك الحين طالب « بدولة فلسطينية مستقلة وحرة ومسالمة » (ص ٥٦) . وتجاه تعاطف عدد من المؤسسات والأحزاب اليسارية في الغرب مع الشعب العربي الفلسطيني في اعقاب عملية ميونيخ ، عادت الى سارتر ازدواجيته ، فرأيناه يصرح : « في الظروف الراهنة يحق للفلسطينيين اللجوء الى الارهاب ... ويجب على الاسرائيليين ان يقاوموا هذا الارهاب» (ص ٦٠) ومن الملاحظ ان سارتر يتحاشى دائماً اعتبار اسرائيل كربيبة للامبريالية، وذلك حتى في عدوان ١٩٥٦ ، لابل بالعكس فاننا نراه ، كلما اشتد ساعد العرب ، يلوح بخطر الابادة الجماعية لليهود ، بينما يتعرض الشعب الفلسطيني يومياً لمثل هذا الخطر ،

وسارتر لايحرك ساكناً أما اقتراحه لحل المشكلة فصهيوني ، اذ يريد أن يستتب السلام في المنطقة باستيعاب كامل الفلسطينيين في الأقطار العربية (ص ٦٣) .

وبعد هذا نراه يصرّح في كتابه « الحالات » قائلاً : « إنني صديق المعسكرين » (الحالات ص ٣٣٥) ويضيف بعد ذلك أنّ الاستعمار الصهيوني في حينه (المستعمر بالنسبة لنا) ايجابي و «أنني لا أعرف منذكم من الوقت وجد الفلسطينيون في فلسطين »(ص٦٨) ويعلل سارتر تحليله لاسرائيل بأنها ليست دولة استعمارية وإنما فقط رأسمالية ويحق لنا التساؤل مع المؤلف كيف يستطيع مفكر يساري « ماوي » أن يناوىء الامبريالية في العالم من جهة ، ولا يناوئها لا بل يؤيدها بشكلها الصهيوني البشع ؟

٣ — هل كان ماركس لاسامياً ؟

بهذا العنوان يستهل المؤلف الفصل الثالث من كتابه ، مستعرضاً فيه دراسة لـ «روبير مسراحي» عن كتاب « المسألة اليهودية » لماركس ، يدّعي مسراحي اليسارية والعلمية في تحليله ، ولكنه في الواقع لا يبتعد قيد أنملة عن المبادىء الصهيونية .فيبتدىء بتصنيف الناس الى أربعة : ١ — لاسامي بدون مواربة . ٢ — لاسامي متستر . ٣ — صهيوني . ٤ — يهودي صهيوني . العرب الساميّون مثل قسم من اليهود ليس لهم مكان في هذا التصنيف ، إلاّ إذا أنكر السامية على العرب واحتكرها لليهود ، وهذا ما فعل في الواقع . وبالتالي ، حسب رؤيته هذه ، كل مناوىء للصهيونية هو بالفعل نفسه مناوىء للسامية (يعني بذلك اليهودية) .

ويستخلص من هذا التصنيف أن ماركس كان لاسامياً وممهداً لقيام النازية بإبادة اليهود . « ليست المسألة اليهودية إلا نداء للقتل ودعوة لابادة شعب » (ماركس والمسألة اليهودية ص ٦٢) . ويختتم بقوله : « ليست « المسألة اليهودية » عملاً ماركسياً وانما هي بالحري حمل رجعي » (كتابة ص ٨٩) .

ويفضح عبد الكبير الخطيبي اليسارية الكاذبة التي يدعو إليها مسراحي ، إذ إنه لم يفهم أن ماركس نادى بتخطّي كافة الأديان ومن بينها اليهودية التي كان ينتمي إليها بأسرته . ومن هذا المنطلق المغلوط نرى مسراحي ينعت ماركس بأبشع النعوت(خائن، مجرم ، بلوان كلمات السخ ...) ، وينادي فوراً بخطر الابادة (ص ٨٧ — ٨٨) . ويحاول أن يجري تحليلاً نفسياً عن الذنب الذي اقترفه ماركس في مسألته اليهوديّة ينعته بالتواطىء مع أنجلز . ويختتم بقوله : « عندما يفكّر ماركس بالمسألة اليهودية فإنه غير ماركسي ، وإنه ماركسي عندما لا يفكّر بالمسألة اليهوديّة » (ص ٩٠) .

٤ — الماركسيّة مناوئة للصهيونيّة :

في هذا الفصل يعالج الكاتب مشكلة أساسيّة لا يزال قسم من اليسار الفرنسي

والأوروبيةيتخبّط فيها . إنّه يربط مصيره وواقع الصهيونية بالقوى الامبريالية في العالم: الولايات المتحدة وانكلترا وألمانيا الغربية وأفريقيا الجنوبية وغيرها من الدول . ويلاحظ أنّ الضمير اليهودي الذي تعصف به كافّة الأيديولوجيات موزّع ومشتّت بين قبوله بالصهيونية ورفضه لها. وما نظرية الصهيونية – اليساريّة إلاّ جزء من متناقضات هذا الضمير المشتّت .

ومن أبرز الوجوه الصهيونية الفرنسيّة التي تنادي بالصهيونية اليسارية (بالاضافة إلى مسراحي) « البير ميمي » التونسي الأصل . ففي كتابة « صورة يهودي » يركّز على إضطهاد الغرب لليهود ، وينسى إضطهاد الصهاينة للشعب الفلسطيني . ولا يخشى التصريح بأن « كل غير يهودي يسام شاء أم أبى في اضطهاد اليهود » (صورة يهودي ص ٥٤) . وينسى « ميمي » أن اليهودي الذي اضطهده الغرب أخذ ثأره لا من مضطهده ولكن من شعب آخر .

ويرى عبد الكبير الخطيبي أن الصهيونية الاشتراكية (التي يدعي « ميمي » الانتماء اليها) ضرب من الخيال ، وتجد أصولها لا في الفلسفة وإنما في لاهوت مقنع ومتستر بنظرة انسانية بورجوازية » ص ١٠٨ . فكما اصبح أحد اليهود صهيونياً ، دخل في تناقض رهيب مع الماركسية (ص ١١٠) . ولا يخشى المؤلف القول بأن « موقف الحزب الشيوعي الفرنسي مثلاً تجاه القضية الفلسطينية مشين جداً ، إذ إن الحزب يحاول إرضاء الجميع : جمهوره الانتخابي والحزب الشقيق (الحزب الاشتراكي) والاسرائيليين والفلسطينيين ... (ص ١١٠) » .

ويطلعنا الكاتب على وقائع مؤتمر صهيوني عقد في فرنسا بعد انتفاضة ١٩٦٨ تحت شعار : اليهودية والثورة . وجميع الحاضرين من « مسراحي » الى الحاخام « جاتيس » الى « جوزي ايزنبرغ » الى « ميمي » وغيرهم يدمجون دمجاً طبيعياً بين الصهيونية والثورة . لا بل ان مسراحي اعتبر الجيش الاسرائيلي « جيشاً ثورياً » (ص ١١٣) . وشذ عن هؤلاء « اسحق دويتشر » الذي فصل بين اليهودية والصهيونية من جهة وبين الصهيونية والماركسية من جهة اخرى ، ولم يخش مهاجمة دولة اسرائيل . يقول: « ان الوعي الثقافي لهذه الدولة هو عبري مستوحى من التلمود وطقوس القرون الوسطى وتتغذى بأشباح الماضي » (انظر كتابه « محاولات حول القضية اليهودية » ١٩٦٩ ، (ص ٧١) ويحاول الصهاينة الذين يدعون الماركسية طمس العلاقة بين الامبريالية الاميركية واسرائيل والصلة الحميمة القائمة بين افريقيا الجنوبية العنصرية واسرائيل . فكما أن أفريقيا الجنوبية تحرس مصالح الامبريالية في القسم الجنوبي في افريقيا كذلك اسرائيل تحاول أن تحمي القسم الشمالي منها . ويختتم الخطيبي فصله هذا بقوله : « بالرغم من معاداة الماركسيين الصريح للصهيونية فانهم يرضخون لهذه المساومة (التلويح بخطر الابادة) . فيعترفون أن لدولة اسرائيل حق الوجود كما يطالبون باعادة حقوق الشعب الفلسطيني . وبالتالي فانهم ينتهون بالاعتراف بالأمر الواقع ويتخلون عن الأخذ الحاسم لفكرة ماركس النقدية الذي فضح بلا مواربة ادعاءات الوعي الشقي » (ص ١٢٣) .

٥ ـ عقدة أوديب أم عقدة ابراهيم ؟

« بينما دهاقين اللاهوت يجعلون من الله صهيونياً » (انظر « كلود دوفيرنوا » في كتابه صهيونية الله ، باريس ١٩٨٢) يجدر بنا العودة الى ابراهيم ، لأنه المحرك الاساسي للصراع بين العرب والصهيونية . في هذا الفصل ، الذي لانحبذه كثيراً لاسيما في قسمه الأول كما سنرى ، يجري المؤلف دراسة لاهوتية مقارنة بين الأديان السماوية الثلاثة حلال شخصية ابراهيم وذريته الأولى ، وإنكار المسيحية والاسلام لمفهوم « شعب الله المختار ».

وينتقل بعد ذلك الى « فرويد » وتفضيله شخصية موسى على ابراهيم ودراسته للديانة اليهودية من خلاله (انظر كتابه : موسى والتوحيد) ورفضه للصيونية واعترافه أن « اليهودية نفسها مأخوذة عن احدى القبائل العربية » (ص ١٥١) .

إننا نعتبر الخوض في الجانب اللاهوتي من هذه المسألة مزلقة لان التمييز بنظرة أساسي بين اليهودية كدين وبين الصهيونية التي تسعى بكل الطرق ان تندمج بها . وان صراعنا مع الصهيونية ليس صراعاً دينياً وانما هو صراع له ابعاد سياسية قوية . بالاضافة الى ذلك فان الصهيونية حركة تلعب على كل الحبال الدينية منها والالحادية ؛ لذا يجدر بالمثقفين العرب ابراز الفصل بين اليهودية والصهيونية ، لان هناك عدداً من اليهود يناوىء الصهيونية ويناصبها العداء ، وليس هذا العدد بقليل .

* * *

ويختتم عبد الكريم الخطيبي كتابه بقصيدة الى ابراهيم الخليل وبنصين للمقاومة الفلسطينية هما : الصهيونية والثورة الفلسطينية ، ومن اجل دولة ديموقراطية .

هذا الكتاب هو فريد من نوعه بالنسبة لدور النشرالفرنسية ، ولا شك انه سيلاقي محاربة مرة من اجهزة الاعلام والنشر الصهيونية التي اغرقت السوق الكتبية الفرنسية بمنشوراتها ، لا سيما وان الكتاب قد نشر بثلاثين الف نسخة في سلسة شعبيةسهلة التداول (سلسة ١٠ / ١٨) تنشرها الرابطة العامة للناشرين الفرنسيين . ويتميز الكتاب بلغة فرنسية ناصعة تميل الى العنف ويغدق عليها التمازج اللغوي العربي – الفرنسي حيوية خاصة . كما وان الثقافة الواسعة لعبد الكريم الخطيبي واطلاعه الدقيق على طرق الجدال الصهيوني في الاوسباط الفرنسية مكناه من الدخول الى الموضوع بقدم ثابتة تعرف المناورة وتلمس نقاط الضعف في التفكير الصهيوني .

كتاب جديد

فرانز فانون والثورة الجزائرية

تأليف : محمد الميلي ـ عرض : عبد الكريم الناعم

فرانز فانون والثورة الجزائرية كتاب لمحمد الميلي ، ومؤلفه مناضل جزائري أسندت اليه مهام قيادية أثناء حرب التحرير الجزائرية وبعدها ، يضاف الى ذلك أنه عايش فانون فخبره ، وخبر أفكاره من خلال المناقشات التي كانت تدور أثناء طرح المواضيع ذات الأهمية الخاصة بالنسبة لقيادة الثورة ، ومن هنا تأتي أهمية الكتاب الوثائقية ، عدا ما فيه من استقصاء ، وفهم دقيقين ، وحساسية في المناقشة ، وتتبع

لأفكار فانون ، وما داخلها من تطورات ، إضافة الى ثقافة ، والمام واسع بالفكر المعاصر ، ووعي بعيد الغور ، وقوة حجة في النقاش .

يقسم الكتاب الى ستة اقسام :

هذا هو فانون

فانون الغريب

التساؤل الأبدي

الرحيل

الاكتشاف

مسافر دون عودة

في اول الكتاب يبين المؤلف اصل فانون ، ودراسته ، فهو «طبيب نفساني من اصل مارتينيكي » ، وهو مجاز في الفلسفة ، و « يجيد الحديث عن الاستعمار في المجال النظري ، و « طليعة » يكثر الالقاء من الاسئلة ، ومن مواليد عام ١٩٢٥ ، ولد في « فوردي فرانس » عاصمة المارتينيك ، المنطقة التي شملتها السيطرة الفرنسية منذ القرن السابع عشر .

وفي تلك الجزيرة قيام الافارقة بعدة ثورات ، ومع قيام الجمهورية الثالثة في فرنسا ظهرت فكرة الاندماج ، فبدأ السكان يحلمون بالمساواة مع الاوربيين ، ووصلوا في النتيجة الى التنكر لماضيهم وزنوجتهم .

كان والد فانون موظفاً في الجمارك ، والوظيفة في مثل هذا الظرف وضع امتيازي ، انفتحت عينا فانون في المدرسة على ابطال فرنسا القوميين ، وكانت امرته تنتمي الى بورجوازية زنجية ، تلك البورجوازية التي كان هدفها الذوبان في الاطار الفرنسي ، فتصل الى تطلعات ظنتها جوازاً بالحلول في مواقع جديدة ، ولقد ادى تطور هذه البورجوازية المحلية الى شعور بالتفوق عند الانتيلي بالنسبة للزنوج الآخرين ، ودعم ذلك تدين الجميع بالديانة المسيحية ، مما قطع شكلاً من اشكال الصلات التراثية القومية ، « وكانت فئة الموظفين المارتينيكيين تتحدث عن زنوج افريقيا بنفس اللهجة التي يتحدث بها الاوربيون » ، ويعتقد الانتيلي انه متفوق على الافريقي ، وكانت فرنسا تشجع هذا الاتجاه ، وتدعمه ، فتميز بين الانتيلي والافريقي ، ولقد تحدث فانون عن ذلك « . . . في عام ١٩٣٩ لم يكن هناك اي احد في الانتيل يعتبر نفسه زنجياً ، ولا يفعل ذلك الا عندما تضطره علاقته مع لونه .. »

• واجه الانتيلي موقفاً جديداً في الحرب العالمية الثانية ، فالموظفون الفرنسيون القلة الذين كانوا مندمجين في الحياة الاجتماعية ،ارتفع عددهم بوصول البحارة الفرنسيين ، وهؤلاء البحارة كانوا في البداية اناساً عاديين ، لكنهم ما ان طالت بهم المدة – اربع سنوات – حتى بدأت تظهر لديهم الروح العنصرية ، اضافة الى تردي الوضع الاقتصادي في الجزيرة ، « فأصبح الانتيلي يشك في قيمه امام هؤلاء الرجال الذين كانوا يحتقرونه » .

وكان الانتيلي قبل ١٩٣٩ « تتركز نظرته على اوروبا البيضاء ، واكتشف في ١٩٤٥ انه اسود ، « واصبح يتطلع الى افريقيا البعيدة » ، كما يقول فانون ..

انضم فانون الى قوات الحلفاء عام ١٩٤٣ استجابة لنداء الواجب والضمير بوصفه فرنسياً .. ولكنه ينقلب ، لكأنه يكتشف نفسه ، وما كان فيه ، فيتجه نحو افريقيا « حيث كان يتابع دروساً عسكرية في « بجاية » – الجزائر ، تؤهله ليكون ضابطاً ، وحين عاد الى بلاده بعد اصابته بجروح في احدى المعارك كان خطه الفكري يتميز بأمرين : « القناعة بوجود بروليتاريا في الانتيل – والتطلع الى الاصول الافريقية البعيدة » ، وكان بذلك يساير الشيوعيين المحليين الذين كانت تعليماتهم مستقاة من الحزب الشيوعي الفرنسي ، والاخذ بمبدأ الصراع الطبقي البروليتاري المتجاوز للاقليمية ضد البورجوازية .

وهنا واجه الانتيليون مأزقاً جديداً إذا إصبحوا متحمسين للزنوجة في وقت رفض فيه الزنوج موقفهم .

اما فانون فقد قدمت له منحة لاتمام دراسته نظراً لخدماته في الحرب ، فبدأ بدراسة الطب ، والفلسفة .

وفي هذه الفترة كانت المتغيرات العالمية قد بدأت تلقي بثقلها ، ففي فرنسا كانت القوى التقدمية تمر بفترة تعرق بعد مجازر « سطيف » ، و « وقالمة » ، و « خراطة » بالجزائر ، في ظل حكومة كان اليسار ممثلا فيها ، ثم الحرب الباردة ، وبوادر التحرر في فيتنام .

« أمام هذه التقلبات كان فانون ممزقاً بين ايمانه بالمثل الانسانية المجردة ، وبين وضعه ككفرنسي – زنجي » « فتخلى عن السراب الاسود » ، وراح يبحث عن حل لمشكلته ، مشكلة الزنوج في الإطار الفرنسي – وضح ذلك كتابه « بشرة سوداء اقنعة بيضاء » ، ولكن ذلك لم يصرفه نهائياً على افريقيا ، فبعد ان انهى دراسته ، وزار

بلاده ،وعاد الى فرنسا فتزوج فرنسية ، طلبمن « الرئيس سنغور » عملاً في مستشفى إفريقي ، ولكن هذا لم يجبه ، فقبل بعرض من الولاية العامة للجزائر ، والتحق بمستشفى الامراض العقلية في البليدة عام ١٩٥٣،وفي هذا المستشفى اكتشف ان طرق العلاج التي تنجح مع الاوروبيين لا تنجح مع الجزائريين لاختلاف البيئة الاجتماعية ، واكتشف ان هذا الاختلاف يرجع الى عوامل واوضاع سياسية ، كما اكتشف ان هذه الاوضاع سبب في جنون السكان المحليين ، وربما كانت تجربته هذه كطبيب قد كشفت له انسداد الطريق الفرنسي ، ووضوح الرؤيا في الثورة الجزائرية فانضم اليها ، وبعدانضمامه واصل نشاطه في نطاق دراسته الحالة العامة في اختصاصه ، وتابع توسيع ثقافته السياسية كمناضل ملتزم ، وحين تفرغ للعمل في الصحافة ضمن هيئة تحرير « المجاهد » كانتاوقاته موزعة بين القراءة والكتابة ، ونادراً ما كان يغادر مكان العمل ، وكانت هيئة التحرير تجتمع بعد الظهر لدراسة بعض النصوص الثورية ، وذلك في فترة ١٩٥٧ ، حيث كان يبدو طريق الحل السياسي ميئوساً منه بسبب تعنت فرنساوتشبثها ، وكثيراً ما كانت الجلسات تخرج عن مواضيع نصوصها لتتناول قضايا متفرعة كالوحدة العربية ، أو دور الاسلام في حركة التحرير ، أو تصور مستقبل الجزائر « وسواء اتفقت وجهات النظر أو اختلفت فقد كان فانون من بين الذين فرضوا انفسهم بفضل عمق تحليله ، وسعة افقه ، ودقة تفريعاته ، وبتفضيله للسماع على الكلام عندمايتناول الحديث موضوعاً لايعرفه» ومع عودة « المجاهد » الى تونس عام ١٩٥٧ عاد فانون الى التوزع بين عمل الصحافة ، ومهنته في مستشفيات تونس ، تلك المهنة التي امدته بملاحظات استخلصت من تتبعه لحالات المجاهدين ، وكان حصيلة ذلك « الثورة الجزائرية في عامها الخامس » .

لمس فانون بعد انضمامه للثورةالجزائرية انفتاح الثورة علىافريقيا ، واتصالات بعض الثوار الافريقيين بقيادتها لمدهم بالتجربة ، فاتضحت له نقاط لمسها حين عهدت اليه الثورة الجزائرية بمهام في بعض اقطار افريقيا ، وحين عين عضواً ضمن الوفد الجزائري الى المؤتمر الافريقي الذي عقد في عاصمة غانا عام ١٩٥٨ ، « وراح فانون يتحدث في مختلف مؤتمرات افريقيا واندیتها بوصفه يعبر عن وجهة نظر الديبلوماسية الجزائرية »

* * *

زوجة فانون قالت إن فانون كان في صفوف الثورة الجزائرية منذ فاتح نوفمبر ١٩٥٤ :

آخرون قالوا إنه هو الذي وضع برنامج وادي الصمام . وكل الاقوال تلتقي عند نقطة هامـــة هي تأثير فانون في الثورة الجزائرية ، واعتباره منظـّر الثـورة الجزائرية ، ومفكرها .

وهنا تبدأ مهمة المؤلف ، فهو مع اعترافه بقيمة فانون الفكرية ، ومع اعترافه بتأثيره الموجود القائم ، يرى أن هذا التقييم أحادي النظرة ، اذ يغفل أثر الثورة في فانون ، ويرجع ذلك الى الكتابات الكثيرة التي كتبت عن فانون ، وساهمت في ذلك عوامل عدة منها أن فانون كان معروفاً في اوساط اليسار الفرنسي ، وكانت هذه الاوســـاط تهتم بكتابات وافكار فانون الاولى لما فيها من اصول غربيــة ـ ماركس ـ الجاز ـ سارتر رغم مافيها من عنف وثورية ، هذه الصـلة مع اليســار الفرنسي — الصـلة الفكرية — المبنية على اسس ماركسية تفرض ان نستعرض موقف اليسار الفرنسي من الثورة الجزائرية.

تمكن اليمين الفرنسي من جعل حربه ضد الثورة الجزائرية حرباً وطنية فرنسية ، وحرباً في «خدمة الحضارة والتقدم» !! وهذا ما جعل اليسار الفرنسي يخشى المجابهة ، والاتهام بالخيانة ، يضاف إلى ذلك انعدام الصلة بين هذا اليسار والثورة الجزائرية ، وكان بعض اليساريين الفرنسيين يؤيد حق تقرير المصير بشروط تتمثل في « ضرورة الاعتراف داخل هذه الأمة بحق الأقليات للعناصر التي هي من أصل أوروبي أو للعناصر غير المسلمة» وحينما منحت صلاحيات خاصة للاكوست الوزير المقيم بالجزائر كان اليســار الشيوعي أحد الموافقين على هذه الصلاحيات ، بل كانت هناك حركة ماركسية ـ لينينية تمنـع أعضاءها من المشاركة في شبكات مساندة جبهة التحرير الوطني .

هذا الموقف لليسار الفرنسي الذي كان نتيجة اعتبارات عديدة ومعقدة ليست في صالحه من حيث النتيجة ـ كان لابد أن يؤدي إلى افتراق في الموقف بين اليسار وبين فانون .

ومنا تبرز مشكلة أكثر تعقيداً من الأولى هي مشكلة الاختيار والبديل ، وفانون لم يكن بعد قد توصل الى تلك الأفكار التي نراها في « معذبو الأرض » ، فهو يسـاري الفكر ، أوروبي الاتجاه ، حتى تلك الفترة يرى في فرنسا فرنسا الأم ، ويريـد التحرك طبقياً ضمن حدود هذا الوطن ، تلك الحدود التي تمتد إلى ما وراء البحار . وباعتبـار أن بلاده فاقدة الوجود التاريخي الذي يمثل شخصية الأمة خلال تكونها ، ونموها ، وعطاءاتها ، فقد كان برفض الماضي .

« اني لاأريد أن انتفخ بالماضي على حساب حاضري ومستقبلي ، لاأريد أن أكون ضحية خداع عالم أسود ، ان حياتي لايجب أن تخصص لتسجيل القيم الزنجية »

« الزنجي الذي يشتغل في مزارع السكر لايوجد له الا حل واحد هو الكفاح »

« لن يخطر على بالنا أن نطلب من الزنوج تصحيح المفهوم الذي يحملونه عن التاريخ »

« ان بعض الرفاق العمال الذين كانت لي فرصة لقائهم في باريس لم يطرحوا أبداً على أنفسهم مشكل اكتشاف ماض زنجي . لقد كانوا يعرفون انهم منحدرون من سلالات سوداء ، لكنهم — قالوا — لن يغير ذلك من اي شيء »

«ان الهندي الصيني إذ ثار فليس لانه اكتشف ثقافة خاصة به ، ولكن لان التنفس اصبح مستحيلا عليه » .

« هل سأطلب من الرجل الابيض اليوم أن يكون مسؤولاً عن معاملة اسلافه للزنوج في القرن السابع عشر ؟ هل سأبحث بجميع الوسائل عن خلق الشعور بالذنب في الارواح ؟ » .

« اني لا أملك الحق في أن اترك نفسي تنزلق بحتمية الماضي » .

« اني لست أسير التاريخ ولا ينبغي أن ابحث فيه عن مغزى مصيري »

هذا الموقف من الماضي ، والغاء دور الماضي تقابله الشخصية التاريخية للشعب الجزائري .

يقول المؤلف الميلي :

« كان الملجأ الوحيد للشعب هو التمسك بشخصيته وثقافته العربية الاسلامية . ومفهوم الثقافة هنا هو أوسع مفهوم ، بحيث يتسع للتقاليد والعادات ، وكل صور الثقافة التقليدية سواء كان مصدرها الكتاتيب القرآنية ، أو الزوايا الطرقية ، والمعاهد الدينية ، أو المدارس العربية الحرة ، أو النوادي الاصلاحية ، أو الاساطير الشعبية .

ويقول :

« ولم يكن بد من أن يتداخل التمسك بالثقافة العربية مع التمسك بالاسلام ، لانه لا يمكن الفصل بينهما في شمال افريقيا من جهة ، ولأن ذلك كان من جهة أخرى نتيجة طبيعية للعمل الاستعماري نفسه الذي لم يخف علاقته بالمسيحية وعداءه الشديد للاسلام» .

يعتبر المؤلف أن التحاق فانون بالثورة الجزائرية ، وتفاعله الحاد معها ، واطلاعه

على واقع وماضي هذا الشعب ، هو الذي جعله يغير موقفه من قضية الماضي ، ويتحول إلى الاتجاه الآخر .

« ان هذه المواقف المتبقية (ويقصد فانون بذلك مواقف العنصرية المتطرفة التي تحاول تبرير العنصرية تبريراً علمياً مادياً) في طريقها الى الزوال فهذه العنصرية التي تظهر في مظهر العقلانية والحتمية الوراثية والمظهرية لتحول الى عنصرية ثقافية ويصبح موضوع العنصرية ليس هو الانسان الخاص ولكن هو نمط وجوده ، وتلتحق « القيم الغربية » بالدعوة الشهيرة الى حرب الصليب ضد الهلال »

« ان الانغماس في الماضي هو شرط الحرية ومنبعها » .

« إن البرهان على وجود حضارة قومية قديمة لا يرد الاعتبار فحسب ، وإنما هو أيضاً على صعيد التوازن النفسي العاطفي يحقق للمستعمر ـ بفتح الميم ـ وثبة كبرى » .

ولا يعتبر المؤلف أن الرؤية الجديدة للماضي والتاريخ نتيجة انخراط فانون في صفوف الثورة الجزائرية ، واكتشافاته من خلالها ، بل يرى ان الاعتماد على الفلاحين في الثورة في بلدان العالم الثالث ، وتركيز فانون على هذه الناحية هو أيضاً من معطيات الثورة الجزائرية التي اعتمدت على الريف في الاعداد والانطلاق .

يقول الميلي : « فعنصر الريف والفلاحين ــ والقيمة التي أعطيت لها في الثورة الجزائرية ــ كان موجوداً في الجزائر منذ اندلاع الثورة ، بل وحتى قبل نوفمبر ١٩٥٤ ، والثورة الجزائرية تطورت بالريف ، وتمركزت بالريف ، حتى من قبل أن يلتحق بها فانون وقبل أن يعرفها ، بل ان اول نوفمبر ١٩٥٤ نفسه كان ــ الى حد ما ــ نتيجة لانتصار المفهوم المنادي بالاعتماد على الريف في الثورة ضد الدعوة الاخرى التي ترى أن تحقيق أي تغيير سياسي لا يمكن أن يتم الا عبر المدن ، إذن فالتأثير الحاسم في هذا المجال كان من الثورة الجزائرية في اتجاه فانون وليس العكس » .

ويقول فانون في تقييمه دور الفلاحين في معركة التحرير « إن الدعاية التي تتقدم بها معظم الأحزاب السياسية تغفل طبقة الفلاحين دائماً مع إن الواضح ان طبقة الفلاحين في البلاد المستعمرة هي الطبقة الثورية الوحيدة . ان هذه الطبقة لا تخشى أن تخسر بالثورة شيئاً بل تطمع أن تكسب بالثورة كل شيء . والفلاح المنبوذ الجائع هو الانسان المستغل الذي يكتشف قبل غيره أن العنف وحده هو الوسيلة المجدية . إنه امرؤ ليس حل وسط ولا مجال عنده للتسوية . والقوة

وحدها هي التي تحدد في رأيه بقاء الاستعمار أوزواله ، أن هذا المستغل يدرك ان تحرره يقتضي استعمال جميع الوسائل وأولها القوة . حين أعلنت جبهة التحرير الوطني عام ١٩٥٦ بعد استسلام غي مولي للمستعمرين الفرنسيين ، حين أعلنت في منشور شهير لها ان الاستعمار لايرفع يده الا اذا جعلت السكين في عنقه ، لم يجد أي جزائري صادق ان هذه الألفاظ عنيفة ، لقد كان المنشور ينطق بلسان جميع الجزائريين ويفصح عما رسخ في أعمق أعماق ضمائرهم من ان الاستعمار ليس آلة مفكرة ، ليس جسماً مزوداً بعقل ، وانما هو عنف هائج لايمكن ان يخضع الا لعنف أقوى ، ويرى المؤلف ان مراحل فانون الفكرية من خلال رصد كتاباته كانت في البداية تمرداً على الزنوجة وانتماء الى الفرنسية — « لم أصبح بعد أبيض تماماً ، ولم أعد زنجياً تماماً » .

« ان اليهودي يصبح غير محبوب ابتداء من وقت التعرف عليه ، أما بالنسبة إلي فليست لي أية فرصة في ان امر دون ان أعرف . انا محدد من الخارج ، فأنا لست عبداً للفكرة التي يحملها الآخرون عني ، لكني عبد لصورة ظهوري » .

« اني اتصور نفسي عن طيب خاطر مندمجاً ومغموراً بالموجة البيضاء التي يشكلها رجال من امثال سارتر وأراغون . ولن اطلب شيئاً آخر غير ذلك » .

« اية حكاية هذه حكاية الشعب الأسود والوطنية الزنجية ؟ فأنا فرنسي ، واهتم بالثقافة الفرنسية ، بالحضارة الفرنسية ، بالشعب الفرنسي ، أننا نرفض أن نعتبر انفسنا على الهامش اننا في صميم المأساة الفرنسية » .

« ... إني مهتم شخصياً بالمصير الفرنسي ، بالقيم الفرنسية ، فما لي أنا ولامبراطورية سوداء » ؟

وهكذا « قفز من التمرد الفردي على الزنوجة ، الى الثورة الوطنية القومية في نطاق حرب التحرير الجزائرية ، الى نوع من الأممية على مستوى العالم الثالث » .

المؤلف يركز في أكثر من مكان على أثر الثورة الجزائرية في فانون متتبعاً كتاباته منذ بداياتها وحتى آخر مؤلفاته قبل موته ، مؤكداً على هذه الناحية ، مقدماً كل ما يملك من دعم لرأيه ، ومن معرفة . ولكنه في نفس الوقت لا ينكر قيمة فانون الفكرية ، وأثره ، مع حرصه على الفكرة الاولى ، معتبراً أن كتابات فانون في المجاهد كانت تعبر عن فكر الثورة الجزائرية لان بعض هذه الأفكار كانت متضمنة في مقالات أخرى لم يكتبها فانون ، وفي نصوص رسمية ، كما أن مواضيع المجاهد كانت تقرر في اجتماعات رسمية تحت اشراف « عنصر قيادي » ..

— « وكانت هذه المساهمة جماعية » ، والكتابات التي كتبها فانون في المجاهد لا يعتبرها شخصية صرفة ، ويقول « وهنا نمس نقطة حساسة جداً ، هي التمييز في الكتابات التي تنشر باسم هيئة سياسية بين نصيب الفرد المنفذ الذي يباشر التحرير النهائي وبين نصيب الهيئة الجماعية التي تضع تصميم الفكرة ، فهل ذلك ممكن ، والى أي مدى» .

ثم يقول :

« اذن فنحن عندما نؤكد تأثير الثورة الجزائرية في فانون لا نقصد الى التجني عليه أو القدح في قيمته . ان نسبة جزء من أعماله الى الثورة الجزائرية والكشف عن مدى تأثيرها في تفكيره ليس انكاراً لقيمته ، وقد سبق « لرومان رولان » ان لاحظ بأن قيمة ثورة ما تظهر من خلال قيمة الرجال الذين تصهرهم » .

ويقول في مكان آخر :

« من الخطأ اعتبار كتابات فانون كلها معبرة عن خط فكري وفلسفي واحد متكامل ، ان جزءاً كبيراً منها هو عبارة عن انفعالات ومحاولات فكرية تتطور باستمرار متفاعلة مع الأحداث ومتأثرة بالوضع النفسي للكاتب ، سواء كان وضع متفائل متحمس او متشائم يائس » .

الذي لا شك فيه ان المؤلف احد بأدق النقاط ، وتتبع افكار فانون تتبعاً اثبت من خلاله وجهة نظره ، ولكنه ترك فانون شبه عار ، فاتجاهاته تحولت من فرنسي الى زنجي ، ثم بدأ يؤمن بالماضي واثره بعد انخراطه في صفوف الثورة الجزائرية ، الى نوع من الأممية ، والواقع ان المؤلف طرح ناحيـة في غاية الاهمية هي اثر الثورة الجزائرية في فكر فانون ، ولكن فانون بدا وكأنه انسان آخر غير ذلك الذي نعرفه وتعرفنا اليـه من خلال كتاباته ، ولعل للمؤلف عذراً في مضمون الكتابة التي اختارها ، وفي عنوان الكتاب،وفي الكتابات الضافية التي كتبت عن فانون ،وشهرته العالمية ، وخفاء الناحية التي قصدالها المؤلف ، وبالرغم من هذا يبدو فانون هنا نحيلاً، ليس ذلك العملاق الذي عرفناه ، وربما مال المؤلف الى تضخيم بعض النقاط ليؤكد فقد او انعدام اثر فانون في الثورة الجزائرية :

فهو يستشهد بما قاله « بن باديس » عن المرأة وعن تعليمها ، وعن أهميتها بالنسبة لبناء الجيل،والمحافظة على الشخصية الوطنية،ليدلل على أن ما قاله فانون بهذا الخصوص كان مسبوقاً عليه ، ويتخذ من مداومة النساء الجزائريات على زيارة قبور الشهداء في

« الأغواط » مثالاً له نظائره ليبين الأهمية العملية لدور هذه المرأة ، ويرى ان بعض الأمثلة التي استخلصها فانون وأعطاها صفة التعميم انما مستخلصة في ضوء التجربة الجزائريـــة .

يقول الميلي

« لا ينبغي أن تخدعنا بعض الأسماء التي يقدمها – أي فانون – مثل « الأزتيك » تلك الحضارة القديمة في أميركا اللاتينية أو حضارة « سونغاي » الأفريقية ، فان المثال الذي استخلص منه فانون هذا الدرس هو المثال الجزائري ، ان مرحلة الأمية على مستوى العالم الثالث التي وضع « معذبو الأرض » لخدمتها هي التي كانت تدفعه باستمرار الى إيراد تسميات من أفريقيا السوداء أو أميركا اللاتينية تدعيماً لهذا الخط ، واذا كان قد أتيــح لفانون أن يطلع على هذا التاريخ او ذاك لهذه المنطقة او تلك من العالم الثالث فإنه لم يفعل ذلك إلا بدافع التعميم والتأكد من الخط الذي اكتشفه في ضوء التجربة الجزائرية».

والمؤلف لايقبل التعميم الذي يأخذ به فانون كصفة آتية من تشابه الأوضاع الاقتصادية ، وفهم واقع الثقافة ، وماضيها ، وربطها بالتطلع النضالي ، بل يرى هذا التعميم مأخوذاً عن « مبدأ أو فكرة استخلصها فانون من الجزائر »

كما يرى في « معذبو الأرض» مكمن خطر اذ قد يحمل البعض عـلى أن يفهم بأن المبادىء المستخلصة فيه بشأن هذا الموضوع تنسحب حتى على المستقبل .

وحين يتعرض لاعادة تقييم التراث يبدو حكمه بحاجة الى توضيح أكبر « فاعادة تقييم التراث تضمن تأصيل الشخصية الوطنية ، وتزويدها بتلك القاعدة الضرورية التي تضمن انفتاحها على القيم والتجارب العالمية دون أن تتعرض لخطـر التفكك والتفتيت» كما يقول الميلي ، ولكن .

هل الشخصية الوطنية غير الشخصية القومية ؟

وكيف نقيّم التراث ؟

ان هذه النقطة بالذات كانت تحتاج الى شرح أكبر ، واهتمام بالغ ، لاننا حين نتمكن من تقييم هذا التراث تقييماً جماهيرياً ، علمياً ، نكون قد وصلنا الى منعطف حاسم في خلق فكر موحد لدى الأجيال القادمة عن التاريخ الذي مازالت مجالات الاختلاف فيه بادية ، بل وفاعلة في بعض الاحداث

ان الاحكام العامة هنا لاتجدي ، ولابد من توقف متعمد عند مثل هذه النقطة .

ويرى المؤلف أن الثورة الجزائرية كانت « تشتمل على بذور مؤكدة لنوع من الأممية » على مستوى المضطهدين في العالم ، ان مثل هذا التقرير يحتاج الى أدلة نظرية وفكرية ، لأن التعاطف ، وتلاقي الثورات على أهداف تحررية ، أو مرحلية ، لايعني الأممية ، وهنا يبدو أن الصواب لم يكن حليف المؤلف، ولعل مرد ذلك الى تمسكه بالثورة الجزائرية ، وبمعطياتها ، غير أن ذلك يجب ألا يوقعنا في مغالطات وتناقضات لاتخدم الثورة في شيء .

وحين يبحث عن الأدلة في عفوية الشعب الجزائري ـ عن ذلك يقدم لنا أمثلة عن اهتمام اهل قريته ، والسكان بحوادث ١٩٤٨ في فلسطين ، وعن اهتمامات السكان بالحرب التي قامت بين الحبشة وايطاليا ، وارتياحهم لاستقلال سورية ولبنان .. : يتكلم فيغفل الحس القومي لشعب عربي واحد .

هذا بالنسبة للأحداث العربية ، أما بالنسبة للاهتمامات الاخرى فمن الطبيعي ان تلتقي الشعوب التي صودرت حريتها على هدف واحد ضد الاستعمار ، وليس في ذلك شيء من الاممية .

ويقع المؤلف في تناقض مع نفسه في جملة واحدة اذ يقول : « ولم يجد الاستعمار فئة رجال الدين ليعتمد عليها ، لانه كان قد تدخل حتى في ميدان الدين رغم الدستور الفرنسي الذي كان ينص على لادينية الدولة ـ فكان يصر على اسناد المناصب الدينية للعملاء والمأجورين ، وبذلك أصبح رجال الدين صنفين : صنف تعاون مع الاستعمار ففقد ثقة الشعب ، وصنف لم يتعاون معه فكسب ثقة الشعب وعمل في صفوف الثورة »

التناقض لايحتاج الى اشارة اذ كيف « لم يجد » و « اسند » ؟ ! وفي اكثر من مكان يصر الكاتب على خصوصية جزائرية كانت وراء فكر فانون ، مفسراً ماساقه فانون من امثلة لهاصفة الشمول بأنه استخلصها من التجربة الجزائرية كانت تمتلك نظرة شمولية: وهنا لابد من الاشارة الى ان الثورة الجزائرية قدمت تحليلا . وفهماً عاليين ، وكفاءة فائقة في تعاملها مع الواقع . ولكننا لانستطيع تسمية ذلك ايديولوجية شاملة ، لان الايديولوجية اوسع معنى واحاطة من ذلك .